الثورة العباسية

تأليف

الدكتور محمد عبد الحي شعبان

ترجمة

عبد المجيد حسيب القيسي

دار الدراسات الخليجية

الثَّوْرَةُ العَبَّاسِيَّة



الثورة العباسية

تأليف

الدكتور محمد عبد الحي شعبان

ترجمة

عبد المجيد حسيب القيسي

دار الدراسات الخليجية

الإهداء

إلى

أرض بلادي

ومثوى أبائي وأجدادي

أرض الأحرار والثوار

إلى

أرض بلاد الرافدين

وإلى

أحرارها وثوارها

في كل زمان ومكان

أهدي حديث هذه الثورة

هديّة إجلال واذكار

وحديث موعظة واعتبار

عبد المجيد القيسي

محتويات الكتاب

— الكتاب —

الصفحة

الصفحة

الصفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

- ١ -

الحمد لله رب العالمين والشكر له تعالى على ما أفاء به علينا من نعمه وآلائه ، وما حبانا به من الرعاية والتوفيق ، فيسر لنا اقامة « دار الدراسات الخليجية » التي استطاعت – رغم حداثة العهد وكثرة الصعاب ومشقة الدرب – ان تنشر للناس اثرين هامين فريدين اولهما « كتاب تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة » وثانيهما « سيرة الامام ناصر بن مرشد » اول الأئمة اليعاربة في عمان لمؤلفه ابن قيصر وهو من قدامى المؤرخين العمانيين .

واذا كان اهتمام الدار ينصب في المقام الاول على التعريف بمنطقة الخليج والكشف عن تاريخها وتراثها الفكري ، فما ذلك الا لان هذه المنطقة جزء من الوطن العربي الاكبر لم يحظ من الباحثين بالعناية التي حظيت بها اجزاء الوطن الاخرى . ولكن هذا لا يعني ابدا انصراف الدار عن الاهتمام بشؤون اية بقعة اخرى من بقاع عالمنا العربي او أية فترة من فترات تاريخه ، بل انها لترحب شاكرة باي جهد علمي يتفق ورسالتها ويسهم في اغناء الفكر العربي والاسلامي حتى وان تعدى نطاق بحثه حدود هذه المنطقة في المكان والزمان .

وانطلاقا من نظرتها القومية الشاملة هذه ، ومن رسالتها في السعي لنشر المعرفة التاريخية ، فانه ليسعد « دار الدراسات الخليجية » ان تقدم اليوم لقرائها في انحاء العالم العربي هذا الكتاب الباحث في تاريخ فترة من أهم فترات التاريخ العربي والاسلامي واحفلها بصراع التيارات القومية والوطنية والدينية وباختلاط الصالح

العام بالطموح الفردي والعصبيات القبلية بالنوازع الدينية وبالولاءات الوطنية لمختلف الافراد والاجناس كالعرب والفرس والترك وغيرهم وعلى امتداد بقعة واسعة تمتد من حدود الصين في الشرق إلى بلاد الشام والحجاز غرباً وعلى مدى زمن طويل يناهز المائة عام .

هذه الفترة الهامة الشائقة الدقيقة والمعقدة هي الفترة الممتدة منذ بدء الفتوح العربية لبلاد المشرق وخراسان زمن الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان (رض) حتى قيام الثورة العباسية التي أرست ملك بني العباس في أرض الرافدين ، مرورا – اثناء هذا – بفترة حكم بني امية في الشام ، وما كان من تعاقب الخلاف في سياستهم وساستهم من أثر مباشر او غير مباشر في انهيار ملكهم وانتقاله إلى بني العباس .

– ٢ –

ولم يكن انتقال الحكم من بني امية إلى بني العباس في مطلع القرن الثاني للهجرة مجرد تغيير في العوائل الحاكمة وحسب ، بل كان نقطة تحول خطير في تاريخ العرب والاسلام ، وكان بما تضمنه وما ادى اليه من تغييرات جذرية في بنية الجماعة الاسلامية « ثورة » سياسية حقيقية بمعناها الشامل العام .

وقد اختلف الناس في تقييم هذه الثورة واسبابها ، فالمؤرخون العرب الاوائل لم يحاولوا الربط بين الاحداث ومن ثم تحليلها للوصول من مقدماتها إلى نتائج معينة ، وانما كان قصارى جهدهم جمع الروايات المتفرقة وسرد الاحداث كما وقعت .

ومنهم من كان هواه مع فريق معين يؤيده ويناوئ خصومه ومعارضيه فكان جهده أن يجمع من الاخبار والروايات ما يؤيد وجهة نظر فريقه ويضعف حجة الفريق الآخر او يدحضها . ومع هذا وذاك فلم يكن عمل هؤلاء المؤرخين الاوائل بالشيء الهين البسيط ، بل كان عملاً جباراً وانجازاً رائعاً فان مجرد تسجيل الروايات والاحداث كان جهداً عظيماً مشكوراً حفظها لنا من الضياع وهيأ لمن جاء بعدهم مادة اولية ضخمة يسرت لهم سبل البحث والتحليل والاستنتاج .

وقد بدأ المستشرقون ، اول من بدأ ، بدراسة هذه الثورة وتقصي اسبابها وهوية القائمين بها ودوافعهم اليها ، فذهب المستشرق فان فلوتن إلى أن الثورة العباسية كانت حركة ايرانية قومية نهض به الفرس للتخلص من نير الحكم العربي لهم ولبلادهم يدفعهم إلى ذلك حقدهم على العرب عامة وكرههم للحكام العرب الذين فشلوا في تحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة بينهم وبين شعوب البلاد المفتوحة مما أدى إلى ظهور الروح القومي الايراني .

وقد أيد المستشرق فلهوزن بكتابه « الدولة العربية وسقوطها » هذا الرأي وجمع ما استطاع من الروايات العربية المتناثرة هنا وهناك ليؤيد صحة ما ذهب اليه .

وقد نسب مستشرقون آخرون سبب قيام الثورة العباسية إلى ظهور الترك الغربيين في بلاد ما وراء النهر حتى بلغ التعصب بالبعض إلى اعتبار أبي مسلم الخراساني بطلاً شعبياً تركياً .

وقد ظلت هذه التفاسير هي السائدة في اكثر ما كتب المؤرخون المحدثون عرباً كانوا أم غير عرب . وبسببها رانت سحابات الشك وارتسمت علامات الاستفهام عن مدى عروبة او فارسية الحركة العباسية والقائمين بها ، وحتى بلغ الجهل وقصر النظر ببعضهم إلى اعتبارها ردة شعوبية ضد الحكم العربي السليم ايام بني امية .

ولم يلبث ان ظهر بين المستشرقين من اعاد النظر في طبيعة هذه الثورة ودوافعها ، ودرسها بطرق البحث العلمي الحديث وعلى ضوء ما تيسر له من مصادر اصيلة جديدة لم تتوفر للباحثين الاوائل . فانتهى بها الى نتائج جديدة تخالف ما كان قد تعورف عليه من قبل في هذا الامر . وكان اول من نحى هذا المنحى مستشرق امريكي شاب هو دانيال دينيث حيث بدأ يلقي الشكوك على ما توصل اليه القدامى من نتائج لم تعد تصمد للبحث الصحيح .

لكن الاجل لم يمهله لتحقيق مهمته على الوجه الاكمل ، فجاء البروفسور هاملتون جيب وحاول ان يحذوا حذوه . في بعض مقالاته .

— ٣ —

وكان الدكتور محمد عبد الحي شعبان مؤلف هذا الكتاب أول مؤرخ

عربي ينصرف الى هذا الموضوع فيدرسه حق دراسته وبطرق البحث العلمي الحديث وعلى ضوء ما تيسر له من مصادر اصيلة جديدة ، فانتهى به البحث الى ان هذه الثورة العباسية حركة عربية قام بها اساساً العرب المستقرون في خراسان .

ويرى الدكتور شعبان ان الثورة انما بدأت في خراسان لان التطورات السياسية والاجتماعية التي حدثت هناك نتيجة الفتح العربي للبلاد قد ادت إلى دمج القبائل العربية التي كانت قد استقرت هناك بالسكان الايرانيين المحليين مما ادى بهؤلاء العرب الفاتحين إلى فقدان امتيازاتهم كطبقة فاتحة حاكمة ، في حين ظلت امتيازات الارستقراطية الايرانية غير المسلمة ، والممثلة بالدهاقين ، على حالها الاول ، مما أدى بدوره إلى وجوب خضوع العرب للحكام المحليين الايرانيين وحكمهم الذي كان يمارسه هؤلاء الدهاقنة وهو الامر الذي كان يستنكف منه العرب ويأبون القبول به .

وعلى هذا بدأت جذور الثورة تنتشر في تلك البلاد وهدفها خلق مجتمع اسلامي موحد يتساوي افراده في الحقوق والواجبات لا فرق فيه بين العرب وغير العرب . وهذه الدعوة في الواقع هي من صميم الدعوة الاسلامية ، ولكنها تمس ، وفي الصميم ايضاً — الشعور القبلي للشعب العربي الفاتح . وعلى هذا فان القائمين بهذه الثورة كانوا ذوي نظرة إلى الاسلام اوسع وابعد من النظرة الاموية العربية الضيقة لها .

وقد تعاونت عوامل عدة فهيئت لبذور هذه الثورة النماء والازدهار ، ومن هذه العوامل كثرة تعاقب حكام بني أمية واختلاف سياساتهم وولاتهم وعمالهم خلال قرن من الزمان . كما كان لتفاعل الظروف وتطور الاحداث السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية وتشابك العصبيات والمصالح والولاءات اثره في خلق الاجواء المناسبة لنشوب هذه الثورة وانتشارها .

وقد تبوأ هذا الكتاب منزلته العالية في المحافل التاريخية التي تعنى بهذا النوع من الدراسات ، فاعيد طبعه مرتين خلال السنوات الاربع المنصرمات على نشره اول مرة . وما كان تبوءه هذه المنزلة بسبب جدته واصالته ، وهما ميزتان بارزتان فيه ، فحسب ، بل ولميزة اخرى ينفرد بها على كل ما كُتب ومن كتب في هذا الموضوع على الرغم من كثرة هذا وهؤلاء بين العرب وغير العرب على حد سواء . هذه

الميزة هي قدرة هذا الكتاب على حمل قارئه على التفكير ، والتفكير العميق في كل ما يعرض له من احداث وشؤون ، ذلك ان المؤلف استطاع ، بقدرة ومهارة فائقتين ، ان يربط الاحداث ويوحد فيما بينها ، وكما هو شأنها في الواقع ، ربطاً محكماً فربط الحياة السياسية بشؤون الاجتماع بقضايا الاقتصاد والتجارة بمشاكل الحروب بالمصالح الخاصة والاطماع الفردية بالولاءات الوطنية والقومية والعصبيات القبلية بمظاهر الحياة الاخرى في كل مستوياتها .

ولهذه الميزات الفريدة في هذا الكتاب فقد اثرنا ترجمته إلى لغة القوم الذين يتحدث عن تاريخهم فهو يعنيهم وان كتب بلغة غير لغتهم ، ومن حقهم ان يطلعوا عليه ويفيدوا منه .

— ٤ —

وهذا الكتاب هو احد كتب ثلاثة نشرها المؤلف عن التاريخ الاسلامي منذ اول ظهور الدعوة المحمدية حتى ظهور السلاجقة في بغداد عام ٤٤٨ ﻫ وقد بدأ المؤلف انتاجه بكتابه هذا عن الثورة العباسية لان دراستها كانت موضوع اطروحته للدكتوراه من جامعة هارفرد عام ١٩٦٠ . وقد ثنى هذه الدراسة بكتابه الثاني عن تاريخ الاسلام منذ ظهوره حتى عام ١٣٢ ﻫ او ٧٥٠م واتبعه بكتاب ثالث عن الفترة ما بين عامي ١٣٢ — ٤٤٨ ﻫ او ٧٥٠ — ١٠٥٥ م . ونرجو ان نوفق إلى تقديم هذه الكتب إلى قراء العربية تباعاً . كما يعكف المؤلف الآن على كتابة مؤلفه الرابع عن تاريخ العرب في الأندلس والمأمول ان ينتهي منه في القريب العاجل ان شاء الله .

وقد دأب الدكتور شعبان في كتبه كلها على الاخذ بطريقته التي شرحناها في تفسير احداث التاريخ الاسلامي وربطها برباط متصل من المنطق والمصالح السياسية . « فقد دأب الناس » — كما يقول في مقدمة كتابه الثاني — «على دراسة احداث التاريخ العربي وتفسيرها على اسس متخيلة من التنافس القبلي والخصومات الشخصية والطموح او الطمع الفردي التي تتنافى مع المنطق والعقل ولا يقوم دليل صحيح على وجودها في الحقيقة والواقع . والعيب البارز في امثال هذه التفسيرات

هو اغفالها التام للمصالح المنطقية للعرب وتقليلها – بشكل معيب – من قدراتهم على التكيف للظروف الجديدة، في حين ان القادة والساسة العرب، رغم عيوبهم الجمة، كانوا رجال حكم وسياسة يحسون بتبعاتهم تجاه رعيتهم ويعملون جهدهم على انجاح خططهم الرامية إلى رفاهية رعيتهم وخيرها . وعلى هذا الاساس يجب ان نفهم تصرفاتهم الفردية وسلوكهم السياسي لا على انها محض نزوات آنية وعواطف شخصية مصدرها الاوهام والاحقاد وهدفها الامجاد الشخصية والمكاسب الفردية » .

وقد اعتمد المؤلف في بحوثه هذه على المصادر العربية الاصيلة التي « تتضمن قدراً كبيراً من مواد البحث الاولية التي تكفي – لو احسن استخدامها – لاكثر من مجرد عرض تاريخي لاحداث تلك الفترة » ولذلك فقد كانت مهمته ، كما يصفها هو، « ان نجد ونحلل ونفهم النصوص على ضوء الطبيعة العامة لكل مصدر وعلاقة ذلك النص بما اوردته المصادر الاخرى من نصوص مشابهة »

وقد احسن الدكتور استعمال مصادره والانتفاع منها ووفق في ذلك كل التوفيق، واذا كان المؤلف قد أقر لاستاذه البروفسور هاملتون جيب بالاستاذية في فن استخدام المصادر والافادة منها ، فالواجب علينا ان نقر لمؤلفنا الدكتور شعبان بحسن تلمذته على استاذه جيب ان لم يكن قد بزه وتفوق عليه في هذه المهارة، كما تشهد على ذلك كتبه الثلاثة، وهذا احداها بين ايدينا يشهد على جلده في جمع المصادر ثم غربلتها وعلى قدرته الفائقة على التمييز بين الاخبار الغثة والسمينة ثم النفوذ إلى الخبر الصحيح والرواية الموثوقة ليضعهما من بعد في موضعهما الصحيح بين بقية الاخبار وليقيم من كل ذلك نظرية تاريخية متكاملة تبهر الفكر بعمقها واصالتها كما تبهره بجدتها وحسنها وبالتالي تفرض نفسها بصدق حجتها وقوة منطقها ومتانة بنائها وحسن عرضها .

– ٥ –

والدكتور شعبان خير من يستطيع ان ينهض بهذا الامر ويؤديه حق ادائه ، فهو راهب منقطع في معبد التاريخ وهب له نفسه ووقته ووصل فيه إلى مقام القمة

فيه بين القلة القليلة من دارسي التاريخ العربي والاسلامي في العالم عرباً كانوا أم اعاجم .

ولم يصل مؤلفنا هذه القمة الا بعد كفاح طويل وجهاد شاق مضن طويل ضاع – اثناءه – في دروب الحياة زمنا قبل ان يكتشف نفسه ويعرفها حق العرفان.

فالاستاذ شعبان « منذور للتاريخ بكل ما يفهم لهذه الكلمة من معنى . » وليعذرنا استاذنا الدكتور اذا استعرنا هذا التعبير من المرحوم الاستاذ العقاد . « فقد كان الاقدمون » – والكلام للاستاذ العقاد – « اذا قيل لهم عن احد من الناس انه منذور لهذا المعبد او هذا الحرم فهموا من ذلك انه مدفوع إلى خدمة ذلك المعبد دفعاً لا يستطيع منه فكاكاً وانه قائم في خدمة المعبد طيلة حياته لا يملك ان ينحرف عنه باختياره لان ارواح المعبد او جنوده ترده اليه اذا انصرفت وجهته عنه فلا تبقى في نفسه بقية لغير الوفاء بنذره والاخلاص في خدمة معبده » .

وهكذا كان الامر مع الدكتور شعبان منذ مستهل حياته، فكلما دفعته ظروف الحياة إلى درب من دروبها صدته جنود المعبد او ارواحه عن ذلك الدرب او اغلقته دونه ليعود ادراجه يفتش من جديد عن طريق جديد، هو طريق المعبد ذاته.

فلقد دفعته ظروفه إلى الحياة العسكرية فتخرج من المدرسة الحربية ضابطاً في الجيش المصري حيث وصل إلى رتبة متقدمة وكان له شرف القتال في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ حيث ابلى بلاءً حسناً ودفعته « فرديته » وقوة شخصيته إلى الخروج على أوامر الجيش وإلى ضروب من الاقدام والشجاعة ما يزال يذكرها له الشيوخ من اهل غزة ممن كانوا رفاقه في المعارك والسلاح .

ومع هذا ، او لهذا ، وجد ان الجيش ليس سربه واستمع إلى نداء النذر في داخله يصده عما هو فيه ويرده إلى ما هو منذور اليه ، فترك الخدمة بالجيش ودخل كلية الحقوق في جامعة القاهرة ، وفي ظنه انه وجد طريقه ووفى بنذره ، لكن ارواح المعبد صدته عن دراسة القانون ودفعته إلى ترك كلية الحقوق ليستقر في قريته في ريف مصر، وكانت رئاسة اسرته الكبيرة قد آلت اليه واعباؤها قد القيت على كاهله ، فانصرف إلى الارض يستزرعها وإلى القطن يجنيه ويبيعه،

فنجح في عمله هذا وامتلأ جيبه ففرح وانتشى وظن انه وجد نفسه واكتشف مستقبله . لكن ارواح المعبد ما عتمت ان جذبته من قريته وانتزعته من ارضه وردته إلى وجهته الصحيحة ودربه القويم فدفعت به إلى قسم التاريخ في كلية الاداب بالقاهرة ، وكان هذا أول عهده بالمعبد وحياته وسرعان ما احتواه المعبد فظل فيه حتى اليوم قائماً بواجبه في خدمته واداء نذره .

وقد تكلف به كهان المعبد وحماته يوجهون خط سيره ويرعون خطاه فدفعوا به إلى بلاد فارس ليتعلم لغتها ويدرس ادابها ، ثم طوحوا به إلى واشنطن ثم إلى بوسطن في الولايات المتحدة حيث التحق بجامعة هارفرد وحيث وهب نفسه للمعبد وجنوده وللنذر وواجباته . « فلم تبق لنفسه بقية لغير الوفاء بنذره العظيم » والانصراف إلى التاريخ دراسة وتدريساً وبحثاً ونشراً .

فقد درّس في الجامعات الامريكية ثم في جامعتي لندن وكمبردج في انكلتره ، ثم استقر به المقام حيث هو الآن استاذاً للدراسات العربية والاسلامية في جامعة اكستر في المملكة المتحدة . وكان في اثناء ذلك قد اغنى الفكر التاريخي بكتبه وبمقالاته في المجلات التاريخية وفي دوائر المعارف وبمحاضراته وابحاثه في المجامع والمؤتمرات وبما حقق من مخطوطات لم يقدر لها أن ترى النور بعد .

امد الله في عمره ونفعنا بعلمه وفضله .

– ٦ –

وبعد فان من دواعي سرور المترجم واعتزازه ان يتيح للقراء غذاء فكرياً من نوع جديد وان ينتقل بهم من تاريخ المنطقة الخليجية إلى رحاب أوسع او زمان اقدم وافاق ابعد . وكل الذي نرجوه ان ينال عملنا هذا رضى القراء الكرام ، ورضى الاخ العزيز والصديق الكريم استاذنا الدكتور شعبان . وما ادراك رضاه بالامر اليسير على كل حال . ولهذا فقد التزمنا في الترجمة حرفية النص ما امكن ذلك . فلم نخرج عنه الا في مواضع قليلة وفي جمل قليلة محدودة . وحاولنا ان ننقل للعربية لا أراء المؤلف ومعانيه فحسب ، وانما اسلوبه في الكتابة وطريقته في العرض ايضاً . وقد جهدنا ان نضع كل ذلك في بيان عربي سليم واسلوب قويم ما وسعتنا القدرة والمعرفة على ذلك .

وقد عرضنا الترجمة على الاستاذ المؤلف فاجرى فيها قلمه تصحيحاً وتنقيحاً. وغيّر في عناوين بعض الفصول ليضفي عليها مسحة عربية ، فله الشكر الجم على ما قدم وفعل ، وعلى انه اذن لنا بترجمة مؤلفه هذا ونشره .

وقد اسهم الاخ الاستاذ عبد الله ابو عزة نائب مدير مكتب الوثائق والدراسات في ابو ظبي في مراجعة الترجمة وابداء الكثير من الملاحظات القيمة النافعة فله منا الشكر الجزيل على ما صحح ونصح .

ولا بد في الختام من شكر خاص للاخ الاستاذ حسن حسني المنياوي، فلولا جهوده الجبارة ومثابرته على اقتحام أهوال الحرب في لبنان لما قدر الظهور لهذا الكتاب وما سبقه من كتب وربما لما قد يليه منها ان شاء الله .

وكذلك لا بد من التنويه بفضل المطبعة البولسية في جونية بلبنان، لا على حسن معاملتها وجودة طبعها وأدب القائمين على شؤونها وكفاءتهم، فحسب، بل، ولحرصها على الاحتفاظ بمسودات هذا الكتاب وحمايتها من التلف والضياع خلال أشهر الحرب الأهلية المدمرة التي عصفت بلبنان . فلها ولأصحابها الاصدقاء أوفر الشكر والامتنان .

على ان ذكر الفضل لاصحابه والشكر لهم ، وان كان يشركهم بما في الكتاب من حسنات ولكنه لا يحملهم بأي حال من الاحوال وزر ما في هذه الترجمة من قصور واخطاء، فتلك تبعتي وحدي انهض بها مستقلاً منفرداً وما التوفيق الا من عند الله .

أبو ظبي ١٠ / ٤ / ١٩٧٧

عبد المجيد حسيب القيسي



كلمة شكر

نواة هذا الكتاب هو رسالتي لنيل الدكتوراه التي قدمتها إلى جامعة هارفرد عام ١٩٦٠ بعنوان :

« الجذور الاجتماعية والسياسية للثورة العباسية »

واني لمدين بالفضل الجم إلى البروفسور هاملتون جيب الذي علمني فن استخدام المصادر وقد كان — دون خلاف — العَلَم المبرز في هذا الفن والفارس المجلي الذي لا يلحق به احد في هذا المضمار . وكذلك اشيد بالفضل للبروفسور ريشارد فري لعونه الوافر وارشاده الدائم وتشجيعه المتواصل على مدى سنوات عدة كنت فيها في أمس الحاجة إلى هذا العون والارشاد .

وقد تفضل البروفسور شارلز بكنغهام فطالع مسودات هذا الكتاب بما عرف عنه من الدقة والعمق والشمول وابدى عليها اقتراحات قيمة انتفعت شاكرا ممتنا بالكثير منها .

ولا بد لي من اسداء الشكر إلى كل من البروفسور جون . اي بويل والبروفسور برنارد لويس على ما ابدياه لي من العون والتشجيع . كما اشكر السيد هيوكينيدي على قيامه بتنظيم فهرست الاعلام .

ولا بد لي من شكر خاص إلى الآنسة كارولين كروس في كمبرج ماساتشوستس بالولايات المتحدة والسيدة دون هوبارد في جامعة كمبرج في المملكة المتحدة لعنايتهما في نقل مسودات هذا الكتاب — وكانت صعبة وعرة — على الآلة الكاتبة . كما واشكر المستر كينيث هوبارد في جامعة كمبرج على ما اسهم به من هذا العمل ايضاً.

واقدم شكري إلى مطبعة جامعة كمبردج لنشرها هذا الكتاب وأنا مدين بالامتنان بصفة خاصة إلى هيئة تحرير المطبعة والى طباعيها للعناية التي بذلوها والمشقة التي تحملوها في سبيل أصدار هذا الكتاب .

كمبردج ١٩٧٠ — م . ع . شعبان



تمهيد

منذ نيف وثلاثين سنة مضت قرر دانيال سي . دينيث[1] ان الوقت قد حان لاعادة النظر فيما انتهى اليه جي. دي فلهوزن من نتائج عامة عن تاريخ الخلافة الأموية ، فقد رأى دينيث انه على الرغم من كثرة الدراسات التي تلت صدور هذا الكتاب والتي أضافت إلى سابق علمنا في هذا الموضوع الشيء الكثير ، فإن هذه الدراسات لم تحاول أن تمحص أو تمتحن صحة النتائج التي جاء بها كتاب « الدولة العربية » . عدا عن هذا فقد صار لزاما ان يعاد تقييم هذه النتائج على ضوء ما استجد لدى الباحثين من معلومات تاريخية لم تتوفر للمستر فيلهوزن في أيامه . وقد بدأ دينيث فعلا بداية طيبة في هذا الاتجاه الا أن وفاته المباغتة حرمتنا من استمرار الانتفاع بجهوده .

ومنذ زهاء العشر سنين قمت من جانبي بجهد مماثل للتنبيه على خطر الاعتماد على أحكام فيلهوزن التي عفى عليها القدم[2] .

وقد ظهرت في الأعوام الأخيرة دراسات عدة تتناول شتى جوانب التاريخ الأموي الا أن الظاهرة العامة البارزة في هذه الدراسات هو اعتمادها المطلق على آراء فيلهوزن والتسليم بها دون ما جدل أو امتحان .

فمن الغرابة بمكان ، ولا شك ، أن نجد مؤرخاً كبيراً ذا فكر محقق جوال

---

(١) دانيال سي . دينيت : مروان بن محمد . اطروحة لم تنشر . جامعة هارفرد سنة ١٩٣٩ . ص ٣ . وأيضاً جي . دي فيلهوزن : الدولة العربية وسقوطها (أصل هذا الكتاب في الألمانية وترجمه إلى الانكليزية جي واير ونشر في كلكتا عام ١٩٢٧ [وترجمه إلى العربية عبد الهادي أبو زايدة والاشارات في هذا الكتاب إلى الترجمة الانكليزية فقط .]

(٢) م . ع شعبان : الجذور السياسية والاجتماعية للثورة العباسية . أطروحة لم تنشر .

كالبروفسور مونتغمري وات ، وآخر ذا احساس تاريخي مرهف كالبروفسور كلود كاهن [1] يتقبلان آراء فيلهوزن ويسلمان بها دون فحص أو تمحيص . ومن هذا القبيل أيضا ما طلع به علينا البروفسور برنارد لويس الذي يشير في كلامه إلى نتائج فيلهوزن « المشهورة جدا » ولكن دون أن يكلف نفسه عناء امتحان تلك النتائج « المشهورة » ومناقشتها [2] .

ومع ان البروفسور سي . أي بوزوورث قد اعترف « بقيام م . ع شعبان باعادة تفسير الاحداث وتقييمها في خراسان خلال الحقبة السابقة على الحركة العباسية مما أدى إلى تصحيح الكثير من النتائج التي انتهى اليها في هذا الموضوع كل من فان فلوتن وفيلهوزن »[3] ومع هذا فان البروفسور بوزووث استمر في الاعتماد على تلك الآراء الخاطئة أساسا لابحاثه .

وقد تأثر فيلهوزن في آرائه عن موقف العرب في خراسان وفي نظرته إلى الثورة العباسية بالآراء العنصرية التي جاء بها فان فلوتن والذي كان من رأيه ان ما دفع الخراسانيين إلى تقبل دعوة آل البيت هو «مقتهم المستأصل للغاصبين العرب الأجانب عنهم وظهور الدعوة الشيعية وانتظار المهدى المنقذ » [4] وزاد فان فلوتن على ذلك بأنه يرى أن تبعة الوصول إلى هذا الحال تقع على عاتق الحكام العرب الذين فشلوا في معاملة رعاياهم المغلوبين على أمرهم ممن اعتنقوا الاسلام معاملة مساوية لمعاملة أصحابهم من المسلمين العرب . وهذه التفرقة في المعاملة أدت بدورها إلى

---

(١) و . م . واط : الشيعة تحت الحكم الأموي . مجلة الجمعية الآسيوية الملكية (١٩٦٠) ص ١٥٨ — ١٧٢ وله ايضاً « معتقدات الخوارج في العصر الاموي » الاسلام ، (مجلة المانية مجلد ٣٦ الجزء ٣ (١٩٦١) ص ٢١٥ — ٢٣١ وله ايضاً . الفكر السياسي الاسلامي ، ادنبرة ١٩٦٨ وكذلك كاهن : وجهات نظر حول الثورة العباسية « المجلة التاريخية باريس ١٩٦٣ ص ٢٩٥ — ٣٣٨ .

(٢) برنارد لويس : الألقاب الملوكية للخلفاء العباسيين الأوائل . نيودلهي ١٩٦٨ ص ١٧ .

(٣) س . ار . بوزوورث : سجستان تحت الحكم العربي . روما ١٩٦٨ ص ٤٨ .

(٤) جي فان فلوتن : ابحاث عن الفتوح العربية . امستردام ١٨٩٤ ص ١ .

بعث الروح القومي الايراني كوسيلة دفاع عن النفس للشعب الايراني المغلوب على أمره ضد غاصبيه العرب الفاتحين .

والخطأ الأساسي في نظرية فان فلوتن انه لم يحاول قط ان يفهم تطور الأوضاع في خراسان قبل الثورة العباسية ولهذا فقد بنى نظريته على افتراضات خاطئة قادته بطبيعة الحال إلى نتائج خاطئة أيضاً .

ومع أن فيلهوزن تبنى آراء فان فلوتن دون تمحيص كثير ، فانه حاول ان يكون أكثر منه انتظاماً في بحثه ، فخصص في كتابه « الدولة العربية » فصلا طويلا للبحث عن القبائل العربية في خراسان ، حاول فيه أن يشرح أوضاعها في تلك الولاية [1] . الا أنه لم يوفق في بحثه هذا بسبب اعتقاده ان تلك القبائل العربية ظلت مدفوعة ومتأثرة في علاقاتها مع بعضها البعض في خراسان بتقاليدها القبلية في الجاهلية وبنزاعاتها القبلية غير المتناهية . وقد فات فيلهوزن أن يلحظ أثر البلاد المفتوحة حديثا ، وبخاصة خراسان ، على تلك القبائل وانماط علاقاتها .

ولهذا وبسبب هذه النظرة الراسخة في ذهنه ، فانه لم يستطع ان يتفهم دلالة محتويات المواد الأولية التي استعملها هو نفسه ، وبالاختصار فانه حاول أن يتبنى ويؤيد آراءفان فلوتن بدلا من تصحيحها .

وقد لاحظ دينيث فشل كل من فلوتن وفيلهوزن فلم يوافقهما فيما انتهيا اليه من النتائج حول جذور الثورة العباسية وطبيعتها ، ولكن دينيث نفسه فشل أيضاً في تقديم تفسير جديد لها واستعاض عن ذلك بسرد مرتبك لاخبار وتاريخ مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين [2] .

وفي الطبعة الجديدة من دائرة المعارف الاسلامية عاد برنارد لويس فأخذ بالنتائج البالية التي وصل اليها فلوتن وفيلهوزن ، على أن المرء لا يستطيع الا أن يحس بأن لويس نفسه لم يقتنع كل الاقتناع بما نقله من تلك الآراء [3] .

---

(١) فلهوزن : الدولة العربية – الفصل الثامن ص ٣٩٦ – ٤٩٣ .

(٢) دينيث : مروان بن محمد .

(٣) ب . لويس . العباسيون ، دائرة المعارف الاسلامية . لايدن ١٩٥٤ .

وفي مقال للدكتور احمد صالح العلي عن « استيطان العرب في خراسان » وآخر للدكتور عبد العزيز الدوري عن « نظام الضرائب في خراسان » لم يستطع الكاتبان ان يتحررا تماما من سلطان فيلهوزن عليهما وان حاولا تصحيح بعض تفاصيل ما انتهى اليه دون المساس بجوهر نظريته [1] .

وقد أقر الدكتور فاروق عمر المستر دينيث في رفضه آراء فان فلوتن وفيلهوزن التي عفا عليها القدم، وسار إلى أبعد من ذلك فأخذ بتفسيرنا للتطورات التي قادت إلى الثورة في خراسان . ولكن الغريب ان يعود الدكتور عمر بعد كل هذا إلى القول « ولم يبق لنا بعد ذلك الا أن نقيم من جديد ثم نوضح الطبيعة السياسية للحركة العباسية وان نبين الدور الهام الذي لعبه العرب في الثورة » [2] ومن ثم يرتد الدكتور عمر إلى منطق فيلهوزن ونظريته وينتهي بعد سلسلة من التناقضات إلى بناء نظريته عن الثورة العباسية على الخصومات القبلية المستمرة بين العرب في جميع انحاء الامبراطورية .

وفي رأينا ، أن الثورة العباسية كانت تهدف اساسا إلى دمج كل مسلمي الامبراطورية عربا وغير عرب في مجتمع اسلامي واحد شامل يتساوى افراده في الحقوق والواجبات دون ما نظر إلى انسابهم أو اجناسهم . ولا شك ان هؤلاء الذين ساهموا في هذه الثورة كانوا في نظرتهم إلى الاسلام وتفسيرهم لعالميته اكثر سعة وشمولاً من نظرة العرب الامويين الضيقة وتفسيرهم المحدود له .

وكان مكان الثورة خراسان ، وعلى وجه التحديد مدينة مرو التي أدى استيطان القبائل العربية فيها وما تلاه من تطورات إلى اختلاط العرب المستقرين في واحة مرو بسكانها الاصليين من الايرانيين . وكان هؤلاء العرب المستقرون

---

(١) الدكتور احمد صالح العلي : استيطان العرب في خراسان ، مجلة كلية الآداب – بغداد ١٩٥٨ ص ٣٦ – ٨٣ والدكتور عبد العزيز الدوري : نظام الضرائب في خراسان مجلة المجمع العلمي العراقي مجلد ١١ / ١٩٦٤ ص ٧٥ – ٩٧ .

(٢) الدكتور فاروق عمر : الخلافة العباسية . اطروحة لم تنشر في جامعة لندن ١٩٦٧ ص . ٧٠ – ٧٤ .

هناك والذين اندمجوا مع الفرس اهل البلاد قد فقدوا امتيازاتهم كأفراد في الطبقة الحاكمة، فآلمهم ذلك كما آلمهم في الوقت نفسه شعورهم بالتبعية الى الارستقراطية الايرانية غير المسلمة في مرو .

وقد كانت هذه الفئة من العرب هي عماد الثورة وسندها . وقد انضم اليها بعض الموالي – أي من اعتنق الاسلام من سكان مرو – ولكنهم لم يكونوا ذوي عدد كبير لان الاسلام لم يكن قد انتشر انتشارا واسعاً في مرو بعد .

وقد كانت كل من هاتين المجموعتين في مركز مماثل للاخرى ولم يكن بينهما ما يدعو للعداء والخصام . وكان أفراد كلتا المجموعتين من الطبقات التي تنتفع كل الانتفاع من نجاح الثورة وانهيار النظام الاجتماعي السائد والقائم على اساس حصر كل الامتيازات في طبقة العرب المقاتلين الذين ظلوا يكونون الطبقة الحاكمة، وفي طبقة الارستقراطية الايرانية غير المسلمة التي ظلت تسيطر على الجهاز الاداري المحلي وظلت تتمتع في ظل الحكم العربي في خراسان بما كا كان لها قبل الفتح الاسلامي من تحكم وامتياز .

ومما لا شك فيه ان تنظيم الهاشمية السري ودعاوته المستمرة ودعاته الدائبين، اضافة إلى الفرقة والصراع من اجل الحكم بين الطبقة الحاكمة العربية . أسهما إلى حد كبير في نجاح الثورة . ومن الطبيعي ان ما من حركة ثورية الا ويكون نصيبها النجاح في مثل هذه الظروف المواتية .

وقد حاولت في هذا الكتاب أن أحلل العوامل السياسية والاجتماعية للثورة العباسية في خراسان من اجل الوصول إلى فهم صحيح لهذه الثورة الحقة التي كانت – ولا ريب – نقطة تحول بارز في تاريخ الجماعة الاسلامية .

وقد قمت أولا بتقديم صورة للوضع في المشرق في أيام الغزو العربي له . وحاولت، ثانيا ان اتتبع على اكثر ما يمكن من القرب أطوار القبائل العربية في خراسان عن طريق دراسة أماكن نزولها وكيفية استيطانها وعلاقاتها مع أبناء البلاد المفتوحة من جهة ومع الحكومة المركزية من جهة ثانية ، ومن ثم دراسة فعاليات القبائل ورغباتها ونزاعاتها الداخلية منذ ان وطأت أقدامها ارض خراسان حتى

قيام الثورة العباسية. وأخيراً فانني بحثت هذه الثورة وطبيعة عقيدتها السياسية وتاريخ تطور تلك العقيدة ثم مدى نجاح الثورة في تطبيق أهداف تلك العقيدة ولم أحاول في بحثي كله أن أتطرق إلى ذكر الحجج والنظريات التي أوردها فلوتن وفيلهوزن ودينيث ومناقشتها ، لانني انتهجت منذ البداية نهجاً يغاير نهجهم مبنيا على المصادر الأولية، ولذلك فانني أرى ان أية مناقشة لهذه الآراء لن تؤدي الا إلى أرباك البحث وتعقيده .

المصادر

لا خلاف في أن أبا الحسن علي بن محمد المدائني، مولى قريش (١٣٥ – ٢٢٥ هـ / ٧٥٢ – ٧٣٩ م) هو أوثق مصدر لتاريخ العرب في خراسان في الفترة الأولى.

ومع كثرة ما نقلته المصادر العربية عنه، فان أكمل وادق ما وصل الينا من أخباره عن خراسان هو ما نقله الينا الطبري في تاريخه، ولان الطبري لم يكن معاصرا للمدائني فانه لم يسمع عنه مباشرة وانما نقل اخباره من افواه رواة آخرين كثيرين من أبرزهم عمر بن شبه واحمد بن زهير بن حرب.

على أن الطبري مع شدة حرصه في العادة على ذكر سنده الذي ينقل عنه رواياته، فانه يهمل ذلك بعض المرات اهمالا كاملا [١] ولكنه يذكر المدائني في الروايات المنسوبة اليه، وقد يغفل ذلك في بعض الأحيان ويستعيض عنه بنسبة الرواية إلى «اشياخه»، وخاصة عندما تتفق الروايات مع بعضها في تفصيلات الخبر [٢] وقد يحدث أيضاً ان يذكر المدائني نفسه بعض مصادره دون البعض الآخر [٣] وذلك حين يقوم الشك في صحة خبر معين كان يكون مثلا اصلا قبليا مبالغا فيه، فانه يسند مثل هذا الخبر إلى مصادره في حين يذكر بقية نصوص الخبر نفسه بطريقة توحي إلى القارئ في أن نصا معينا هو أكثرها صحة وثقة [٤].

---

(١) أبو جعفر الطبري : تاريخ الرسل والملوك : طبعه ليدن ١٨٧٩ – ١٩٠١ ج ٢ ص ١٤٣٢ و١٤٩٢.

(٢) المصدر السابق ١٤٣٠ و ١٤٣٦.

(٣) المصدر السابق ١٢٨٦.

(٤) المصدر السابق ١٢٤٠.

فاذا كانت هذه الأخبار القبلية ذات فائدة معينة فان المدائني يوردها ضمن روايات أخرى ذات علاقة بالموضوع وذلك لكي يعطي صورة كاملة للخبر موضوع الرواية[1]. وعلى كل حال فانه «باخضاعه جمهرة الروايات العراقية لطرق النقد الصحيح التي تميزت بها مدرسة اهل المدينة، فانه – المدائني – قد ضمن لعمله شهرة فائقة بالثقة والدقة بحيث أصبح المصدر الرئيسي لكل من صنّف بعده. كما وصمدت صحة اخبارة ودقتها لاساليب التحقيق العلمي الحديث»[2].

وقد وصلتنا جمهرة روايات المدائني عن طريق مصدر هام آخر هو كتاب الفتوح لأبي محمد أحمد بن اعثم الكوفي الكندي. وهو مخطوط يقع في جزئين تحتفظ بهما مكتبة احمد الثالث في استانبول.

ويفتتح ابن اعثم كتابه بذكر من أخذ عنهم ثم يمضي إلى القول بانه جمع كل الروايات المتفرقة في نسق واحد، فقد افتتح كتابه بقوله «قال أبو محمد بن اعثم الكوفي حدثني أبو الحسين علي بن محمد القرشي قال حدثني عثمان بن سليم عن مجاهد عن الشعبي وابن محسن عن ابي وائل وعلي بن مجاهد عن ابي اسحاق، قال وحدثني نعيم بن مزاحم قال حدثني ابو عبد الله محمد ابن عمر الواقدي الاسلمي»[3].

ثم يستطرد ابن اعثم على هذا المنوال في تعداد اشياخه وهم الزهري وأبو مخنف وصالح بن ابراهيم وزيد بن عبد الرحمن الواقفي وعلي بن حنظلة الشامي.

ولا شك في أن الاسم الأول هو أبو الحسن محمد بن علي المدائني القرشي الذي كان مولى قريش، اما ورود كلمة الحسين فهو خطأ في النسخ ومما يؤيد

---

(١) المصدر السابق ١٢٠٤ – ١٢٠٥.

(٢) هـ. ر. جيب: تحت مادة «تاريخ» في ملحق دائرة المعارف الاسلامية ليدن ١٩٣٩.

(٣) ابن أعثم: كتاب الفتوح (مخطوط). استانبول مكتبة احمد الثالث رقم ٢٩٥٦ ج ١ ورقة ١ آ.

هذا الاستنتاج أن هذا الاسم يتكرر كثيراً على صفحات الكتاب ، وبشكله الصحيح ، على كونه من الرواة الثقاة البارزين .

وينص ابن اعثم في كتابه صراحة وتكرارا على « وحدثني المدائني فقال » مما يدلنا على ان المؤلف كان معاصراً للمدائني (١٣٥ – ٢٢٥ هـ / ٧٥٢ – ٨٣٩ م) وتؤكد هذه الحقيقة أيضاً فقرة أوردها محمد بن احمد المستوفي الهروي الذي ترجم كتاب الفتوح إلى الفارسية عام ٥٩٦هـ/١١٩٩م اذ نص صراحة على ان ابن أعثم الكوفي انتهى من وضع كتاب الفتوح في عام ٢٠٤ / ٨١٩ [1] ، وهذه الفقرة تقطع بكل جلاء كل شك في تاريخ كتاب ابن أعثم كما تؤكد لقاءه مع المدائني ، ابرز ثقاة عصره بأخبار خراسان ، والنقل عنه ، كما وانها تقطع في ان ابن اعثم اسبق ظهورا من البلاذري (٢٧٩ / ٨٩٢) والذي كان يعتبر أول من حاول أن يجمع شتات أخبار السيرة والفتوح والمصادر الاخرى ويضعها في سياق تاريخي مترابط محكم [2] وعلى هذا فلا يكون البلاذري رائد اسلوب جديد في رواية التاريخ ، بل مجرد مقلد لسابقه ابن أعثم .

أما بالنسبة إلى قيمة المعلومات التي يرويها ابن اعثم (ويهمنا منها هنا ما يخص خراسان فقط) فيمكن القول بقوة واطمئنان إلى انه اول مصدر معروف في هذا الموضوع .

ومقارنة أخبار ابن أعثم بما ينقله الطبري عن المدائني تبرهن لنا ثانية على ان الاثنين يستقيان من مصدر واحد ، ومع ان الطبري يرسم لنا صورة كاملة لتاريخ خراسان في الفترة الأولى فان ابن اعثم في كتابه الفتوح لا يكتفي بتزويدنا بما يمكننا من تحقيق الروايات التي ينقلها الطبري فحسب ، بل ويروي لنا في كتابه الكثير من التفاصيل الاضافية الدقيقة أيضاً والتي يكون لها في بالغ الاحيان أهمية بالغة لانها تتعلق بالأوضاع المالية في خراسان .

---

(١) ابن أعثم : الفتوح – الترجمة الفارسية بقلم محمد ابن احمد المستوفي الهراوي . بمباي ١٣٠٠ / ١٨٨٢ ص ٣ . وعبد الله مخلص : تاريخ ابن أعثم الكوفي : مجلة المجمع العلمي العربي في دمشق المجلد ٦ القسم ٣ في مارت ١٩٢٦ ص ١٤٢ – ١٤٣ .

(٢) جيب : تاريخ .

وقد حاولت في كتابي هذا أن انتفع من هذه المعلومات ما وسعني ذلك. على ان ما يجب التنبيه اليه انه باستثناء المعلومات الجديدة المستقاة من ابن اعثم، فان بقية المعلومات المتعلقة بتاريخ خراسان في الفترة الاولى لا تتعارض أبداً مع رواية المدائني لها كما ينقلها عنه الطبري.

وعلى كل حال فمما يجب ان لا يغيب عن البال ان ابن أعثم كان يكتب « تاريخ الفتوح » فقط في حين كان الطبري يكتب تاريخا عاما لذلك فلا عجب ان يكون الطبري في اكثر الاحيان اوسع مدى واكثر شمولا وان يبقى هو المصدر الاول لتاريخ خراسان في العهد العربي الأول وان يبقى كتاب ابن أعثم مصدرا مكملا له (١).

وقد أفادنا كتاب فتوح البلدان للبلاذري كما افادنا كتاب فتوح ابن أعثم، ولكن البلاذري جمع إلى المدائني رواة آخرين مثل ابي عبيدة الذي لم يذكره ابن أعثم وبهذا اضاف البلاذري مادة قيمة جديدة في تاريخ هذه الفترة.

هذا وليس في اكتشاف فتوح ابن أعثم ما يقلل بأي وجه من الوجوه من قيمة فتوح البلاذري وأهميته كمصدر من أهم المصادر لتاريخ الفتوح العربية (٢) ولا شك ان البلاذري قد قدم أوفى وأشمل صورة لزحف الجيوش العربية وتقدمها في ممالك بني ساسان.

ويعتبر كتاب « أنساب الاشراف » للبلاذري باعتراف الجميع مصدرا قيما فريدا من نوعه في تاريخ صدر الاسلام. وهو خلافا لكتب التراجم الأخرى، يتضمن ثروة من المعلومات التاريخية، وهو في كثير من الحالات، كما في ثورة

---

(١) لزيادة المعلومات عن هذا المصدر، انظر م. ع. شعبان: « ابن أعثم الكوفي دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الجديدة – ليدن ١٩٥٤. وبالاضافة إلى مخطوطة استانبول توجد نسخة اخرى من المخطوطة تتضمن الجزء الاول فقط في مكتبة جستر بيتي في دبلن. ومع ان هذه النسخة ممزقة في بعض أجزائها الا أنها ذات قيمة ثمينة لانها تتضمن مقدارا كبيرا من الاشعار لا تتضمنه مخطوطة استانبول. وهناك نسخة اخرى للجزء الاول في مكتبة كلية سيلي اوك في برمنجهام وهي في حالة جيدة وان كانت بعض اقسامها الاولى والاخيرة مفقودة. ونرجو ان نحقق وننشر هذه المخطوطة قريبا.

(٢) ف. روزنتال: البلاذري. دائرة المعارف الاسلامية. الطبعة الجديدة – ليدن ١٩٥٤.

المختار في الكوفة مثلا. يسرد جميع التفاصيل ويلم بكل دقائق الموضوع مما لا يتوفر في مصدر آخر غيره [1] .

ويحدثنا اليعقوبي في مستهل القسم الثاني من تاريخه عن مصادر بحثه ولكنه لا يعود إلى ذكرهم ثانية في ثنايا الكلام . وهذا مأخذ على طريقة البحث عند اليعقوبي لأن من الواضح انه اقتبس ونقل عن مصادر جديدة غير معروفة لدينا ذلك لانه قضى أيام شبابه في خراسان فاستفاد من ذلك علما بتاريخ البلاد لم يتوفر لغيره . ومع هذا فان المعلومات القليلة التي جاد بها علينا اليعقوبي لا تتعارض وما تجمع لدينا من معلومات من الطبري والبلاذري وابن أعثم ، بل انه — على العموم — في رواياته يؤكد اخبار هؤلاء الثقاة . وانه لمما يجب ان يذكر بالخير لكل من اليعقوبي وابن أعثم انهما لم يحاولا ، رغم ميولهما الشيعية — ان يرسما لاحداث الفترة الاولى في خراسان صورة متحيزة [2] .

وهناك مصدر آخر كشف عنه حديثا وهو تاريخ الخلفاء من تأليف شخص مجهول في القرن الحادي عشر الميلادي ومع ان محقق الكتاب وناشره المستر . بي كرياز نيغتش يعتقد ان تأليف الكتاب كان في حوالي عام ٤٠٩ — ٤١٠ هـ / ١٠١٥ — ١٠١٧ م ، فان في الكتاب نفسه فقرة تدل على أنه الف بعد عام ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م [3] .

وعلى رغم ما يعيده ويكرره المؤلف المجهول لهذا الكتاب من ادعاء الايجاز والدقة والاصالة وتجنب التكرار والنقل عن الآخرين . فان محتويات الكتاب تثبت

---

(١) البلاذري : انساب الاشراف . ج ٤ تحقيق كيوتن . القدس ١٩٣٦ ص ٢١٥ — ٢٧٣ وهذا المصدر ما زال اغلبه مخطوطا ومحفوظاً في « سليمانية كتب خانه سي في مجلدين رقم ٥٩٧ — ٨ .

(٢) انظر بروكلمان : اليعقوبي : مقالة في دائرة المعارف الاسلامية وانظر هـ . و . جيب الفتوحات العربية في اواسط آسيا . لندن ١٩٢٣ ص ١١ — ١٤ وكذلك تاريخ في دائرة المعارف الاسلامية وانظر ايضاً روزنتال كتابة التاريخ عند العرب ليدن ١٩٥٢ ص ١١٤ — ١١٦ .

(٣) تاريخ الخلفاء: بقلم مجهول تحقيق كرياز نيغتش موسكو ١٩٦٧ ص ٥٢—٥٣ من المقدمة.

عكس ذلك . فهي تتضمن ذكراً لعدد كبير من الروايات والقصص المكررة والمعادة في غالبية المصادر الموثوقة الأخرى، فروايته لثورة المختار تشبه إلى حد كبير رواية البلاذري عنها ، وأخباره عن سقوط قتيبة هي نفس الاخبار التي يرويها الطبري وابن أعثم عن الموضوع [1]، الأمر الذي لا يدع مجالا للشك في أن المؤلف المجهول قد اعتمد نفس المصادر والرواة الذين اعتمدهم أسلافه .

ومن الجهة الثانية فان ميل المؤلف إلى الاختصار قد جره إلى الايجاز المخل ، فكان حديثه عن حملة قتيبة في أواسط آسيا من القلة والايجاز بحيث انعدمت منه الفائدة [2]، كما ان اخباره عن ايام هشام قد حفلت بالأخطاء نتيجة ايجازه المخل [3] . ومن الصعب ان نفهم المقصود بقول المؤلف عن كتابه انه « يحتوي على نص مستقل عن تاريخ بني أمية » ما لم يكن المقصود منه انه يحتوي على اخطائه المتميزة به [4]. واضافة إلى ذلك فلا مبرر للتأكيد في الكتاب على ميل المؤلف ضد الشيعة [5] . كذلك لا يمكن للمرء أن يوافق كريازنيفتش في قوله ان الكتاب يحتوي « على معلومات جديدة قيمة هامة تنقل روايات معينة انحدرت عبر قرون مديدة من حلقات المتآمرين الضيقة ومن رؤوس الفتن الذين أسهموا بدور فعال في الثورة العباسية »[6] وهو قول مبالغ فيه دون ريب، ذلك ان كل الروايات في جميع مصادرنا تدعي انها تروي عن شهود عيان للأحداث ان لم تكن عن المساهمين الفعليين في تلك الاحداث . وما الثورة العباسية بمختلفة عن ذلك في هذا الخصوص فقد روى الطبري والمسعودي أيضاً عن شخصيات اشتركت بأحداث الثورة [7] ولم يضف تاريخ الخلفاء الا شيئاً

---

(١) نفس المصدر ١٠١ – ١٠٤ و ١٦٤

(٢) نفس المصدر ص ١٥١ آ – ١٥٣ ب .

(٣) نفس المصدر ١٩٧ – ٢١٤ .

(٤) نفس المصدر ٥٣ .

(٥) نفس المصدر ٥٢ .

(٦) نفس المصدر ٥٣ .

(٧) الطبري . ج ٣ ص ٤٩ – ٥٠ ، المسعودي . مروج الذهب تحقيق باربيه اي مينارد و ب . دي كورتيل . باريس ١٨٦١ – ١٨٧٧ ج ٥ ص ٤ – ٥ .

قليلا حول التشكيل الثوري، وحتى هنا، فان حب الايجاز قد طغى على المؤلف فقدم الحقائق جامدة عارية عن تفاصيلها الهامة التي تبعث فيها الحركة والحياة كما تفعل المصادر الأخرى [1].

وفي مكتبة المعهد العالي للدراسات الاسلامية في بغداد مخطوط بعنوان « أخبار العباس وولده » بقلم مؤلف مجهول، ويذهب الدكتور الدوري الى ان هذا الكتاب قد وضع في حوالي منتصف القرن التاسع [2] وقد اسعفني الحظ برؤية جزء واحد فقط من اجزاء هذا المخطوط [3].

ويحدثنا الدكتور فاروق عمر بان هذه المخطوطة عبارة عن كشف بالتراجم يتناول كما يوحي بذلك عنوانه – العباس وأولاده وأحفاده [4]. ويرى أيضاً ان الجزء المتعلق بأخبار بني العباسي في كتاب تاريخ الخلفاء هو نقل مختصر من أخبار العباس وذلك بالاكتفاء بسند واحد من مصادر الرواة ثم في تنسيق الأخبار بشكل حكاية متسلسلة [5]. على أن قول الدكتور عمر بان كتاب أخبار العباس « مصدر لا غنى عنه لفهم تشكيل الحركة العباسية في خراسان » [6] قول مبالغ فيه، فهو نفسه لم يثق بكتاب أخبار العباس فاضطر إلى أن يعتمد على الطبري ليستخرج لنا كشفا بأسماء النقباء الهاشميين في مرو. وأكثر ما يمكن قوله عن هذا الكتاب انه مثله مثل تاريخ الخلفاء يحتوي على معلومات اضافية عن تنظيم الثورة العباسية.

ومع الأسف فلا كتب التراجم ولا كتب الادب تزودنا بالمعلومات الكافية

---

(١) ف. عمر الخلافة العباسية. ص ٢٣.

(٢) ع. العزيز الدوري: ضوء جديد على الدعوة العباسية: مجلة الاداب والعلوم بغداد ١٩٦٠ ص ٦٤ – ٨٢.

(٣) طبع ونشر هذا الكتاب مؤخراً

(٤) ف. عمر. الخلافة العباسية ٢١.

(٥) المصدر السابق ص ٢٣.

(٦) المصدر السابق ص ٢٠.

عن هذه الفترة الأولى من تاريخ العرب في خراسان . فان هذه الكتب تعني بتاريخ الامبراطورية الأموية ولا تذكر شيئاً عن خراسان الا في معرض للكلام عن العباسيين .

أما المصادر الفارسية عن هذه الفترة فهي «تاريخي سيستان» و«زين الأخبار» للكرديزي ، وهما تراجم ركيكة للمصادر العربية . على انه يبدو ان الكرديزى كان على اطلاع على مصدر قيم غير معلوم لدينا ، ولكنه كان مربكاً ومرتبكاً بحيث لم يتيسر له الانتفاع الكامل من مصدره هذا وكان من المستحيل علينا بالتالي ان ننتفع منه أيضاً .

أما «تاريخ سيستان» فهو أحسن منه في هذا الصدد وبالنسبة الى هذه الفترة بالذات فترة الفتوح العربية الأولى في هذه المنطقة، وكما هو منتظر منه فانه يوافق المصادر العربية ولا يضيف الى معلوماتنا عن هذه الفترة إلا الشيء القليل .

وأخيراً فان «تاريخ قم» للقمي ذو نفع يسير بالنسبة الى غرب ايران ، ولكن نظراً للتطورات الفريدة في خراسان فان هذه المنطقة تبقى خارج نطاق بحثنا .

---

(١) المصدر السابق ص ٨٩ – ٩٠ .

الفصل الأوّل

الجغرافيا السياسيّة لخراسان والمشرق

أول الصعاب التي تواجه المؤرخ ، هو وجوب تحديد منطقة بحثه تحديداً جغرافياً وسكانياً جامعاً مانعاً . وقد تكون هذه المهمة في بعض الأحيان سهلة لا تحتاج الى جهد كبير ، فالباحث في تاريخ الجزيرة البريطانية مثلاً لا يواجه صعوبة تذكر في هذا المجال اذ يجد أمامه جزيرة منفردة واضحة الحدود محددة المساحة بينة المعالم تنقسم الى مقاطعاتها الثلاث المعروفات وهن انكلترة وويلز واسكوتلنده .

وعلى النقيض من ذلك ، فان هذه المهمة تصبح بالغة الخطورة فائقة الوعورة شديدة التعقيد بالنسبة للباحث في التاريخ الاسلامي ، اذ على مثل هذا المؤرخ ان يكون بالغ الحذر في كل خطوة يخطوها وعند كل منعطف من منعطفات هذا المهمه الواسع الممتد بعيداً في الزمان والمكان والذي يحتويه التاريخ الاسلامي ، فقد ضم الاسلام اليه ، ومنذ أول ظهوره ، أراضي شاسعة متفرقة في الشرق والغرب تسكنها أمم مختلفات جنسياتها متباينات ثقافاتها عريقات حضاراتها وكان من نتيجة هذا الضم والدمج وبعد زهاء قرن من الصراع والنضال ظهور الحضارة الاسلامية بميزاتها البينة المعروفة .

ولم تنفرد بلاد البيزنطيين والساسانيين في الاسهام والتأثير في عالم الاسلام ، وانما كان لخراسان والمشرق دور بارز في تكوين معالم المجتمع الاسلامي في سنيه الأولى ، ولكن هذا الدور قد بخسه حقه المؤرخون الذين لم تستطع غالبيتهم فهم الجغرافيا السياسية لبلاد المشرق .

فقد عوملت خراسان كمنطقة مفتوحة الحدود وتلتحق بها بلاد الصغد بصورة

غامضة، وكانت خراسان أيام الفتوح العربية تعتبر جزء من منطقة النفوذ الساساني ان لم تكن جزء من الامبراطورية الساسانية . وقد نشبت بها بعد قرن من الزمان ثورة سرعان ما عمت بقية العالم العربي ثم عادت تلك البلاد فطواها النسيان مدة من الزمان حتى ظهر فيها فجأة ما يسمى بالعائلات الحاكمة الفارسية مثل آل طاهر وآل سامان . وكان ظهور هذه الأسر الحاكمة أمراً غير قابل للتفسير عند كثير من المؤرخين، في حين كان من الممكن فهم هذه التطورات السياسية بكل يسر وسهولة لو بذل بعض الجهد في فهم الجغرافيا السياسية لبلاد المشرق أيام الفتح العربي لتلك البلاد ، الأمر الذي نوينا أن ننهض به فيما يلي من صفحات هذا الكتاب .

١ ـ خراسان أيام الساسانيين

كان التعريف الجغرافي لبلاد خراسان يتغير بتغيير الظروف السياسية في البلاد أو بالأحرى تبعاً لقوة السلطة الحاكمة في ايران .

ولأن كلمة خراسان تعني «بلاد المشرق» أو «أرض المشرق» فقد كانت تطلق أحياناً لتعني كل البلاد الواقعة شرق ايران وقد تضم أيضاً بلاد ما وراء النهر . وقد تعني أحياناً أخرى مقاطعة خراسان كما نعرفها الآن .

وقد اعترف الجغرافي العربي ياقوت بهذه الحقيقة[١]، ولاحظ ان الجغرافيين العرب قد أخطأوا في تعريف خراسان لأنهم ضموا اليها كل البلاد التي تقع تحت حكم ولاة خراسان العرب[٢]. وعلى كل حال فمن المقرر ان الحدود الشرقية للامبراطورية الساسانية أيام الفتح العربي كانت عند نهر المرغاب أو على وجه التحديد عند القسم الاسفل من هذا النهر في مرو الروذ وحتى شمال مرو[٣]،

---

(١) ياقوت : معجم البلدان . طبعه لا يبزك ١٩٢٤ ج ٢ ص ٤١٠ .

(٢) المصدر السابق ٤٠٩ وابن خرداذبه ، كتاب المسالك والممالك طبعة ليدن ١٨٨٩ ص ١٨ .

(٣) جي . ماركارت . ايران شهر . ص ٧٤ – ٧٥ وايج . ار . جيب الفتوح العربية في آواسط آسيا لندن ١٩٢٣ ص ١٠ .

وعلى هذا فان خراسان الساسانية في ذلك الوقت كانت هي منطقة نيسابور فقط والتي تضم منطقة قوهستان[1] ومدينتي مرو ومرو الروذ غرب نهر مرغاب .

والواقع ان هاتين المدينتين كانتا من الحصون المتقدمة على الحدود الشرقية[2] ولذلك فلم يكن دون دلالة اننا على الرغم مما نجده من معلومات وافية في المصادر العربية عن فتح مقاطعة نيسابور فان هذه المصادر نفسها حين تصف مرو ومرو الروذ تشير الى رستاق واحد في الغالب مع كل من هاتين المدينتين [3] .

وهناك اشارة في أخبار فتح العرب لخراسان الى صاحب منصب كبير يحتمل انه كان الحاكم الساساني العام لخراسان . وقد انفرد ابن خرداذبة بالاشارة الى بادوسبان على انه اصبهبد المملكة لعموم خراسان[4] ، في حين ان المصادر الاخرى تذكر كانارانج على انه حاكم طوس[5] الى جانب مرازبة المناطق المختلفة في خراسان .

ويروي كريستنسن ان لقب كانارانج يعني حاكم المقاطعة[6] ولكن مينورسكي استطاع ان يحدده بانه قائد الحدود الشرقية . والذي كان « يحكم المقاطعات الفارسية النائية الملاصقة لبلاد الهياطلة [7] .

ومن الواضح لدينا الآن ان الكانارانج كان لقب الحاكم الساساني العام في خراسان والذي زالت سلطته ، كما هو المتوقع ، بعد انهيار الحكومة الساسانية المركزية في الغرب .

---

(١) اليعقوبي – كتاب البلدان . طبعة ليدن ١٨٩٢ ص ٢٧٨ والبلاذري فتوح البلدان طبعة ليدن ١٨٦٦ ص ٤٠٣– وابن سعد الطبقات ج ٥ ص ٣٣ .

(٢) ابن حوقل : صورة الارض ج ٢ ص ٤٣٤ وشافانس : وثائق عن الترك الغربيين : بطرسبرج ص ٢٥١ .

(٣) البلاذري . فتوح ص ٤٠٦ . الطبري . تاريخ الرسل والملوك ج ١ ص ٢٨٩٧ – ٨ .

(٤) ابن خرداذبه ص ١٨ .

(٥) البلاذري : فتوح ص ٤٠٥ ، والطبري ج ١ ص ٢٨٨٦ .

(٦) كريستنس : ايران تحت حكم الساسانيين . كوبنهاجن ١٩٣٦ ص ١٠٢ .

(٧) في مينورسكي : ايرانيكا : منشورات جامعة ايران مجلد ٧٧٥ طهران ١٩٦٤ ص ٢٦٢.

وكما نجد مرازبة في سرخس وابيورد فكذلك نجد مرازبة في مرو ومرو الروذ وهؤلاء المرازبة كانوا يختارون من طبقة النبلاء المحليين وتناط بهم مسؤولية الادارة المدنية لمناطقهم، ولان مرو ومرو الروذ كانتا من مدن الحدود فقد كان مرزباناهما يتمتعان بسلطات عسكرية ويقع عليهما واجب حماية تلك الحدود. وكان للكانارانج أيضاً سلطات عسكرية في الدفاع عن الريف الذي يتعرض دوماً لغارات الهياطلة من بادغيس[1] ولهذا السبب فقد اتخذ طوس محلاً لسكناه باعتبارها تحتل موقعاً وسطاً، ولهذا ايضاً نسبه المؤرخون العرب الى هذه المدينة[2].

وبعد سقوط الحكومة الساسانية المركزية تصرف كل مرزبان امام الجيوش الفاتحة على انه الممثل المستقل لمقاطعته ولم يحاولوا مقاومة الفاتحين الجدد بل كان يسرهم ان يعقدوا معهم معاهدات واتفاقات تضمن لهم استمرار سلطانهم القديم في ظل النظام الجديد.

وكان في خراسان أيام الساسانيين، كما كان في كل انحاء الامبراطورية، الدهاقين الذين يكونون الطبقة الارستقراطية ذات اليد العليا في شؤون البلاد، وكانت وظيفتها الاولى فرض الضرائب وجبايتها[3]. وبالنسبة للنظام الساساني فقد كانوا – شأنهم في ذلك شأن القواد ورجال الدين والموظفين – معفيين من ضريبة الرأس (الجزية) وكان عبء الضرائب عامة يقع على عاتق المزارعين والفلاحين وكان على هؤلاء أيضاً أن يخدموا في الجيش في حين كانت الطبقة البورجوازية في المدن أحسن حالاً إذ كانوا يدفعون الضرائب ولكنهم لا يخدمون في الجيش[4].

ومن الأهمية بمكان، عند محاولة متابعة سير الغزو العربي لخراسان، ان نتذكر ان المرغاب كان نهاية الحدود الشرقية للأمبراطورية الساسانية. ولا بد

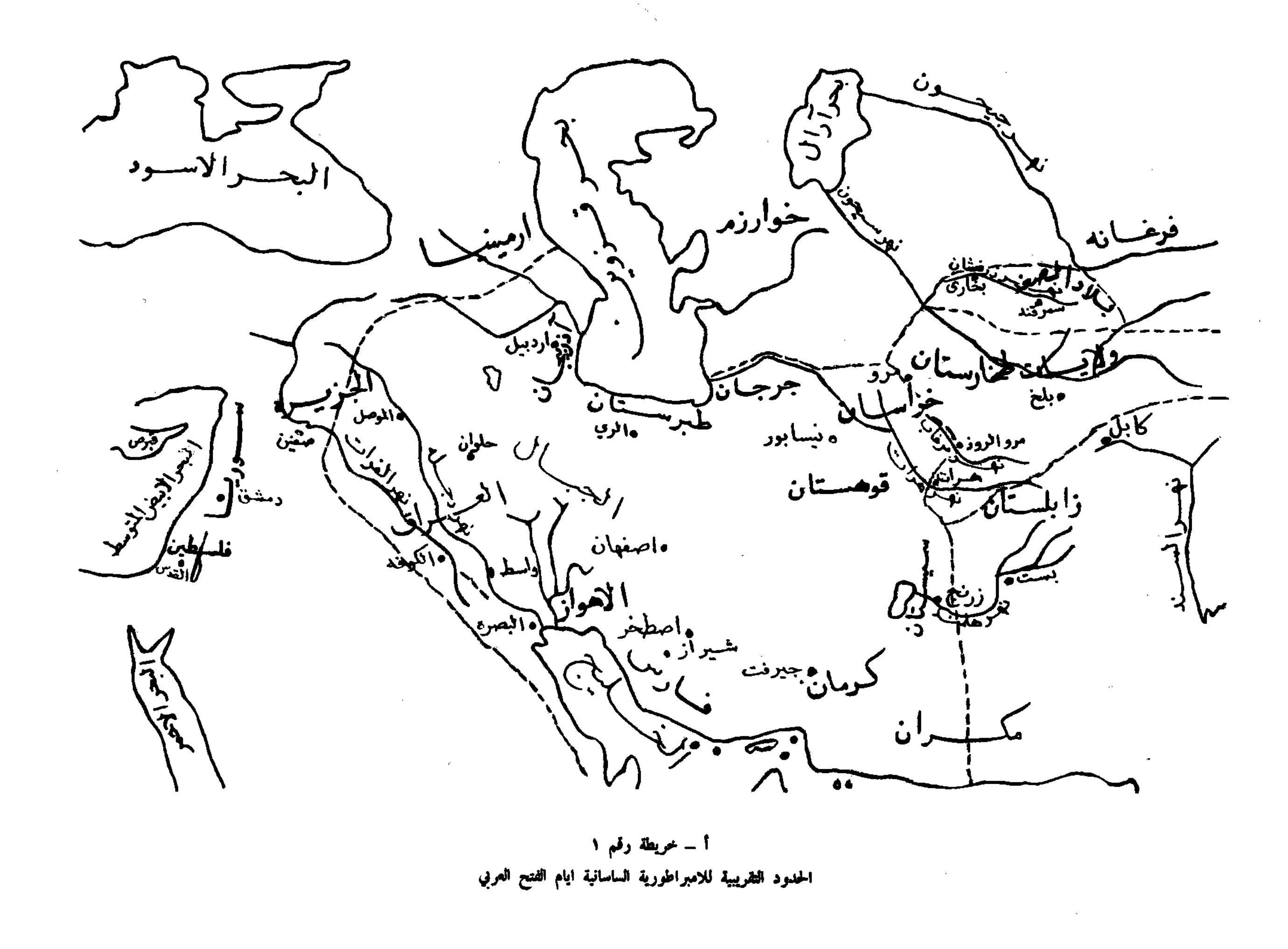
---

(١) ماركارت: ايران شهر ص ٧٤ – ٧٥.

(٢) البلاذري. فتوح ص ٤٠٥ واليعقوبي التاريخ ج ٢ ص ١٢٩.

(٣) كريستنسن: ايران ص ١٠٧.

(٤) كذا ص ٣١٥ – ٣١٦.



أ ـ خريطة رقم ١

الحدود التقريبية للامبراطورية الساسانية ايام الفتح العربي

ان العرب قد ادركوا تماماً بانهم متى ما فتحوا خراسان الساسانية «الصغيرة» وتقدموا منها نحو شرق المرغاب فانهم سيصطدمون بقوى جديدة وبشعوب أخرى. ومع ان غالبية هذه الشعوب من أصل ايراني أيضاً، إلا أن تطورها التاريخي المستقل قد أدى بها الى أوضاع سياسية واجتماعية وثقافية مختلفة عن أوضاع بقية بني جنسهم، ولا بد ان العرب قد أدركوا أيضاً بانهم على وشك ان يفتحوا على أنفسهم جبهات قتال جديدة ومع أعداء جدد دلت مقاومتهم العنيفة للغزاة على ان لهم جيوشاً أقوى وأحسن تنظيماً من فلول جيش الامبراطورية الساسانية، وان اختيار مرو لتكون القاعدة العسكرية ثم لتكون بعدئذ عاصمة الحكم العربي ليدل خير دلالة على ادراك العرب لهذه الحقيقة.

وقد انصرفت نية العرب بادىء الأمر، وبوصفهم الوارثين للامبراطورية الساسانية، على ان يحذوا حذوها فيجعلوا المرغاب أقصى حدهم الشرقي على ان يقوموا بين الحين والآخر بغارات متقطعة على الأقسام الشرقية بغية إبقاء الجيوش في حالة الحركة والأهبة، ولكن النتيجة كانت، بالنسبة للعرب، كما كانت بالنسبة لغيرهم من الفاتحين القادمين من الغرب، هي اضطرارهم الى الزحف لا الى نهر سيحون فحسب وانما والوصول أيضاً حتى نهر جيحون حيث اخضعوا للسلطان العربي جميع الأراضي التي ازدهرت فيها قبلاً حضارات امبراطوريات متعددة من بكتيرية اغريقية أو كوشانية أو هيطلية وعلى عكس غيرهم ممن سبقهم من الغزاة فقد استطاع العرب ان يضموا هذه الأراضي الى امبراطوريتهم. وان يجعلوا منها مراكز اشعاع للحضارة الاسلامية.

٢ ــ الهياطلة

ما زال الغموض يكتنف تاريخ هذه البقاع رغم النور الذي ألقته المصادر الصينية على هذا الموضوع، ورغم الدراسات المتعددة في هذا الموضوع. فمنذ أقدم العصور كانت هناك موجات متعاقبة لهجرة قبائل من أصل إيراني من أواسط آسيا نحو الغرب لتستقر بما يمكن ا نيدعى بحق «ايران الخارجية»[1].

---

(١) آز. كروسيه: حضارة الشرق: الشرق الادنى والاوسط لندن ١٩٣١ ص ١٣٣.

ولكن هذه القبائل الرحالة سرعان ما تقبلت حياة الاستقرار ، وان لم يهضم بعضها فكرة الاستقرار تماماً وظل في حال شبه ترحال . وما يهمنا هنا هو الموجة الأخيرة من هؤلاء الرحل ، المعروفون بالمصادر العربية بالهياطلة .

ومن المتفق عليه ان هذه الجماعة قد اشتقت اسمها من اسم احد مؤسسيها الأوائل أو ربما من اسم إحدى أسرها الحاكمة ، ومن المحتمل انهم ظهروا أول مرة في القرن الرابع في صفوف جيش الكوشان لمساعدته تجاه الساسانيين، ولكنهم ما لبثوا أن أصبحوا أنفسهم خلفاء الامبراطورية الكوشانية في الشرق . ومن الصعب تعيين أصل الهياطلة ، وعلى الرغم من النظريات القائمة على أساس الاشتقاق اللفظي من هذه الكلمة أو تلك ، فالحقيقة انه لا مصدر لنا عن تاريخ شرق ايران في هذه الفترة . واذا كان أكثر الباحثين يميل الى اعتبار الهياطلة من أصل ايراني فان هناك قلة من الباحثين ترى انهم من أصل تركي[1] ولهذا فان ار. ان. فرى انتهى الى القول : —

« قد يجد المرء عناصر تركية أو مغولية في أصل الهياطلة لكن الشواهد لا تلبث أن تشير بالدرجة الأولى الى اصول ايرانية . فمن المحتمل ان يكون بعض حكامهم الأوائل من الهونيين (المغول) ، ولكن ما يزال هناك ايرانيون كثيرون في أواسط آسيا ، ولان شعوب شرق ايران الذين سكن معهم الهياطلة كانوا ايرانيين . فلذلك يمكننا ان نعتبر الامبراطورية الهيطلية في شرق ايران وشمال غرب الهند امبراطورية ايرانية بالدرجة الأولى »[2] .

ومع ان المرء قد لا يسلم بكل ما توصل اليه ، غرشمان حول تاريخ الهياطلة،

---

(١) للاطلاع على تفاصيل اكثر عن تاريخ الهياطلة انظر : دبليو . ايم ماك كوفرن — « الامبراطوريات الاولى في أواسط آسيا » جابيل هل ١٩١٩ ص ٤٧١ — ٤٨٣ وكذلك غريشمان الهياطلة الصينيون . القاهرة ١٩٤٨ وف . التيم — ر . ستاهل الهياطلة في ايران، وكي . انيوكي : « جنسية الهياطلة مذكرة دائرة الابحاث في توبو بونكو طوكيو ١٩٥٩ وكذلك جي . وايدنكرين الهياطلة والشعوب التركية : اورينتاليا سوانا ١٩٥٢ واي بيفار . الهياطلة . دائرة المعارف الاسلامية . الطبعة الجديدة ليدن ١٩٥٤ .

(٢) ار . ان فراي : تراث الفرس . لندن ١٩٦٢ ص ٢٢٧ .

فلا شك في انه قدم تعليلاً معقولاً لهذا الموضوع المعقد الغامض ، فهو يشير بصورة مقنعة الى عامل واحد يميز الامبراطورية الهيطلية عن الامبراطوريات الباكترية والكاشانية ، والتي كان لها أكبر الأثر على تاريخ وتطور هذه المنطقة .

فعلى العكس من الامبراطوريتين السابقتين الذين كان عليهما – في امتداد رقعتيهما نحو الجنوب – ان يتوقفا بعض الوقت الى الشمال من جبال الهندوكوش، فان الهياطلة احتلوا المنطقة الى الشمال والجنوب من هذه الجبال في نفس الوقت تقريباً . ويبدو ان قبائل الهياطلة قد انقسمت الى قسمين رئيسيين هما القبائل الشمالية التي احتفظت بأسم الهياطلة والقبائل الجنوبية التي اتخذت لها اسم « الزابول » وبها سميت المنطقة زابولستان وقد امتد هؤلاء الهياطلة الجنوبيون الزابوليون باتجاه الجنوب الشرقي الى الهند في حين اضطرت القبائل الهيطلية الشمالية الى الامتداد نحو الغرب فاصطدمت مع الساسانيين في معارك متعاقبة ابتداء من عام ٤٨٤ الميلادي تكبد فيها الساسانيون خسائر جمة ليس أقلها مقتل ملكهم فيروز في إحدى هذه الوقعات .

وبعد حروب دامت نصف قرن من الزمان ، كان النصر فيها دوماً من نصيب الهياطلة ، اصبحوا هم سادة بلاد فارس فعلاً حيث اخذوا منها اتاوات سنوية جسيمة . وكانت الامبراطورية الهيطلية في النصف الأول من القرن السادس الميلادي تمتد من بلاد السغد الى حوض نهر سيحون فالأراضي التي الى الشمال والجنوب من جبال الهندوكوش .

وهناك أدلة كافية على ان التجارة التي ازدهرت تحت ظل الكوشانيين استمر ازدهارها في ظل الهياطلة أيضاً وكانت مصدراً مهماً من مصادر الدخل لهم . كما استمر أهل بلاد السغد يلعبون دورهم الهام في هذه التجارة .

ومع أن أثر الساسانيين في حياة الهياطلة وثقافتهم لا يمكن إغفاله إلا أن البوذية كانت هي الديانة السائدة في كل الامبراطورية . ومع هذا، وبسبب التساهل الديني ، فقد ظهرت بينهم ديانات أخرى مثل الزرادشتية والمانوية وحتى المسيحية . وفي ايام يوان شوانج الداعية الصيني ، كانت البوذية قوية

جداً جنوب الباب الحديدي في حين كادت الزرادشتية ان تحل محلها في بلاد السغد في الأقسام الشمالية.

وفي النهاية كان على الساسانيين لكي يتخلصوا من نير الهياطلة ان يضمنوا صداقة قوة جديدة ناشئة وراء النهر[1]. وهم الاتراك الغربيون او الترغش، وقد استطاع هذان الحليفان أن يدحرا الهياطلة بين عامي ٥٦٣ و ٥٦٨ م. مما أدى الى تقسيم امبراطوريتهم بين المنتصرين الاثنين، وبهذا ولفترة قليلة جداً أصبح نهر سيحون هو الحد الفاصل بين الايرانيين والاتراك. إلا أن الساسانيين لم يستطيعوا ان يحتفظوا بالأرض التي كسبوها مؤخراً لأمد طويل، وبسبب ضعفهم المتزايد وتزايد قوة الأتراك فقد تمكن الاتراك من مد نفوذهم الى الجنوب بحيث ضموا اليهم كل أراضي الهياطلة شمال الهندوكش[2] ومن الواضح ان هياطلة الجنوب استطاعوا ان يجنبوا أنفسهم مصير إخوانهم في الشمال، ليلقوا بعدئذ نهايتهم القاضية على يد المسلمين. ولكن بعد مقاومة صامدة دامت أكثر من مائتي عام.

٣ ـ امارات طخارستان

لم يعن اندحار الهياطلة شمال جبال الهندوكوش اختفاءهم من مسرح الاحداث نهائياً، بل انهم ظلوا يعيشون جنباً الى جنب مع السكان الذين استقروا هناك من قبل. ومن المحتمل انهم اندمجوا فيهم.

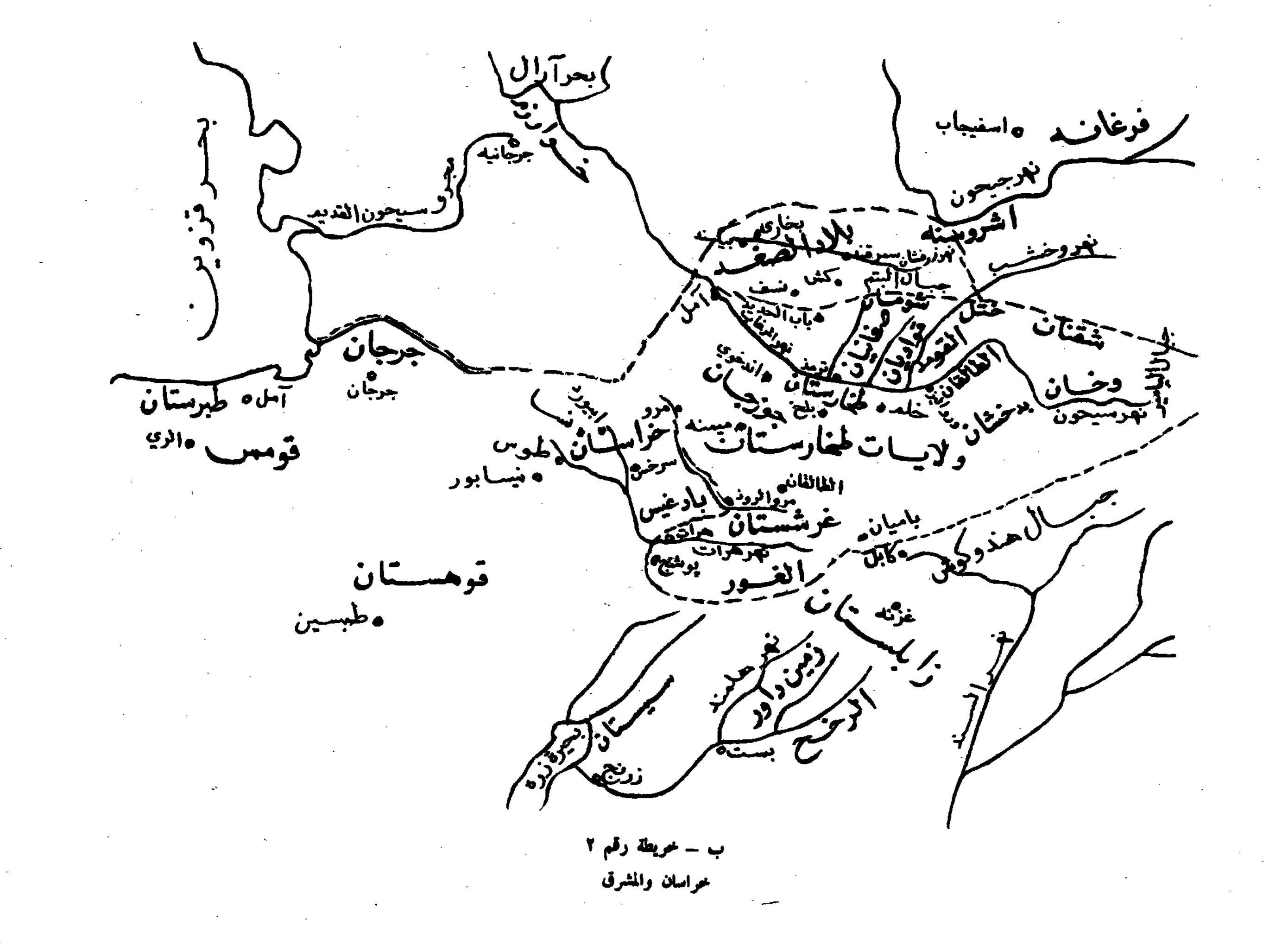
وفي بعض الأماكن، حيث لم يذوبوا تماماً في المجتمع وحيث ظل عنصر البداوة هو الغالب، فانهم تمكنوا من تأسيس إمارات خاصة بهم يحتمل انها كانت بتأييد من الترك واستمروا يسببون للساسانيين المتاعب على حدودهم الشمالية الشرقية[3].

---

(١) نستعمل خلال هذا الكتاب كلمة النهر لتعني بها نهر سيحون وقد اطلق عليه العرب اسم «نهر بلخ» أيضاً، وكانوا يعنون ببلاد ما وراء النهر البلاد التي تقع شرقي هذا النهر (**المترجم**).

(٢) ار. غريشمان الهياطلة الصينيون ص ٦٧ – ١٣٣.

(٣) جيب: فتوح العرب ص ٣، وغريشمان المصدر السابق ص ٩٦.



ب – خريطة رقم ٢
خراسان والمشرق

وفي سنة ٦٣٠ م، حين كان يوان شوانج في طريقه الى الهند، وجد ان بلاد الهياطلة جنوب الباب الحديدي منقسمة الى سبع وعشرين إمارة ، لكل منها أمير مستقل بذاته[١]، وقد كانت هذه الامارات جميعها تحت السيادة التركية، ولكن بسبب عدم وجود حكومة مركزية قوية ولكثرة المنازعات الداخلية بين الترك أنفسهم ، فقد استطاعت هذه الامارات ان تتمتع بما يشبه الاستقلال الذاتي[٢] وكان أكبر أبناء جبغويه ، امير الاتراك الغربيين قد عين حاكماً عاماً بلقب « شاد » وكانت إقامته قرب « وروواليز »[٣] ، ومن المحتمل ان إمارة هيو (قنذز) ومدينة بلخ كانتا تحت سيطرته[٤] .

ومنذ عام ٦٣٠ م حيث بدأت الحكومة الصينية بالتآمر ضد الاتراك الغربيين وحتى عام ٦٥٨ ق. م. حيث تم للصينيين تدميرهم ، مرت البلاد في حال من الفوضى والشتات ، فقد استطاع أحد أبناء الشاد أن يؤسس له أسرة حاكمة هي جبغوية الطخارستان، وقد سادت على المنطقة المعروفة بأسم طخارستان . وكان رؤساء الامارات الأخرى وخاصة أولئك الذين واتتهم الفرصة فحذوا حذوه فأسسوا إمارات جديدة قد اعترفوا به سيداً عليهم رغم ان سلطته لم تكن إلا سلطة إسمية فقط[٥]. وتخبرنا المصادر الصينية ان حكومة الصين حاولت عام ٦٦١ م ، وبعد ان تم رسمياً الضم بين ختن وايران ، إعادة تنظيم وتقسيم المنطقة الى ١٦ حكومة تحت السيادة الصينية ، لكن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح اذ كان على الصين ان تكرس كل جهودها لمنع خطر تقدم التبت في اواسط آسيا .

واذا كان التدخل السريع في إدارة الاقاليم التابعة يقتصر على تعيين الحكام

---

(١) تي واتيرز : حول اسفار يوان شوانج في الهند ، لندن ١٩٠٤ المجلد الاول ص ١٠٢ .

(٢) شافانيس الوثائق ص ٢٦٣ و ٢٩٩ .

(٣) واترز، م ١ ص ١٠٦ وجيب الفتوح ص ٨ .

(٤) واترز ص ٧٥ – ٧٦ و١٠٨ – ١٠٩ .

(٥) جيب – الفتوح العربية ص ٨ وواترز م ١ ص ٢٧٠ .

العسكريين وجباية الخراج ، فان تدخل الحكومة الصينية لم يكن في الواقع شيئاً مذكوراً، عدا عن كونه مناورات دبلوماسية، ولهذا وذاك فقد استطاعت هذه الامارات ان تنعم بقدر كبير من الاستقلال لا يحده إلا قبولها بالسيادة الاسمية لجبغويه طخارستان [١] .

ومع ان طخارستان تحتل مكاناً ممتازاً بين الامارات الأخرى مع هذا فيصعب علينا تحديد حدودها بالضبط .

ويلفت البروفسور جب نظرنا الى ان المصادر العربية تستعمل اسم طخارستان بشكل فضفاض مما أدى الى نتائج مضللة [٢]. ويرى بارتولد ان الاسم كان يعني شيئين مختلفين جداً . المعنى الأول والضيق وينصرف الى الرقعة الى الشرق من بلخ والى الغرب من بدخشان جنوبي نهر السيحون ، والمعنى الثاني وهو الاوسع ويعني البلاد التي تقع الى الشرق من بلخ على جانبي السيحون [٣] .

لكن المصادر الصينية تقدم تعريفاً اوسع من تعريف بارتولد ، فعند كلامه عن أرض توهولو (طخارا) فان يوان شوانج جعل حدودها تمتد الى توسنك لنك من جهة الشرق والى بلاد فارس من جهة الغرب والى الجبال العظيمة (هندوكش) من جهة الجنوب والى الباب الحديدي من الشمال . ويجري نهر السيحون في وسطها فيخترقها من الشرق الى الغرب [٤] . وقد نحى البلاذرى هذا المنحى في تحديد كلمة طخارستان بما يفيد ان الأراضي الواقعة الى غرب المرغاب مباشرة كانت تعتبر أيام الفتح العربي جزء من طخارستان [٥] .

ورغم الدراسات المتشعبة عن شعب الطخار وبلاد الطخارستان ، فان شيئاً

---

(١) شافانس : وثائق ص ٢٦٣ و ٢٦٤ و ٢٧٤ و ٢٨٧ و ٢٩٩ وجيب فتوح العرب ص ٧ - ٩ .

(٢) جيب : فتوح العرب ص ٨ .

(٣) دبليو بارتولد : طخارستان . دائرة المعارف الاسلامية ليدن ١٩٣١ .

(٤) واترز، م ١ ص ١٠٢ .

(٥) البلاذري الفتوح ص ٤٠٩ .

نهائياً لم يتوصل اليه بعد[1] ، وليس مما يدخل بهذه الدراسة ان نحدد أصل شعب الطخار ، ولكن يظهر لنا ان الايرانيين الذين هاجروا الى هذه البقاع في العصور الأولى وفي أيام الغزو العربي كونوا جزء من السكان المقيمين . وكما لاحظ المستر جيب « فقد طغت في الأخبار الصينية شهرة خبراتهم التجارية »[2] وفي دراستنا هذه فاننا نستعمل كلمة طخارستان لتعني الامارة التي تحمل هذا الاسم وهي رقعة الأرض الممتدة الى الشرق من بلخ والى الغرب من بدخستان والى الجنوب من نهر سيحون تمييزاً لها عن إمارات طخارستان التي تعني الامارات العديدة التي كانت تخضع لحكم جبغويه طخارستان أيام الفتح العربي .

وكانت امارات الهياطلة المتعددة اكثر الامارات الطخارية أهمية مركز وكثرة عدد، لكن الصعوبة هي في محاولة تحديد موقعها وعددها . ومن الواضح من نشاط نيزك فيما بعد بأن بادغيس كانت إحدى امارات الهياطلة أو جزء من امارة ، وكانت بادغيس هذه ترتبط ببعض العلاقات مع هرات وبوشنج مما يجعلها امارة ذات حجم كبير ، وحيث ان نيزك اقتصر في صلحه مع قتيبة بن مسلم على بادغيس فقط[3] ، فان هذا يغرينا على الاستدلال على وجود اكثر من امارة في هذه المنطقة ، منطقة هرات وبوشنج وبادغيس ، ويمكن القول ان هذا الصلح قد جرى بعد مدة طويلة من تقلص حجم الهياطلة الى امارة بادغيس فقط ولكن الاكثر احتمالاً هو وجود عدة إمارات في هذه المنطقة قد خضعت جميعها للعرب وانما تباعاً وفي فترات مختلفة .

ومن ملاحظة كشف عناوين ملوك خراسان والمشرق الذي قدمه لنا ابن خرداذبة[4] نستطيع ان نعلم ان امير نسا (يهودية في جوزجان)[4] كان

---

(١) انظر الملاحظة القيمة بقلم دبليو . ايم ماك كوفرن الامبراطوريات الاولى ص ٢٧٩ – ٢٨٣ عن داهيا وطخاريا .

(٢) جيب ، الفتوح العربية ص ٢ .

(٣) الطبري ج ٢ ص ١١٨٤ – ١١٨٥ .

(٤) ابن خرداذبة ص ٣٩ .

(٥) ماركوارث : ايران شهر ص ٦٧ .

يحمل لقب ابراز ، وان أمير غرشستان يحمل لقب براز بنده ، وان امير هرات وبوشنج وبادغيس كان يسمى برازان[1] ، وقد وجد على بعض النقود التي شخصت على انها نقود هيطلية تعود للنصف الثاني من القرن السابع الميلادي وجدت الأحرف ب ر ز[2] مما يمكننا ان نستنتج ان براز أو ابراز كان لقب الأمراء الهياطلة وان براز بنده كان لقب الأمراء الأقل أهمية التابعين للبراز ، اما برازان فهو جمع براز .

اما إمارة نسا (يهودية) فقدْ كانت إحدى عدة إمارات تكونت حول المدن المختلفة في مقاطعة جوزجان ، والتي كانت السلطة فيها بيد الأمير جوزجان خدا[3] . أقوى الأمراء شأناً . وكانت في مقاطعة هرات وبوشنج وبادغيس عدة امارات يحكمها أمراء عديدون كان كل منهم يحمل لقب براز ، وقد استطاع مؤخراً أحدهم وهو نيزك طرخان ان يميز نفسه من بينهم وأن يقود الهياطلة في مقاومتهم الفتح العربي . وكانت غرشستان امارة صغيرة تحت أمرة أمير ضعيف يخضع الى براز قوي ، من مقاطعة جوزجان على الأكثر .

وعلى هذا ففي هذه المنطقة الممتدة الى الغرب من بلخ والتي تمتد الى الجنوب الغربي وتضم جميع جوزجان والمجرى الأعلى لنهر المرغاب جنوب مدينة مرو الرود الى الغرشستان ومن ثم تمتد غرباً حتى تصل الى منتصف مجرى نهر الهرى رود ، في هذه المنطقة كان هناك العديد من الامارات الهيطلية يحكمها أمراؤها بصورة مستقلة لا يخل بها إلا خضوعهم للسيادة الاسمية لجبغويه طخارستان .

ويبدو لنا من المعلومات الواصلة الينا وخاصة الروايات الصينية منها والتي تكملها المصادر العربية في بعض الأحيان ، ان أكثر الامارات الباقية يمكن ان تصنف كما يلي : —

---

(١) ابن خرداذبه ص ٤٠ .

(٢) كريشمان الهياطلة الصينيون ص ٢٣ .

(٣) ابن خرداذبه ص ٣٩ .

١ ـ شومان والتي تشمل آخرون أيضاً ، وكان أميرها من أصل تركي [١] .

٢ ـ القومد (كاراتيجن) في وادي سرخاب الى الشمال الشرقي من طرخستان وكان أميرها تركياً أيضاً .

٣ ـ الختل : وكان أميرها يدعى السبل في المصادر العربية [٢] .

٤ ـ طخارستان : وتشمل مدن بغلان، خلم، سمنجان، وعاصمتها ورواليز .

٥ ـ بدخشان .

٦ ـ كواذيان .

٧ ـ وخان .

٨ ـ طالقان .

٩ ـ الصغانيان .

وجميع هذه الامارات الخمس الأخيرة وان تكن ذوات أُمراء مختلفين ، إلا أنه يبدو ان لهم علاقات وثقى مع طخارستان وقد تحدث يوان شوانج ، وهو في طريق عودته من الهند عام ٦٤٤ عن ملك هيو ، الذي كان تركياً ويحكم على الممالك الصغيرة جنوب الباب الحديدي ، وينتقل من مملكة الى أخرى [٣] . ومن المحتمل أن يكون أُمراء هذه الإمارات قد عقدوا مع جبغويه الطاخارستان نوعاً من المعاهدات العسكرية الدفاعية وهذا ما يدل عليه أيضاً الحفاظ على منصب الشاد حتّى عام ٧١٠ . وقد ذهب البروفسور جيب الى انه ملك الصغانيان (صغان خدا) وليس الجبغويه نفسه [٤] .

---

(١) شافانيس – وثائق ص ٢٧٥ .

(٢) ابن خرداذبة ص ٣٩ والطبري ج ٢ ص ١٢٢٤ .

(٣) واترز، ج ٢ ص ٢٧٠ – ٧ .

(٤) الطبري ج ٢ ص ١٢٢٤ ، وجيب فتوح العرب ص ٩ .

١٠ ـ شغنان : الى الشمال من وخان وقد قسمت الى خمس وديان مستقلة ولكنها جميعاً تحت أمرة أمير واحد . وسكان تلك البلاد رحل ممن اعتادوا غزو التجار على طريق التبت ـ وخان [١] .

١١ ـ الترمذ : وكانت تحت حكم ترمذ شاه [٢] .

١٢ ـ آمل : الى الغرب من السيحون [٣] .

وهاتان الامارتان كانتا مجرد مدينتين محاطتين بأسوار منيعة لتحمي طرق التجارة على معابر السيحون .

١٣ ـ باميان : الى شمال سلسلة هندوكوش. وكان أميرها يدعى شير باميان [٤] ، وكانت هذه الامارة في النهاية الجنوبية من الأراضي التي كانت تحت سيادة جبغويه طخارستان وكانت تسيطر على طريق مهم بين وادي نهري السند والسيحون .

أما مملكة زابلستان (الرخج) فعاصمتها غزنه وفيها يقيم ملكها زنبيل أورتبيل، وقد ذكرت المصادر الصينية على انها تحت سيادة جبغويه[٥] وعلى كل فيمكن اعتبار هذا القول نوعاً من المبالغة التي كثيراً ما نجدها في هذه المصادر وخاصة عندما نتذكر انها ذكرت لعلاقتها بأحداث سنة ٧١٨، في حين لا يمكن ان يكون الأمر كذلك .

وقد دافعت هذه المملكة دوماً عن استقلالها بحماس وبرهنت على قوتها العسكرية حتى حين توغل العرب الى غرب سجستان وركزوا هجماتهم عليها .

---

(١) شافانيس ـ وثائق ص ١٦٣ .

(٢) الطبري ج ٢ ص ١١٤٧ .

(٣) مارتوارث : ايران شهر ص . ٣١ .

(٤) ابن فرداذبة ص ٣٩ .

(٥) ماركوارت : ايران شهر ص ٢٥٠ و٢٨٧ ـ ٢٨٩ في تاريخ سجستان طهران ١٣١٤هـ، ص ٩٢ فقرة ٢. فالسيد بهار يفضل زمبيل وابن خرداذبة ص ٣٩ يسميه رتبيل ملك سجستان والرخاج وبلاد الدوار .

وبالاضافة الى إمارة طخارستان التي سبق ذكرها ، فلا بد ان هناك غيرها مما لا نستطيع ان نتبينها من الأسماء المعطاة في المصادر الصينية [1] ولكنها — على أغلب الاحتمالات — كانت امارات صغيرة أو انها كانت تكون أجزاء من الامارات الأكبر .

ومما يجدر التنويه به انه يبدو ان مدينة بلخ لم تستطيع ان تحتفظ بالمكانة المرموقة التي كانت لها من قبل ، أو الأهمية التي اضفاها عليها المؤرخون والجغرافيون العرب [2] فقد ذكر يوان شوانج ، في اثناء رحلته الى الهند عام ٦٣٠ ، انها كانت قليلة السكان وكانت قسماً من ولاية قندز [3] ويبدو ان ورواليز قد بدأت تأخذ محلها ، كمركز للحكومة . والتفسير الوحيد لذلك هو ان هذه المدينة ، من الناحية العسكرية يسهل الدفاع عنها أكثر من بلخ .

وكانت غالبية السكان في طخارستان من الايرانيين ، جاؤوها بموجات متعاقبة من الهجرات البدوية . واستقروا في مراكز الحضارة البكتيرية الاغريقية القديمة ثم اختلطوا فيما بينهم تدريجياً وعرفوا لنا بأسماء مختلفة منها طخارا وكوشان أو الهياطلة .

وفي ظلال الامبراطورية الكوشانية ، كانت البوذية هي الديانة السائدة فيها واستمرت كذلك الى ان حل محلها الاسلام ، ولان الهياطلة كانوا آخر الموجات التي وصلت هذه البلاد فان طبع الاستقرار لم ينتشر بينهم تماماً وخصوصاً منهم اولئك الذين نزلوا أراضي المراعي في جوزجان وحوالي هرات وبادغيس [4] وهؤلاء هم الذين خلقوا المتاعب الشائكة للعرب أيام الغزو الإسلامي .

ومن البديهي طبعاً ان النظم السياسية في هذه الامارات الصغيرة تختلف عن تلك السائدة في الامبراطورية الساسانية ، فلم يكن هؤلاء الأمراء الصغار أكثر

---

(١) واترز ج ٢ ص – ٢٦٧ – ٢٧٤ .

(٢) اليعقوبي – البلدان ص ٢٨٧ .

(٣) واترز ، م ١ ص ١٠٨ – ١٠٩ .

(٤) جيب ، فتوح العرب ص ١٤ .

من قادة عسكريين استطاعوا أن يفرضوا أنفسهم حكاماً على السكان المحليين بقوة السلاح ، كما فرضوا على أولئك السكان العبء المالي الثقيل لتدبير نفقات قصورهم وجيوشهم ولذلك فلا عجب اذا ما طمح اولئك السكان الى تغيير هذه الأوضاع وانتظروا بفارغ الصبر ساعة الخلاص منها .

٤ ــ بلاد السغد

واذا اتجهنا صوب الشمال من خلال الباب الحديدي فاننا نصل الى وادي نهر زرافشان الخصب الغني . وعلى الرغم من الاختلاف الكبير بين وادي نهر سيحون ووادي نهر زرفشان في كل مجال ، تقريباً ، فاننا نجد في بلاد السغد فرقة وانقساماً سياسياً لا يختلف عن نظيره جنوب الباب الحديدي .

ولا شك ان مثل هذه الظروف السيئة مضافاً اليها هذا الانقسام السياسي كان من مصلحة العرب الفاتحين .

فقد كانت البلاد مقسمة الى عدد من الامارات الصغيرة المستقلة ومع ان لكل امارة أميرها الخاص ، فان جميع الامراء ينتسبون الى ما يعرف بالمصادر الصينية باسم سلالة شاو ــ وو ، وهم جميعاً يكونون ما وصفه جيب بحق بانه « اتحاد سائب يذكرنا بشكل عجيب بالمدن اليونانية القديمة [١] .

وبين عامي ٦٠٥ و ٦١١ ، تزوج ملك سمرقند ، وهي كبرى المدن في بلاد الصغد أو بلاد السغد وكان الملك أيضاً رأس سلالة شاو ــ وو ، تزوج أميرة من العائلة الحاكمة التركية [٢] ومهما تكن الدوافع الى هذا الزواج فانه قد انتهى الى صيرورة ملك سمرقند تابعاً للأتراك الغربيين .

وليس من الواضح تماماً أصل سلالة شاو ــ وو ، ولكن المعروف أن امراءهم ، خلال حكمهم الطويل الممتد قرابة ستة أو سبعة قرون ، قد اعتبروا انفسهم

(١) نفس المصدر ص ٥ .

(٢) شافانيس الوثائق ص ١٣٥ .

مثل رعيتهم الايرانيين . وكذلك ، وعلى العكس من أمراء طخارستان ، فقد كانت سلطتهم محدودة جداً بسبب تعاظم قوة الدهاقين والتجار الاغنياء، ولم تكن الملوكية كما يذهب « جيب » « حكماً ملكياً صحيحاً وانما كانت مجرد القمة في نظام أولغارشي »[1] .

وقد اشتهر أهل السغد بنشاطهم التجاري ، وكانوا يهتمون بتجارة الحرير الصيني وكان مركزها آنذاك سمرقند ، وبيكند وكش . وكانوا يقومون بالوساطة التجارية بين الشرق والغرب . وكانت « سوق الصغد » من أقدم أحياء مدينة مرو [2] .

وكان سكان المدن والأرياف من العنصر الايراني الذين يتوافدون من أملاك الامبراطورية الساسانية ، وقد ميز جيب بعض العائلات التجارية في بيكند على انها من الكوشان [3] .

ولم يكن جميع السكان في سمرقند من الزرادشتيين ولكن من المؤكد عدم وجود بوذيين فيها أيام زيارة يوان ــ شوانج لها [4] ويبدو ان المسيحية والمانوية كانتا تعيشان جنباً الى جنب مع الزرادشتية في بلاد السغد .

وقد كان على العرب ، في سبيل فتح البلدان الواقعة الى شرق الامبراطورية الساسانية ، وتأسيس ملكهم فيها ان يحاربوا مدة قرن من الزمان تقريباً هذه الأجناس من الناس التي كانت ذات أصل ايراني وليست ذات أصل تركي كما تصفها المصادر العربيةخطأ . وفي الواقع فان الأتراك لم يأتوا لنجدة هؤلاء السكان

---

(١) جيب ، الفتح العربي ص ٥ و ٦ .

(٢) ابن خرداذبة ص ١٧٨ ابن الا ثير – اللباب في معرفة الا نساب القاهرة ج ١ ص ٣٧ .

(٣) جيب ، فتوح العرب ص ٥ .

(٤) واترز ، م ١ ص ٩٥ .

ضد العرب الا عند ظهور قوة التركش في عام ٩٨/٧١٦[1]، ولكن مقاومتهم للعرب لم تستمر حينذاك أكثر من عشرين عاماً حيث عادوا فاختفوا في عام ١١٩/٧٣٧.

---

(١) شافانيس وثائق ص ٢٨٤.

الفصل الثاني

فتح العرب لخراسان

١ ـ عبد الله بن عامر

تجمع المصادر العربية على ان فتح خراسان بدأ أيام أمير المؤمنين عثمان ابن عفان ، تحت قيادة والي البصرة الجديد عبد الله بن عامر (٢٩ ـ ٣٣/ ٦٤٩ ـ ٦٥٥) ولم تخرج عن هذا الاجماع الا رواية وحيدة وردت الينا من سيف ، وهي تقول انه بعد انتهاء حرب القادسية (٦٣٧/١٦) أمر أمير المؤمنين الخليفة عمر بن الخطاب جيشه بالتقدم نحو خراسان، وقد عهد بفتح خراسان الى الأحنف بن قيس الذي بدأ حملته عام ٦٣٩/١٨ .

ومع هذا فان الطبري نفسه يقول ان فتوح الأحنف كانت في عام ٦٤٣/٢٢ بعد معركة نهاوند في عام ٦٤٢/٢١[١] ويمكن تفسير هذه الرواية باحدى طريقتين : الأولى أن تكون خلطاً بين هذه الحرب وحروب الأحنف بن قيس كنائب عن عبد الله بن عامر في عام ٦٥٢/٣٢[٢] والثانية ان تكون محاولة لتضخيم دور الاحنف رئيس بني تميم في فتح خراسان ، وكان الاحنف قد لعب فيه دوراً بارزاً ولا شك ، ولكن تحت أمرة عبد الله بن عامر .

ونجد في فتوح البلدان للبلاذرى الوصف المسهب لتقدم الجيوش العربية نحو الشرق في أملاك الامبراطورية الساسانية والذي تؤيده روايات الطبري واليعقوبي الموثوق بها . ومنها نرى ان جيوش الامبراطورية الساسانية قد انتهت فعلاً

(١) الطبري ج ١ ص ٢٥٦٩ ، ٢٦٨٢ ـ ٢٦٨٤ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٩٠٧ .

بانتهاء معركة نهاوند (٢١/٦٤٢) وقد ترك بعدها أمر الدفاع عن المقاطعات الى المرازبة والحكام المحليين[١] . وفي الفترة بين هذه السنة (٢١/٦٤٢) وبين وصول ابن عامر الى البصرة (٣٠/٦٥٠) كانت جيوش البصرة والكوفة ـ بالامدادات التي تصل اليهما من شبه الجزيرة العربية ـ قد أغارت وفتحت القسم الغربي من الامبراطورية الساسانية في ايران . فقد اجتاحت جيوش البصرة بقيادة أبي موسى الاشعري اكثر مقاطعات الاهواز والجبال وفارس ، في حين كان عمر بن الخطاب قد امر عمار بن ياسر والي الكوفة ان يرسل حملة الى الري في مقاطعة الجبال ، وقد تمكن والي الكوفة الجديد المغيرة بن شعبة ان يفتح اذربيجان ، وقد توغلت بعض هذه الحملات حتى وصلت طبرستان وجيلان وعقدت اتفاقات للصلح والسلام مع « اصبهيد » تلك المقاطعات . كما توغلت حملة اخرى نحو « قومس » دون ان تلقي أية مقاومة تذكر[٢] .

وكانت ابعد نقطة وصلتها جيوش البصرة في الشرق في ذلك الوقت هي الطبسين والتي وصفها البلاذري بانها باب خراسان[٣] ، فقد قيل ان بعضاً من جيوش ابي موسى الاشعري والي البصرة قد غزت الطبسين ، لكن هذه الحملات لم تؤد الى الاحتلال التام لتلك المناطق ، لان بعضها لم تزد عن كونها غارات عابرة حين كانت الجيوش الأخرى تتقدم دون أية مقاومة ، وكانت هناك بعض المناطق مثل الري تعرضت الى الاحتلال عدة مرات خلال هذه الفترة ، ولم تكن اصطخر قد فتحت بعد ، في حين ان ابا موسى سبق له ان أخضع مقاطعة فارس بكاملها[٤] .

ولم تنتظم الحملات المنظمة لمد السيطرة العربية شرقاً نحو خراسان إلا بعد وصول عبد الله بن عامر والياً على البصرة ، فقد واجه عثمان متاعب متزايدة

---

(١) البلاذري ـ الفتوح ص ٣٠٢ ـ ٥ ، وكرستنسن ، ايران ص ٥٠٠ .

(٢) البلاذري الفتوح ص ٣٠٩ ـ ٣١٦ والطبري ج ٢٦٥٩

(٣) البلاذري الفتوح ص ٤٠٣ .

(٤) كذا ص ٣١٨ ـ ٣٢٠ .

في العراق بسبب الضغط المستمر الناتج من تدفق القبائل العربية الى الثغرين الجديدين : البصرة والكوفة . وكان حله لهذه المشكلة هو ان يفتح جهات قتال جديدة في هذه البلدان يشغل بها هذه الجماعات وتمتص الفائض من نشاط هذه القبائل، وعلى هذا فقد عين في عام ٦٤٩/٢٩ واليين جديدين للكوفة والبصرة وكلاهما قرشي من نفس قبيلته وهما سعيد بن العاص للكوفة وعبد الله ابن عامر للبصرة ، وكان ابن عامر آنذاك لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره .

ومع ان الواليين كانا من قرابة عثمان فان تعيينهما لم يكن ، كما هو الشائع ، مجرد « محسوبية » من عثمان ، فقد كان مدفوعاً بالدرجة الاولى نحو تثبيت سلطته في هذه المقاطعات التي كانت تنحو باستمرار نحو الاستقلال الذاتي . وقد رأى أنه بوصفه كبير بني أمية فانه ربما استطاع ان يمارس على جيل الشباب من أبناء بيته سلطة أكبر مما يستطيعها مع كبار القادة ذوي الآراء المستقلة وبهذا فانه يستطيع ان ينفذ سياسته في دفع أبناء القبائل الى السير في خط سياسته .

وما ان وصل ابن عامر الى البصرة حتى تحرك حالاً الى مقاطعة فارس وافتتح مدينة اصطخر واستطاع – بعد صعوبات – أن يحقق في عام ٣٠ / ٦٥٠ السلام في جميع المنطقة . ومن فارس ارسل الى كرمان حملة لم يكتب لها النجاح[١] ويبدو انه عاد الى البصرة حيث بدأ بتجهيز جيش جديد سار به نحو خراسان عام ٦٥١/٣١[٢] .

وتروي لنا الأخبار ان حملة اخرى جهزت من الكوفة في نفس الوقت ولنفس الغرض . وانها كانت حملة كبيرة ، بقيادة والي الكوفة سعيد بن العاص . والتفسير الذي تقدمه مصادرنا هو ان كانارانج (نيزك) مرزبان طوس قد كتب

---

(١) اليعقوبي تاريخ ج ٢ ص ١٩٢ والبلاذري فتوح ص ٣٣٤ و ٣٨٩ و ٣٩٠ والطبري ص ٢٨٦٢ .

(٢) ابن سعد ج ٥ ص ٣٢ والبلاذري الفتوح ص ٣٣٤ والطبري ٢٨٨٤ – ٥ .

الى كلا الواليين — والي الكوفة ووالي البصرة ، يدعوهما الى غزو خراسان واعداً لهما بالمساعدة على أمل ان يثيبه العرب الأمرة على بلاده جزاء فعلته هذه .

والتفسير الآخر هو ان عثمان نفسه أمر بالحملتين معاً بقصد إثارة المنافسة بين الواليين[1] .

أما عن التفسير الأول فيبدو ان كانارانج الذي كان الحاكم الفعلي لجميع المقاطعة قد أفزعه استمرار الغزوات المتزايدة من جانب الامارات الهيطلية في هرات وباذغيس الذين استغلوا الانهيار المفاجئ للامبراطورية الساسانية لضم بعض أطرافها الى سيادتهم ، ولهذا فلم ير بداً من طلب النجدة من العرب لمساعدته ضد أعدائه الذين كانوا يشكلون تهديداً دائماً لممتلكاته .

ولا يتعارض التفسير الثاني مع الاول ، فوضع التفسيرين معاً قد يعني ان الواليين العربيين الذين كتب لهما كنارانج ، قد رأيا الفرصة سانحة وان خراسان ناضجة للسقوط بيد العرب . ولهذا فقد سأل كلاهما الاذن من الخليفة عثمان لغزو تلك البلاد وانه اذن لهما بالتقدم بطريقين مختلفين ، وعلى هذا فقد سار سعيد بن العاص بجيوشه من الكوفة سالكاً الطريق الشمالي نحو قومس في حين سار عبد الله بن عامر بجيوش البصرة في الطريق الجنوبي نحو كرمان .

وفي هذه الأثناء كان الملك السيء الحظ يزدجرد الثالث يطوح به التجوال من مدينة الى أخرى يبحث عن مدد أو نصير له ضد العرب حتى وصل مدينة مرو في عام ٣١/٦٥١ فتلقاه مرزبانها ماهويه معظماً له ومبجلاً . ولكن ماهويه سرعان ما ضاق ذرعاً بطلبات يزدجرد المالية وازداد خوفاً على استقلاله ، فاضطر ان يكتب الى نيزك طرخان أمير باذغيس الهيطلي وان يتفق معه ضد ملكه يزدجرد ، وقد أسرع نيزك بالزحف الى مرو حيث استطاع وماهويه ان يدحرا يزدجرد وحاشيته القليلة ، ويضطروهم للفرار طلباً للنجاة ، ولكن النجاة لم

---

(١) الطبري ص ٢٨٣٦ والبلاذري الفتوح ٣٣٤ اليعقوبي تاريخ ٢٠ ص ١٩٢ .

تكتب ليزدجر اذ غُدر به في ضواحي مرو فمات ذليلاً مدحوراً[1] . وتبرهن لنا هذه القصة وبأجلى وضوح الارتباك الكبير الذي كان يسود خراسان عشية وصول العرب اليها .

وفي سياق هذه الاحداث ، فاننا نجد ان ماهويه كان يسمى أحياناً براز أو ابراز أو أبي براز [2] ورغم ان ابن خرداذبه يعتبر ماهويه لقباً لأمير مرو ، فانه على أكثر الاحتمالات اسمه الشخصي لا غير ، وهذا ما يعزز اعتقادنا بان براز كان يستعمل لقباً له بالاضافة الى اسمه[3] . وحيث ان براز هو لقب الامراء الهياطلة فقد يوحي هذا بأن الهياطلة في محاولة منهم لاستغلال الأوضاع في تلك الفترة ، وقد شجعهم على ذلك اتفاقهم القصير الأمد مع مرزبان مرو ، فانهم قد اغدقوا عليه اللقب الذي يحمله أمراؤهم في محاولة للسيطرة على مفترق الطرق الهام في مرو .

ومهما يكن الحال ، فاننا لا نجد اثراً لهم في مرو عند دخول العرب اليها في نفس السنة ، ويخبرنا الثعالبي بأن نيزك قد اختلف مع ماهويه وقتله في نفس الشهر الذي قتل فيه يزدجرد ، ومن ثم فان نيزك ترك المدينة لتسقط بيد العرب[4] . لكننا نعلم ان ماهويه كان ما يزال حياً حتى عام **٦٥٦/٣٦** على اقل تقدير[5] وعلى كل حال فان هذا لا يغير من الواقع شيئاً وهو ان نيزاك ترك مرو بعد مقتل يزدجرد بقليل ، وربما على أمل ان يلتقي بالعرب في منتصف الطريق في قوهستان .

---

(١) الطبري ص ٦٣ – ٢٨ – ٨٨ ، والمثالبي غرر اخبار ملوك الفرس وسيرهم ، باريس ١٩٠٠ ص ٧٨٢ – ٤ وكريستنسن ، ايران ص ٥٠٠ والبلا ذري فتوح ص ٣١٥ .

(٢) الطبري ص ٢٨٧٦ – ٢٨٨٨ .

(٣) ابن خرداذبة ص ٣٩ .

(٤) الثعالبي ص ٧٤٨ .

(٥) الطبري ٣٢٤٩ .

٢ ــ عهود الأمان

تقدم عبد الله بن عامر عن طريق كرمان حتّى بلغ الطبسين ، حيث عقد مع أهلها صلحاً على حد قول بعض المصادر ، أو أنه ، على حد قول مصادر أخرى ، اقر الصلح الذي عقده من قبل أحد قواد أبي موسى الأشعري [١] .

ومن الطبسين تقدم ابن عامر نحو نيسابور متبعاً مقدمة جيشه التي كانت قد التقت بأمير هرات الهيطلي الذي أفزعه ظهور العرب فجأة الى جوار ممتلكاته فهب للتصدي لهم ، وقد استطاع الاحنف بن قيس ان يهزمه ويتابع تقدمه نحو نيسابور حيث التحق به ابن عامر [٢] . وهناك التقى ببعض المقاومة التي اضطرته الى ان يضرب الحصار حول المدينة بضعة أشهر كان خلالها يسيّر الغزوات ، وتحت قيادته الشخصية في أغلب الأحيان ، لغزو المناطق المتاخمة لنيسابور . ولكن اقتراب فصل الشتاء اضطره ان يوسع هجماته على المدينة ويزيد منها ، وبعد ان افتتح العرب بعض أقسام منها ، اضطر مرزبان المدينة الى طلب الامان من ابي عامر علي ان يصالحه « من جميع نيسابور على وظيفة يؤديها فصالحه على ألف ألف درهم ويقال سبعمائة الف درهم » [٣] .

وما ان سقطت نيسابور بيد العرب حتّى رأت مدن خراسان نهاياتها ماثلة أمام أعينها ، وخوفاً من ان تكون كل منها الهدف الثاني للزحف العربي فقد سارعت كل مدينة بإرسال وفد عنها لمفاوضة العرب على الصلح مقابل «وظيفة» يدفعونها للعرب . وعلى هذا الأساس فقد وافق دهقان نسا ان يدفع ٣٠٠ الف درهم أو على حد قول رواية أخرى « على احتمال الأرض من الخراج » وقدم « عظيم » ابيورد على ابن عامر فصالحه على ٤٠٠ الف درهم . وحاصر عبد الله بن خازم مدينة سرخس مدة وقاتل أهلها فطلب زاذويه مرزبانها الصلح

---

(١) اليعقوبي تاريخ ج ص ١٩٢ ، والبلاذري فتوح ٤٠٣ وابن الفقيه ـ كتاب البلدان ، ليدن ١٨٨٥ ص ٣١٨ .

(٢) الطبري ص ٢٨٨٥ والبلاذري فتوح ٤٠٣ .

(٣) البلاذري فتوح ٤٠٣ ــ ٤٠٤ ومعجم البلدان ج ٤ ص ٤٨٧ .

على أمان مائة رجل ، فسمى له المائة ولم يسم نفسه فقتله ابن خازم ودخل سرخس عنوة . واتى كانارانج مرزبان طوس فصالح ابن عامر عن طوس على ستماية ألف درهم . وشخص عظيم هرات الى ابن عامر وصالحه عن هرات وبوشنج وباذغيس على ألف ألف درهم . وارسل ماهويه مرزبان مرو ، الى ابن عامر يسأله الصلح فصالحه على ضريبة كبيرة نسبياً وهي بين ألف ألف أو ألفي ألف (مليون أو مليونين درهم) و ٢٠٠ ألف جريب من القمح والشعير [١] ، ويبدو أن المدائني يتفق على العموم مع البلاذرى ما عدا الرواية التي تقول ان كانارانج ظل يحكم القسم الشرقي من المقاطعة حتى بعد سقوط نيسابور وان ابن عامر اضطر الى عقد الصلح معه لكي يزحف على مرو[٢] .

ومن بين معاهدات الصلح هذه التي عقدت مع مختلف الدهاقين ، فان معاهدتي هرات ومرو تستحقان التوقف والالتفات .

فقد نصت معاهدة هرات — ومعها بوشنج وباذغيس — على ان مبلغ الجزية يجب « أن يقسم ذلك على الأرضين عدلاً بينهم » كما ان لفظة جزية قد استعملت للدلالة على الوظيفة[٣]. اما معاهدة مرو فقد تركت للدهقان ان يقرر الطريقة التي تقسم بها الجزية «وان عليهم قسمة المال» وان المسلمين — اي العرب — لا دخل لهم بقسمة الجزية وانما « ليس على المسلمين إلا قبض ذلك » اي قبض المال .

وفي كلتا المعاهدتين كان الدهقان هو المسؤول عن الوظيفة أمام العرب . ومن النصوص المهمة في معاهدة مرو هي ان على سكان المدينة « ان يوسعوا للمسلمين في منازلهم » أي أن يستضيفوهم في دورهم[٤] وهذه المعاهدات كانت هي أساس العلاقات بين العرب الفاتحين وبين رعاياهم سكان البلاد

---

(١) البلاذري فتوح ٤٠٤ — ٤٠٥ .

(٢) الطبري ص ٢٨٨٦ .

(٣) البلاذري — الفتوح ص ٤٠٥ .

(٤) نفس المصدر ص ٤٠٥ واليعقوبي ج ٢ ص ١٩٣ .

المفتوحة ، وانها — كما سنرى بعدئذ — قد لعبت دوراً أساسياً في التطورات السياسية والاجتماعية في خراسان .

وعلى الاجمال فقد تمكن ابن عامر وجيوشه البصرية خلال شهور معدودات من اخضاع غالبية خراسان الساسانية الى حكم العرب . اما عن جيوش الكوفة بقيادة واليها سعيد بن العاص فقد زحفت الى خراسان سالكة الطريق الشمالي ولكنها ما ان وصلت الى قومس حتّى سمعت بانتصارات ابن عامر فرأت الا فائدة من استمرارها بالزحف فعادت الى مقرها بالكوفة [١] .

وفي عام ٦٥٢/٣٢ ارسل ابن عامر حملة على آخر معاقل الساسانيين في خراسان وهي مرو الروذ ، وكان على رأس هذه الحملة أحسن قواده الاحنف ابن قيس الذي أخضع وهو في طريقه الى مرو الروذ رستاقاً واحداً فقط ذكرته المصادر وهو الذي عرف فيما بعد بأسم رستاق أو قصر الاحنف . وقد عقدت مع الرستاق معاهدة صلح وفرضت عليه فريضة قدرها ٣٠٠ ألف درهم .

ثم تقدم الاحنف الى هدفه الرئيسي وهو مدينة مرو الروذ فحصر اهلها فقاتلوه قتالاً شديداً فهزمهم المسلمون فأضطر باذام الى طلب الصلح . ويبدو ان العرب واجهوا مقاومة عنيفة وقتالاً مرأ حول هذه المدينة لانهم رضوا منها بجزية قليلة نسبياً وهي عبارة عن ٦٠ الف درهم فقط قدمها المرزبان في حين انهم منحوا امتيازات كثيرة اذ سمحوا له بالاحتفاظ لنفسه بكل الأراضي التي كان الملوك الساسانيون قد منحوها الى اسلافه وأعفوه هو وأهل بيته من كل ضريبة أو خراج ووعدوه الا تخرج المرزبة من اهل بيته . وفي مقابل ذلك رضي العرب على ان على المرزبان ومن معه من الاساورة نصرة العرب وقتال عدوهم ان احب المسلمون ذلك كما تعهد العرب ان ينصروا المرزبان ضد اعدائه وأعداء شعبه [٢] .

---

(١) البلاذري – فتوح ص ٣٣٤ والطبري ص ٢٨٣٦ – ٢٨٣٧ .

(٢) البلاذري فتوح ص ٤٠٦ والطبري ج ١ ص ٢٨٩٨ – ٢٨٩٠

وقد نقل البلاذرى عن ابي عبيدة ان الاتراك قد ساعدوا اهل مرو الروذ ضد العرب ، والمقصود بهؤلاء الاتراك طبعاً هم الهياطلة ، وعلى أكثر الاحتمالات فانهم من أهل جوزجان ولعل هذا ان يفسر السر في اختيار العرب للفارياب والطالقان وجوزجان أهدافاً لحملتهم الثانية التي كانت بقيادة الأحنف نفسه، وكان تحت لوائه أربعة آلاف مقاتل عربي يساعدهم الف مقاتل من المسلمين غير العرب ، وقد تعمد المدائني أن يذكر ان الاحنف ابى ان يطلب مساعدة المشركين في مرو الروذ لانه – على أكثر الاحتمالات – لم يكن يثق بهم .

وقد عسكر الجيش العربي في قصر الاحنف على مسيرة يوم واحد من شمال مدينة مرو الروذ على الجانب الشرقي من نهر المرغاب، فتقدمت لحربهم جموع أهل الجوزجان والطالقان والفارياب ومن حولهم فكانوا زهاء ثلاثين الفاً ، وجاءهم أهل الصغانيان بجموع أخرى فلم يبق للعرب أمام هذه الكثرة في العدد حظ في الانتصار فاضطروا الى الانسحاب الى مرو الروذ .

وأرسل الاحنف الى جوزجان حملة كانت جميعها من بني تميم بقيادة الاقرع بن حابس واستطاعت ان تقهر المدافعين عن المدينة وان تدخلها ، وفي هذه الاثناء تقدم الاحنف نفسه من مرو الروذ نحو بلخ وفي طريقه عقد عهود صلح مع الطالقان والفارياب حتى اذا وصل بلخ ضرب حولها الحصار « فصالحه أهلها على أربعماية الف درهم ويقال سبعمائة الف واستعمل الاحنف ابن عمه على بلخ ومضى هو الى خوارزم فأقام فيها حتى هجم الشتاء فأضطر الى الرجوع الى بلخ »[1] .

ويذكر ابو عبيدة رواية تقول ان ابن عامر قد عبر النهر – نهر سيحون – وعقد الصلح مع سكان ضفته الشرقية. وقد تقبل كل من بارثولد وجيب هذه الرواية واعتقدا أن في المصادر الصينية ما يؤيدها ، اذ جاء فيها ان العرب غزوا ميامورغ في بلاد الصغد في عام ٦٥٤/٣٣ . ويصعب قبول هذا الرأي ما دمنا نعلم ان ابن عامر لم يكن في خراسان عام ٦٥٤/٣٣ وليس هناك ما يدل على ان

---

(١) الطبري ص ٢٨٩٧ – ٢٩٠٣ والبلاذري فتوح ٤٠٦ – ٤٠٨ .

ابن عامر قد قاد جيشاً ما شرق المرغاب طيلة الفتوح . واكثر من هذا فتبدو التواريخ في المصادر الصينية مختلطة جداً فهي تذكر في نفس السنة الهجوم على بلاد فارس وموت يزدجر على يد العرب ومن المؤكد ان جيوش العرب لم تحاول عبور نهر سيحون في ذلك الوقت ولم تحاول أن تتقدم الى أبعد من مدينة بلخ (١) .

وفي نفس الوقت وبينما كان الجزء الاغلب من جيوش عبد الله بن عامر البصرية تتقدم نحو خراسان ، كانت هناك مجموعة منها تتقدم في جزء آخر من شرق الامبراطورية الساسانية . فقد فتح ابن عامر وهو في طريقه الى خراسان مقاطعة كرمان وترك عليها مجاشع بن مسعود السلمي ليتم فتحها والسيطرة عليها فيما تابع ابن عامر ومعه أغلب الجيش البصري زحفهم نحو خراسان . وقد استطاع ابن مسعود أن يفتح أغلب أجزاء المقاطعة ولكن أهلها فروا أمام الجيوش العربية تاركين أراضيهم واملاكهم « فتقاسمها العرب فيما بينهم ووزعوا الارض وسكنوا الدور وأدوا فيها الاعشار » (٢) .

وفي نفس الوقت ايضاً أرسل ابن عامر حملة على سجستان يقودها الربيع بن زياد الحارثي ، وبعد ان احتل الربيع بعض القرى في الطريق وصل الى هدفه الرئيسي وضرب الحصار على مدينة زرنج ، فطلب مرزبانها الصلح فصالحه الربيع على « الف وصيف مع كل وصيف جام من الذهب » ودخل المدينة ، حيث استقر وجيوشه فيها قرابة السنتين وبعدها ترك فيها على رأس الجيش ابن عمه والتحق هو بابن عامر . لكن مقام العرب لم يطل كثيراً في هذه المدينة اذ اجلوا عنها (٣) .

وليس بالمستغرب ان لا نجد أية اشارة عن أية مقاومة من زابلستان أو ملكها

---

(١) البلاذري فتوح ٤٠٨ ، دبليو بارتولد : تركستان منذ عهد المغول لندن ١٩٢٨ ص ٦ وجيب – الفتوح العربية ص ١٥ و ٢٨ . والطبري ص ٢٩٠٥ .

(٢) البلاذري – الفتوح ص ٣٩١ – ٩٢ .

(٣) نفس المصدر ص ٣٩٢ – ٣٩٤ .

زنبيل (رتبيل) للعرب القادمين طالما ان زرنج كانت من املاك الساسانيين وطالما ان العرب لم يحاولوا التقدم شرقاً نحو بلاد الداور مكتفين بسجستان الغربية .

ولما أتم الاحنف بن قيس اهداف حملته عاد من بلخ الى نيسابور التي جعلها ابن عامر مقره . ويبدو ان العرب كانوا قد سيطروا على جميع أملاك الساسانيين في الشرق وانهم ، فوق هذا ، قد استبعدوا – ولو مؤقتاً على الاقل – كل خطر على مواقعهم من الامارات الهيطلية .

واذ لم يجد ابن عامر سبباً للبقاء في خراسان فقد غادرها عائداً الى المدينة لينهي الى عثمان أخبار فتوحاته ثم ليعود بعدها الى البصرة ، ليتهيأ لحملات السنة التالية . وكانت خطة العرب ان يرسلوا كل سنة حملة من البصرة لغزو البلاد التي لم تعقد معهم صلحاً والاستمرار بفتح ما يمكن فتحه من الأراضي الى الشرق على ان تعود الحملة في الخريف الى البصرة تاركة في خراسان حامية تقدر بأربعة آلاف شخص لتحمي البلاد المفتوحة حتى حين عودتهم [١] وكانت هذه الحاميات تستقر عادة في منطقة مرو حيث نص عهد صلحها على ان يسكن المسلمون مع اهل المدينة في بيوتهم ، اذ لم يكن العرب آنذاك قد فكروا بعد بالاستقرار الدائم في خراسان .

٣ – تركيب الجيش العربي

لا بد لنا من وصف وجيز لتركيب جيش ابن عامر ليساعدنا هذا على حل بعض المشاكل التي تواجهنا في إعادة بناء تاريخ هذه الفترة .

كان جيش البصرة مكوناً من افراد القبائل الذين هاجروا حديثاً الى هذا المصر وسجلوا في سجل الديوان ، وكان من الطبيعي ان يحتفظ أفراد القبائل هؤلاء بتقاليدهم القبلية وان يحتفظوا أيضاً بأسماء عشائرهم أو قبائلهم وان يكونوا قد قطعوا علاقتهم بها حين هجروها الى هذا المصر .

---

(١) الطبري ج ١ ص ٢٩٠٤ – ٦ .

وكان لكل عشيرة ، بل وحتى المجموعات القبلية من العشائر المتقاربة ، رئيسها التي تعتبره قائدها العسكري ، ومع ان العشيرة كانت هي الوحدة الأساسية في الجيش فان أعداد افراد كل عشيرة تختلف بسبب تدفق سيل الهجرة المستمر نحو المصر [1].

ولم تشر المصادر التي بين أيدينا بوضوح الى بطون القبائل التي يتكون منها سكان البصرة في هذه المرحلة المبكرة من تطورها ، ولكننا باستعراض أسماء الرؤساء القبليين الواردة في أخبار الفتوح ، نستطيع ان نتبين الى حد ما البطون التي كانت تكون جيش ابن عامر في البصرة .

فقد كانت هناك عدة بطون تنتسب جميعها الى تميم وكانت تحت رئاسة الأحنف بن قيس . ويبدو ان هذه البطون على رغم كثرة عددها فقد كانت كل منها قليلة عدد الأفراد ، وهذا ما يفسر سبب تفضيلهم اختيار اسم القبيلة الكبرى ، تميم ، على اسمائهم الخاصة [2] وهذا هو التجمع القبلي الوحيد الذي يظهر في مصادرنا في هذه المرحلة .

كان الرؤساء الآخرون الذين ورد ذكرهم اما رؤساء عشائر أو مجموعة بطون متقاربة كانت من الصغر بحيث لا تستطيع ان تكون وحدة مستقلة وعلى هذا الاساس فقد كان هناك رجال من قبائل الازد وبكر ومذحج وقيس [3] ويبدو ان المجموعة الأخيرة – قيس – كانت على جانب من الكبر ملحوظ وكان يتنازع رئاستها كل من قيس بن الهيثم وعبد الله بن خازم وكلاهما من بطن سليم من قيس [4].

---

(١) الدكتور صالح العلي – التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ، بغداد ١٩٥٣ ص ٣٣ – ٤٥ .

(٢) البلاذري الفتوح ص ٤٠٦ والطبري ج ١ ص ٢٨٩٧ – ٢٩٠٣ ، واليعقوبي بلدان ص ٢٧٩ و ٢٩١ وابن سعد ج ٥ ص ٣٣ وج ٧ ص ١ و ٦٦ .

(٣) البلاذري – الفتوح ص ٣٦٨ و ٣٨١ و ٣٩٢ . والطبري ج ١ ص ٢٨٨٧ – ٢٩٠٣ . واليعقوبي البلدان ص ٢٧٩ وابن سعد ج ٥ ص ٣٢ – ٣٣ وياقوت ، معجم البلدان ج ٢ ص ١٣١ .

(٤) الطبري ج ٢ ص ٦٥ .

والعنصر غير العربي الوحيد في جيش ابن عامر هم الالف شخص من المسلمين غير العرب الذين ورد ذكرهم في جيوش الاحنف في معاركه ضد الامارات الهيطلية . ولم يكن هؤلاء الالف رجل من سكان خراسان بل كانوا من أساورة البصرة الذين كانوا من قبل جنوداً في جيش الساسانيين ثم انضموا الى العرب المقاتلة في البصرة [1] ولأنهم كانوا حلفاء تميم فليس من المستغرب ان نجدهم في جيش الاحنف بن قيس سيد بني تميم .

ويذهب المدائني الى ان عبد الله بن عامر حين ترك خراسان أودع الى قيس بن الهيثم السلمي أمور المقاطعة ، في حين ان اليعقوبي ، ويؤيده الى حد ما البلاذري، يؤكد ان ابن عامر قسم خراسان بين أربع رؤساء قبليين مختلفين [2] . ويمكننا الآن توحيد هاتين الروايتين على النحو التالي :

حين غادر عامر وغالبية جيشه خراسان ترك وراءه فيها حامية عسكرية كانت غالبيتها من جماعة سليم القيسية وتؤيدها بطون من تميم وخزاعة والازد . وطالما كانت المجموعة القيسية هي الاكبر فمن الطبيعي ان يكون قيس بن الهيثم هو رئيس الحامية المسؤول عن سلامتها لا سيما في حالات حدوث عمليات حربية ، ولو اننا يجب ان نتذكر انه لم يكن من المطلوب من هذه الحاميات ان تأخذ المبادرة في أية عملية عسكرية وخاصة في موسم الشتاء ، وفي سبيل ان يشاطر الرؤساء القبليون الآخرون في الشرق في المسؤولية فقد كلفوا بجمع الضرائب من بعض أقسام المقاطعة والتي يوزع منها العطاء على رجالهم ويسلم الباقي الى قيس بن الهيثم الذي يفترض فيه ان يرسله الى والي البصرة [3] .

٤ ـ التمرد في خراسان

لم يستمر الوضع في خراسان هادئاً كما توقع العرب ذلك ، فما ان غادر

---

(١) البلاذري – فتوح ، ص ٣٧٣ – ٤ ، والتنظيمات ص ٦٩ .

(٢) الطبري ج ١ ص ٢٩٠٥ ، واليعقوبي تاريخ ٢ ص ١٩٣ ، والبلاذري – الفتوح ص ٣٧٥ و ٤٠٨ .

(٣) الطبري ج ٢ ص ٦٥ .

ابن عامر خراسان في شتاء عام ٦٥٣/٣٢ حتى انتفضت البلاد في فتنة عامة يقودها – على قول المدائني – قارن ، وهو على الاكثر من افراد عائلة ساسانية نبيلة تعرف بهذا الاسم[1] وكان يؤيده أهل قوهستان وهياطلة هرات وباذغيس[2] . ويبدو ان هذه الفتنة جرت الى ثورة عامة في عموم المقاطعة فقد نقل ياقوت ان اسرة الكنارانخ ، والتي كانت تمت بصلة القرابة للعائلة الساسانية المالكة ، طردت العرب من نيسابور . كما ذكر أيضاً ان نيزك اشترك في هذه الثورة واحتل بلخ[3] . وعلى الرغم من كثرة جموع قارن والتي تقدر بأربعين الف رجل ، وهو عدد مبالغ فيه ولا شك ، فان الحامية العربية الصغيرة في خراسان والتي لا يزيد تعدادها عن أربعة آلاف عربي قد استطاعت – كما يقول المدائني – ان تدحر جيش قارن او على الاقل أن تحتفظ بمراكزها حتى عودة ابن عامر مع غالبية جيش البصرة في عام ٦٥٣/٣٣[4] حيث استطاع في فترة قصيرة ان يعيد الأمن الى المقاطعة وان يعود بعدها الى البصرة .

ويذهب المدائني الى ابن عامر لم يعد الى خراسان في تلك السنة وربما كان ذلك بسبب الاحوال المتأزمة في المدينة ، وان الفضل في سحق تمرد قارن يعود الى ابن خازم بعد ان فشل فيه منافسه قيس بن الهيثم . ولهذا فقد أقر ابن عامر ابن خازم رئيساً للحامية العربية في خراسان[5] . وعلى كل حال فان تعاقب الرؤساء العرب في خراسان منذ هذا التاريخ حتى تثبيت سيطرة الامويين عام ٦٦١/٤١ ليست واضحة تماماً في مصادرنا وربما كان مرد ذلك كثرة اختلاف القبائل التي تكون الحامية هناك تجنباً لابقاء العرب بعيدين عن اهلهم في البصرة مدة طويلة وهو ما يسمى تجمير البعوث .

---

(١) كريستنسن ، ايران ص ٩٨ .

(٢) الطبري ج ١ ص ٢٩٠٥ .

(٣) ياقوت – معجم البلدان ج ٣ ص ٤١١ .

(٤) الطبري ج ١ ص ٢٣٠٧ . وهذه رواية الطبري نفسه عن الواقدي كما يبدو .

(٥) الطبري ص ٢٩٠٥ وهنا ينقل الطبري عن المدائني رواية مختلفة عن الاولى ولكن الجميع يتفقون على أن ابن خازم هو الذي أعاد الهدوء إلى المنطقة .

وبسبب انشغال العرب في شؤونهم الخاصة وخلافاتهم المحلية خلال السنوات العصيبة الأخيرة من حكم عثمان وما تلاها من سني الحرب بين علي ومعاوية ، فقد كان من المتوقع ان تستغل البلاد الحديثة الفتح هذه الحال لتحرير نفسها من السيطرة العربية ، الا اننا لم نشهد في خراسان حركة عامة للتخلص من العرب هناك بعد قمع تمرد قارن . وان كنا نسمع بحركات محلية فقط . فقيل ان نيسابور قد ثارت [1] ، كما يبدو ان مرو قد تمردت حتى ان مرزبانها ماهويه الذي عقد عهد صلحها مع العرب اضطر الى ترك المدينة ، ومن ثم ظهر في العراق عام ٣٦/٦٥٦ـ٧، يطلب مساعدة امير المؤمنين على ابن أبي طالب لتنفيذ عهد الصلح [2] . واستناداً الى المدائني فان علياً استطاع بعد موقعة الجمل ان يرسل حملة الى خراسان في عام ٣٧/٦٥٨ احتلت مدينة نيسابور بعد حصار قصير ، ثم سارت الى مرو حيث أعادت ماهويه الى السلطة [3] . وبالاستناد الى البلاذرى فان الوضع في خراسان ظل قلقاً حتى وفاة علي [4] .

وترد قدرة العرب على تأمين سيطرتهم على جميع الأراضي المفتوحة ، الى ضعف مقاومة اهل البلاد اكثر مما ترد الى قوتهم انفسهم ، ولهذا فقد استطاعت الامارات الهيطلية في هرات وبوشانج وباذغيس ان تستعيد لنفسها الوضع التي كانت عليه قبل مجيء العرب وان تتوقف عن دفع الاتاوات المفروضة [5] وتضيف المصادر الصينية خبر محاولة جرت عام ٦٥٥ بتأييد من جيش طخارستان لإعادة تنصيب فيروز ابن يزدجر ملكاً اسمياً على بلاد فارس . لكن المصادر العربية لم تذكر هذه الرواية [6] .

---

(١) الطبري ج ١ ص ٣٢٤٩ ، والدينوري – الاخبار الطوال . ليدن ١٨٨٨ ص ١٦٣ .

(٢) الطبري ج ١ ص ٣٢٤٩ والبلاذري – الفتوح ص ٤٠٨ واليعقوبي – البلدان ج ٢١٣

(٣) الطبري ج ١ ص ٣٢٤٩ و ٣٣٥٠ و ٣٣٨٩ – ٩٠ .

(٤) البلاذري – الفتوح ص ٤٠٩ ، ومع الاسف فان البلاذري لم يذكر مصدره في هذه الرواية

(٥) نفس المصدر ص ٤٠٩

(٦) جيب – الفتوح العربية ص ١٦، وستيفانيس الوثائق ص ١٧٢ .

٥ ـ اعادة فرض السيطرة العربية

عندما انتهت الحروب الاهلية بين العرب بتنصيب معاوية اميراً للمؤمنين عام ٦٦١/٤١ استطاعت الحكومة المركزية ان تكرس الكثير من نشاطها لاستعادة النفوذ العربي في خراسان الذي ضعضعته احداث النزاع العربي . وقد ظل ابن عامر والياً على البصرة وتشمل ولاية خراسان وسجستان أيضاً . وقد عهد بقيادة حامية خراسان الى قيس ابن الهيثم مع الامر له بجمع الاتاوات من أولئك الذين ما زالوا متمسكين باتفاقيات الصلح بينهم وبين العرب والا يتدخل مع اولئك الذين نكثوا العهود [1] .

وفي نفس الوقت فقد جهز ابن عامر جيشاً كبيراً بقيادة عبد الرحمن ابن سمرة وكان قرشياً ، وقد ضم اليه عدداً من كبار القادة مثل عمر بن عبيد الله ابن معمر ، وعبد الله بن خازم ، وقطرى ابن الفجاءة والمهلب بن ابي صفرة . ومما يدعو للعجب ان نرى ان هذا الجيش الكبير يرسل الى سجستان وليس الى خراسان ، ولعلنا نجد تفسيراً لذلك اذا قبلنا رأي شافان بأن زرنج كانت هي مركز الحكومة الاقليمية لبلاد فارس تحت حكم فيروز الوارد ذكره في المصادر الصينية [2] ، ولربما اعتبر العرب ان سجستان وليس خراسان هي مركز الشغب والقلاقل في الشرق .

ومع ان اخبار هذه الحملة تختلط في المصادر العربية بأخبار الحملة التي سبقتها في عامي ٣١ ـ ٦٥١/٣٢ ـ ٦٥٢ ، فانه من الممكن مع هذا ان نتتبع زحفها . فقد أعيد فتح زرنج أولاً وصالح أهلها عليها « على الفي الف (مليوني) درهم والفي وصيف » ، ثم فتح العرب جهة جديدة ضد زنبيل ملك زابلستان فتقدموا شرقاً واحتلوا مدناً كثيرة مثل خواش وبست وخشك ورزان . ثم سقطت مدينة كابل بين أيديهم بعد حصار دام بضع شهور فاحتلوها . وقد كافأ الخليفة معاوية قائد الجيش ابن سمرة على فتوحه بأن

---

(١) الطبري ج ٢ ص ١٥ و ١٧ والبلاذري الفتوح ٤٠٩ .

(٢) شيفانيس الوثائق ٢٧٩ .

جعل سجستان ولاية مستقلة وجعله والياً عليها وظل فيها حتى خلفه عليها الربيع ابن زياد الحارثي عام ٤٥/٦٦٥[١] .

وينفرد اليعقوبي بين مصادرنا بالقول بان حملة ابن سمرة ارسلت الى خراسان حيث أعادت احتلال بلخ ثم تقدمت جنوباً الى كابل وحيث عقد ابن سمرة معاهدة صلح هناك ثم عاد تاركاً أمور خراسان بيد ابن خازم[٢] . وهناك رواية عند البلاذرى تقول ان قيس بن الهيثم سار نحو بلخ رأساً ، وبعد ان خرب معبدها المشهور « نوبهار » ، استجاب الى طلب اهل المدينة للصلح[٣] .

ولكننا نعلم من المدائني ان بلخ لم تفتح ثانية إلا من قبل الربيع بن زياد بعد عام ٦٧١/٥١ ، وانه اشار بصورة خاصة الى ان بلخ نقضت عهد صلحها مع العرب في زمن الاحنف بن قيس[٤] . وما دمنا نعلم ان الاوامر التي صدرت الى قيس بن الهيثم بأن لا يتدخل بشؤون أهل البلاد التي نقضت عهودها وثارت[٥] فيبدو لنا ان البلاذرى واليعقوبي ربما كان ينقلان رواية قيسية مبالغاً فيها وخاصة لاشارتها الى عبد الله بن خازم . ومن الجهة الاخرى فان الوضع في الشرق لم يكن ليسمح بتقدم مباشر نحو بلخ .

ومع اننا لا نملك صورة واضحة عن الاوضاع في الامارات الهيطلية في جوزجان ولكن يبدو لنا ان الامارات الغربية حول الطالقان والفارياب هي التي استمرت في الوفاء بعهود صلحها مع العرب ، اما بقية الامارات الهيطلية فيبدو انها نقضت عهودها حتى أعاد فتحها الحكم بن عمرو عام ٤٥ — ٥٠/ ٦٦٥ — ٦٧٠ .

اما عن الامارات الهيطلية في هرات وبوشنج وباذغيس فيبدو انها — وقد

---

(١) البلاذري الفتوح ص ٣٩٦ — ٧ .

(٢) اليعقوبي التاريخ ص ٢٥٨ .

(٣) البلاذري الفتوح ص ٤٠٩ .

(٤) الطبري ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(٥) البلاذري الفتوح ص ٤٠٩ .

ادركت ان عهد الحروب الاهلية بين العرب انفسهم قد انتهى - فقد فضلت ان تعيد الاعتراف بعهود صلحها السابقة ، وقد تقبل ابن خازم ، الذي ظهر ثانية قائداً للحامية العربية في خراسان في عام ٤٣/٦٦٣ ، نداءها هذا وبالتالي جزيتها طبعاً [١] .

وفي السنة التالية كانت الحامية تحت قيادة عبد الله بن ابي شيخ اليشكري ، وفي نهاية هذا العام عزل عبد الله بن عامر عن ولاية البصرة بسبب ضعفه في الادارة . فقد أدى وصول الاعداد الضخمة من المهاجرين من أبناء القبائل الى البصرة الى وقوع التنافر والتوتر بين مختلف القبائل الساكنة في البصرة مما دعا معاوية الى اتخاذ خطوة غير مألوفة وهي تعيين الحارث بن عبد الله الازدى والياً على البصرة . ولكن هذا التعيين لم يعالج الحال المتأزم ، فنحي عن منصبه هذا بعد أربعة أشهر ليحل محله الوالي القوي القدير زياد بن ابي سفيان الذي كانت ولايته عام ٤٥/٦٦٥ تضم خراسان وسجستان إضافة الى البصرة [٢] .

٦ - خطة زياد بن أبي سفيان

يعتقد فالهوزن ان زياد قسم خراسان في عام ٤٥/٦٦٥ الى اربع مقاطعات مستقلة وهي مرو وابر شهر (نيسابور) ومرو الروذ (مع الفارياب والطالقان) وهرات (ومعها باذغيس وقادس وبوشانج) ، ولكنه عاد فوحدهم جميعاً في عام ٤٧/٦٦٧ تحت الحكم بن عمرو الغفاري [٣] . ويوافق جيب على هذا الرأي ويرى انه ما « ان جربت عملية التقسيم هذه تحت رئاسة زعماء قبليين حتى ظهر خطرها وسرعان ما نبذت ، واذ ادرك زياد خطر ترك الحرية للقومية الفارسية في الشرق ، مؤيدة بموارد طخارستان ، فانه عاد وركز الادارة في مرو ونظم حملة تأديبية ، وفي عام ٤٧/٦٦٧ قام نائبه الحكم بن عمرو

---

(١) نفس المصدر ص ٤٠٩ ، اليعقوبي - تاريخ ٢٦٤ .

(٢) الطبري ص ٦٧ - ٦٨ .

(٣) ويلهاوزن : الترجمة الانكليزية ايم واير كلكتا سنة ١٩٢٧ ص ٤١٥ .

الغفاري بسلسلة من الحملات التي تهدف للاستيلاء على القسم الاسفل من طخارستان وغرتشتان »[1] .

ومن الواضح ان هذا الرأي يستند الى فقرة اوردها المدائني[2] واقتبسها البلاذري[3] .

وقد سبقت الاشارة الى خبر تقسيم خراسان بين رؤساء القبائل وجعلهم مسؤولين عن جباية الضرائب فقط[4] ولا بد ان التقسيم الذي جرى في عهد زياد قد جرى على نفس الأسس . والواقع ان المدائني ذكر في فقرة أخرى من نفس الرواية ان زياداً عين الحكم بن عمرو الى خراسان عام ٦٦٥/٤٥ ، عاهداً لكل مقاطعة برئيسها القبلي على ان يعملوا جميعاً تحت أمرة الحكم ويكونوا مسؤولين عن جباية الضريبة[5] .

أما اليعقوبي وابن أعثم فانهما لم يذكرا تقسيم خراسان هذا لا قبل عهد الحكم ولا في خلاله[6] . وقد تم تعيين الحكم إما في عام ٦٦٥/٤٥ أو عام ٦٦٧/٤٧ وقد ذكر ان وفاته كانت في عام ٦٦٧/٤٧ أو ٦٧٠/٥٠[7] .

وهذه التواريخ المتعلقة بالتعيينات والاحداث بين سنتي ٦٦٥/٤٥ و ٦٧١/٥١ مختلطة في مصادرنا ، وان كانت تتفق جميعها على ان الربيع بن زياد الحارثي قد عين لخراسان عام ٦٧١/٥١[8] ، وان هذا التعيين كان بداية سياسة جديدة في هذا القسم من الامبراطورية العربية .

---

(١) جيب – الفتوح العربية ص ١٦ .
(٢) الطبري ص ٧٩ .
(٣) البلاذري الفتوح ٤٠٩ .
(٤) اليعقوبي تاريخ ص ١٩٣ : البلاذري ص ٤٠٨ وانظر ص   من هذا الكتاب .
(٥) الطبري ص ٨١ .
(٦) اليعقوبي ، تاريخ ص ٢٦٤ ، وابن الاعثم كتاب الفتوح . مخطوطة استانبول مكتبة احمد الثالث رقم ٢٩٥٦ ج ١ ص ١٦٩ ب و ١٧٠ آ .
(٧) الطبري ص ٨١ – ٨٢ و ١٠٩ .
(٨) الطبري ص ١٥٥ والبلاذري – فتوح ص ٤١٠ وابن الاثير – الكامل في التاريخ ٣٠ ص ٤٠٨ .

وعندما عين زياد لولاية البصرة عام ٤٥/٩٦٥ ، كان همه الأول معالجة أمور البصرة نفسها [١]، والتي بدأت تتزايد اهميتها فلم يكن له من الوقت ما يتسع للتفرغ الى أمور خراسان . وربما كان قد عين الحكم عاملاً على خراسان في عام ٤٥/٦٦٥ ليبدأ حملة جديدة هناك ، ولكن لم يكن في مقدور الحكم ان يجمع جيشاً ويزحف في خراسان حتى عام ٤٧/٦٦٧ . وفي اثناء ذلك كان روؤساء الحامية في خراسان مسوؤلين عن جمع الضرائب هناك لارسالها على الأرجح للبصرة لمساعدة الحكم على جمع جيشه .

وقد ظهر الحكم في خراسان عام ٤٧/٦٦٧ زاحفاً نحو الشرق ليعيد السيطرة العربية على الامارات الهيطلية في طخارستان ، وقد استطاع – بعد مقاومة عنيفة في بعض الاحيان – ان يعيد للطاعة إمارات جوزجان وغرتشتان [٢] . ويقال انه قطع نهر سيحون ولكن لاقامة الصلاة فقط ثم عاد منه وقفل الى مرو [٣] .

ولما انهى الحكم الى زياد اخبار فتوحاته كتب اليه زياد يبلغه أمر الخليفة معاوية بأن « تصطفى له كل صفراء وبيضاء ولا تحركن شيئاً حتى تخرج ذلك » أي ان يستخرج من الغنائم كل الفضة والذهب ويبعث بها الى الشام ، ولكن الحكم رفض جهراً الانصياع الى هذه الأوامر [٤] وعزل الخمس من الغنائم فأرسله للشام وقسم الباقي بين المسلمين [٥] ، ولم توضح مصادرنا ما اذا كان الحكم قد اضطلع بحملات اخرى أم انه توفي عام ٤٧/٦٦٧ أو

(١) ابن اعثم – الفتوح ج ١ ص ١٦٩ب .

(٢) الطبري ص ٨١ – ٤ ، ١٠٩ – ١١ واليعقوبي . تاريخ ص ٢٦٤ .

(٣) الطبري ص ١٥٦ .

(٤) وكان رد الحكم كما يلي : –«اما بعد فان كتابك ورد تذكر ان امير المؤمنين كتب إلى ان اصطفي له كل صفراء وبيضاء ، والروائع والا احركن شيئاً . فان كتاب الله عز وجل قبل كتاب أمير المؤمنين وانه والله لو كانت السموات والارض مرتقا على عبد اتقى الله عز وجل جعل الله سبحانه وتعالى له مخرجاً» . ثم قال للناس اغدو على غنائمكم فغدا الناس وقد عزل الخمس وقسم بينهم الغنائم ثم قال الحكم : ربي ان كان لي خير عندك فأقبضني فمات في خراسان .(المترجم)

(٥) الطبري ص ٢١٠ وابن الاثير – الكامل ج ٣ ص ٣٩١ وابن الاعثم الفتوح ج ١ ص ١٧٠ أ .

٦٧٠/٥٠ ، وعلى كل حال فقد خلفه رجل من طبقته وطرازه وكان مثلـه صحابياً أيضاً هو غالب بن فضالة (أو عبد الله) الليثي وقد اتم مهمة الحكم في إمارات طخارستان [١] .

وفي هذه الاثناء كان زياد ابن ابي سفيان مشغولاً في إعادة تنظيم البصرة، فقد قسمها الى خمسة أقسام أو أخماساً كما كانت تسمى وكان كل خمس منها يختص بقبيلة معينة وكانت الاخماس تميماً وبكراً والازد وعبد القيس واهل العالية .

وحين أضيفت الكوفة الى ولاية زياد في عام ٦٧٠/٥٠ قام فيها بعمل مماثل فقسمها ارباعاً، وكانت الحكومة هي التي تعين رؤوس هذه الأقسام من بين كبار المرموقين في القبائل .

وفي هذا التنظيم الجديد صارت كل عشيرة تكون وحدة مستقلة بذاتهـا بالنسبة الى توزيع العطاء . وكانت سجلات الديوان تراجع ليحذف منهـا الموتى ويضاف اليها اسماء القادمين الجدد . وكانت النتيجة ان عدداً كبيراً من السكان لم تدرج اسماؤهم في سجلات الديوان في البصرة والكوفة [٢] ، وهذا ما دفع بزياد الى ان ينقل من كلا المصرين الى خراسان خمسين الفاً مع عوائلهم ليستقروا هناك بصورة دائمة وذلك لحماية الفتوح التي تمت هناك من قبل ، ولضمان الجند اللازم لتوسعها وامتدادها .

ويتفق المدائني والبلاذرى على ان عدد العوائل المنقولة كان خمسين الفاً ، لكن المدائني يضيف بأن نصف هؤلاء كان من البصرة ونصفهم الآخر من الكوفة[٣] ، ويشك الاستاذ العلي في ادعاء المدائني هذا قائلاً انه في ولاية

---

(١) الطبري ص ٨٥ وابن الاعثم الفتوح -ج ١ ص ١٧٠ آ وصالح العلي التنظيمات ٢٨٧ - ٢٩٥ .

(٢) الطبري ج ١ ص ٢٤٠٢ ، صالح العلي ، التنظيمات ص ٣٦ - ٤١ و ٢٨٧ - ٢٩٥ . ولا منز «دراسات عن العصر الاموي» بيروت ١٩٣٠ ص ١٢٧ - ١٣٢ ، ولزيادة المعلومات في البصرة انظر المؤلف الممتاز للدكتور صالح العلي - التنظيمات ...

(٣) الطبري ج ٢ ص ٨١ البلاذري ص ٤١٠ .

قتيبة عام ٧١٥/٩٦ لم يكن في خراسان إلا عشرة آلاف رجل من الكوفة فقط ، وليس هناك دليل في مصادرنا يثبت ان الكوفيين انسحبوا من خراسان بعد عهد زياد ابن ابي سفيان [١] . ولكن هذا وذاك لا يغير الحقيقة الراهنة وهي ان هذه اول مرة تستعمل فيها القبائل الكوفية في فتوحات خراسان .

ويروي ابن اعثم ان غالب بن فضالة (عبد الله) لم يوفق كثيراً في حروبه مع الامارات الهيطلية مما اضطر زياداً الى ان يعين الربيع بن زياد الحارثي والياً على خراسان عام ٦٧١/٥١ ، وكان الربيع قد قاد بنفسه حملة الـ ٥٠ الف رجل هذه من البصرة والكوفة الى خراسان حيث استقروا هناك . وقد تقدم الى بلخ رأساً حيث عقد معاهدة صلح مع سكان المدينة الذين كانوا قد نكثوا عهدهم مع الاحنف بن قيس بعد ان فارق خراسان ، ثم التفت الربيع الى بقايا جيوش الامارات الهيطلية في باذغيس وهرات وبوشنج وتتبعهم إلى قوهستان حيث دحرهم هناك ، ولكن نيزك استطاع ان ينجو هذه المرة ايضاً ليلاقي حتفه بعد سنين على يد قتيبة .

وقد استطاع الربيع بن زياد خلال ولايته على خراسان ٥١ – ٦٧١/٥٣–٦٧٣ ان يعيد مد سيطرة العرب حتى بلخ شرقاً كما استطاع ابنه عبد الله بن الربيع الذي خلف والده في الولاية اشهراً قلائل عام ٦٧٣/٥٣ ان يمد السيطرة الى ضفاف نهر سيحون وان يعقد الصلح مع آمل وزم .

وقد جعل الربيع وابنه مدينة مرو قاعدتهم ينطلقون منها في حملاتهم ويرجعون اليها بعد انتهاء تلك الحملات [٢] . ولم تذكر مصادرنا أي خبر عن أية قبيلة عربية عسكرت في أي بقعة أخرى في خراسان . كما ان اخبار المصادر العربية عن عرب الكوفة والبصرة الذين رحلوا الى خراسان واستقروا فيها قليلة بشكل يدعو الى الاستغراب . فالمدائني يقول انهم نقلوا عيالاتهم الى خراسان

---

(١) الطبري ص ١٢٩١ والبلاذري الفتوح ص ٤٢٣ . والعلي التنظيمات ص ٣٢ .

(٢) الطبري ج ٢ ص ١٥٦ – ١٦١ وابن الاعثم – الفتوح ج ١ ص ١٧٠ آ، والبلاذري الفتوح ص ٤١٠ .

ووطنوا فيها [١] ، ولم يحاول ابن الاثير ان يتوسع في هذه النقطة بل اكتفى بالقول انهم جعلوا خراسان منزلهم [٢] . والبلاذرى ، وهو الدقيق في ذكر تمصير العرب بعض المدن في غرب فارس لم يذكر شيئاً عن التمصير في خراسان . على انه اكتفى بالقول على انهم سكنوا « دون النهر » [٣] وكان ابن أعثم اكثر دقة اذ قال انهم استقروا في مرو وانهم خرجوا منها للحملات الى مختلف خراسان [٤] .

وفي جميع المصادر العربية ، من كتب التراجم الى المؤلفات الجغرافية الى المدونات التاريخية ، لم يذكر من أسماء هؤلاء الخمسين الف رجل من أهل أهل الكوفة والبصرة إلا اسما رجلين اثنين فقط وكان سبب ذكرهما كونهما من صحابة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهما بريدة ابن الحصيب الاسلمي وأبو برزة عبد الله بن نضلة الاسلمي . وقد استقرا كلاهما في مرو وماتا فيها وقد توفي اولهما في عام ٦٢ أو ٦٨١/٦٣ أو ٦٨٢ . ودفن كلاهما في قرية تعرف باسم فنين [٥] . كما نعرف ايضاً ان الحكم بن عمرو الغفاري ، والي خراسان، والذي توفي بين عامي ٤٧ و ٥٠/٦٦٧ و ٦٧٠ قد دفن في نفس هذه القرية في بيت خالد بن عبد الله الحنفي ، اخو خليد ، احد اوائل القواد البارزين في فتح خراسان [٦] . وهناك ايضاً اسماء بعض العرب الذين سكنوا في بعض القرى القريبة من مرو مثل بوزن شاه ومهرجان وجند فارقين وسينان

---

(١) الطبري ج ٢ ص ١٥٦ .

(٢) ابن الاثير – الكامل – ج ٣ ص ٤٠٨ .

(٣) البلاذري الفتوح ص ٣٢٩ – ٣٣٢ – ٤١٠ .

(٤) ابن الاعثم – الفتوح ص ١٧٠ ب .

(٥) البلاذري الفتوح ص ٤١٠ ، وابن الاثير ، الكامل ج ٣ ص ٤٠٨ ابن سعد ج ٧ القسم الاول ص ٣–٤ وج ٧ القسم الثاني من ١٠٠ وياقوت البلدان ج ١ ص ٧٧٧. والذهبي تاريخ الاسلام، القاهرة م ٢ ص ٣٨٦ وابن الاثير اللباب ج ٢ ص ٢٢٥ .

(٦) ياقوت – معجم البلدان م ٤ ص ٥١١ ، والطبري ج ٢ ص ١٢٥ .

وفنين ودارجة وجاروسة وبورسانجرد ودروازك[1] على ان اسماء هؤلاء الرجال المذكورين في هذا الخصوص لا تؤهلنا لان نستكشف منها ولاءاتهم القبلية.

وعلى ذلك فمن الواضح ان هؤلاء الخمسين الف رجل ، توزعوا حين وصلوا وسكنوا مختلف القرى المحيطة بمرو وربما نزلوا عند اقاربهم الذين كانوا جنوداً في حامية خراسان ، وبهذا انتفعوا كل الانتفاع من معاهدة الصلح مع مرو التي تشترط على اهل مرو ان يوسعوا للعرب في منازلهم.

ولم يمتد الأجل بالربيع بن زياد ولا بزياد بن سفيان لتنفيذ خطة زياد ولهذ فقد ترك عبء تنفيذ هذه الخطة الى ولده عبد الله بن زياد.

---

(١) ياقوت – معجم البلدان تحت الاسماء المذكورة ، ابن الاثير لباب ص ١١٢ ، ٢٠٦ ، ٢٢٤ ، ٤١٧ .

الفصل الثالث

الحكومة المركزية والقبائل العربيّة

١ ـ خراسان ولاية مستقلة

كان ترحيل خمسين الف عائلة عربية واسكانها في خراسان خطوة هامة دون شك ، وكانت بداية خطة توسعية جريئة في هذا القسم من الامبراطورية العربية . ومع ان واضع هذه الخطة زياد ابن ابي سفيان قد توفي عام ٥٣/٦٧٣ فان معاوية اراد ضمان استمرار تنفيذ هذه الخطة بتعيين ابن زياد والياً على خراسان ، وكان عبد الله بن الربيع الذي توفي ايضاً في نفس العام ، وانما قبل وفاة زياد ، قد عهد بأمور خراسان الى خليد بن عبد الله الحنفي ، أحد الرؤساء القبليين[١]، ولهذا فقد اقدم معاوية على فصل خراسان من ولاية البصرة وجعلها ولاية مستقلة وعين عبيد الله بن زياد والياً لها .

وكان عبيد الله آنذاك في حدود الخامسة والعشرين من عمره فسار لتوه الى خراسان في خريف عام ٥٣/٦٧٣ وبدأ الاستعداد لحملة عسكرية هناك[٢] .

ولهذا فما ان اقبل ربيع عام ٥٤/٦٧٤ حتّى كان قد قطع النهر وفتح بيكند ولربما فرض على بخارى نوعاً من الجزية[٣] .

وقد اسهب المستر جيب في وصف فتوحات العرب ما وراء النهر في كتابه « الفتوحات العربية في اواسط آسيا » فلا مبرر لتكرار القول فيها هنا إلا حين

---

(١) الطبري ج ٢ ص ١٦١ .

(٢) نفس المصدر ص ١٦٦ – ١٦٨ ، وفتوح البلاذري ص ٤١٠ .

(٣) جيب : فتوح العرب ص ١٧ – ١٩ .

(٤) البلاذري : فتوح ص ٤١٠ .

ينعكس الفتح على الاحوال في خراسان. والشيء المهم هنا هو ان نلاحظ ان جيش ابن زياد كان في حوالي ٢٤ الف رجل، وهو ما يقارب نصف الجيش العربي في خراسان في ذلك الوقت. وليس في مصادرنا ما يفيد ان ابن زياد قد حاول ان ينقل اياً من القبائل العربية التي استقرت حديثاً في قرى مرو الى بقاع اخرى في خراسان، وهذا امر طبيعي طالما ان مثل هذه المحاولة تضيّع عليه الغرض الاصلي وهو وجود هؤلاء المقاتلة متقاربين متجاورين مستعدين لتلبية غزواته السنوية في ما وراء النهر [1] وفي هذه المرحلة بالذات لم تكن مرو قد مصرت بعد وكان من المتعمد بقاء العرب خارج المدينة لا يسمح لهم بالسكن إلا في القرى المجاورة لها[2].

وقد تركت الادارة المحلية في مختلف مقاطعات خراسان بأيدي الدهاقين، وان يكن ابن زياد قد عين بعض الرؤساء القبليين من العرب نواباً له مقيمين إلى جانب الحكام المحليين. ولا نعرف الا واقعة واحدة رواها ابو عبيدة ونقلها ابو فرج الاصفهاني في كتاب «الاغاني» وهي تصور قبضة العرب على الادارة في الاراضي المحتلة، ونرى من المناسب ان ننقل القصة بنصها كاملة. قال أبو عبيدة: —

«ان عبد الله بن زياد استعمل حارثة بن بدر على نيسابور، ثم قدم حارثة فدخل عليه فقال له: «ما جاء بك ولم أكتب اليك؟» قال: استنظفت خراجك وجئت به وليس لي عمل، فما مقامي؟»

قال: أو بذلك أمرتك. ارجع فاردد عليهم الخراج وخذه منهم نجوماً حتى تنقضي السنة. وقد فرغت من ذلك، فانه ارفق بالرعية وبك، واحذر ان تحملهم على بيع غلاتهم ومواشيهم ولا التعنيف عليهم». فرجع ورد الخراج عليهم واقام يستخرجه منهم نجوماً حتى مضت السنة»[3].

---

(١) الطبري ج ٢ ص ٣٩٤.

(٢) ابن الاثير: اللباب. ج ١ ص ٥٦٩ وابن عبد ربه العقد الفريد ج ٢ ص ٦٥.

(٣) الاصفهاني: الاغاني ج ٢١ طبعة ليدن ١٨٨٨ ص ٣٠ و ٢٢ وابن عبد ربه ج. ٣ ص ١٠٦. وابن حزم، جمهرة انساب العرب ص ٢١٤.

وقد كان هذا التعيين بالذات منة من ابن زياد على صديق قديم لآل زياد، ولكنه من الناحية السياسية كان وسيلة لكسب الزعماء القبليين للحكم الاموي، وجمعهم على الولاء له وطريقاً لاشراكهم في مسؤولية الحكومة وتدريبهم في نفس الوقت على فنون الحكم . وكانت هذه التعيينات ايضاً مصدر دخل لهؤلاء الرؤساء القبليين ضرورياً لتقوية نفوذهم على افراد قبائلهم . ولم يكن الرؤساء المختارون لهذه التعيينات يكتفون بتقاضي الرواتب المخصصة لهم منذ ايام زياد ابن ابي سفيان[1] وانما كانوا يحصلون ايضاً على هدايا النيروز والمهرجان السنوية ، وهي عادة ساسانية قديمة استمر الفرس على العمل بها في خراسان حتى ايام الفتح العربي[2] . واكثر من هذا فان المتقلدين لهذه الوظائف يستطيعون ان يستبقوا لانفسهم قسماً من ايراد مناطقهم فلا يرسلوه الى الوالي، وقد اصبحت هذه العادة هي القاعدة وليست الاستثناء .

ولم يكن الرؤساء القبليون عند تقلدهم هذه الوظائف مصحوبين بأحد من اتباعهم[3] .

٢ ــ اسلم بن زرعة ، ممثلاً للقبائل العربية

لم يستطع ابن زياد ان يقود اكثر من حملة واحدة الى ما وراء النهر ، ذلك لانه نقل الى ولاية البصرة عام ٦٧٥/٥٥ ، وغادر خراسان اليها في نفس العام تاركاً أمور خراسان بعهدة اسلم بن زرعة الكلابي ، وهو احد رؤساء قيس البارزين[4] لكن اسلم نفسه لم يقد حملة ولم يغز ولم يفتح شيئاً[5] .

---

(١) اليعقوبي . تاريخ ج ٢ ص ٢٧٩ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٥٩ . الطبري ج ١ ص ٢٩٠٣ . ابن قتيبة عيون الاخبار ح ١ ص ٥٢ ــ ٦٠ الدكتور العلي : التنظيمات ص ١٩٧ .

(٣) الاصفهاني ــ الاغاني ج ٢١ ص ٣٩ .

(٤) الطبري ج ٢ ص ١٧١ .

(٥) نفس المصدر ص ١٧٢ .

وليس في مصادرنا ما يوضح سبب قعود الجيش العربي في خراسان عن الحركة عام ٥٥/٦٧٥ والعام الذي بعده والذي وصل فيه والي خراسان الجديد سعيد بن عثمان بن عفان، وقد عينه معاوية للحرب فقط وعهد بشؤون الخراج الى اسحاق ابن طلحة الذي توفي وهو في طريقه الى خراسان[١] ورغم ان بعض الروايات تذهب الى ان سعيد بن عثمان جمع في يديه ولايتي الحرب والخراج[٢] إلا ان الراجح ان اسلم بن زرعة تولى شؤون الخراج[٣] ذلك انه خلق للحكومة المحلية مشكلة عويصة لا تتعلق به بوصفه رئيساً قبلياً وانما تتعلق بالشؤون المالية للبلاد.

ونستطيع ان نستقصي من فتوح ابن اعثم معلومات مفيدة تلقي ضوءاً على هذه المشكلة، فاننا نذكر ان الخليفة معاوية ووالي البصرة زياد بن ابي سفيان حاولا خلال ولاية الحكم بن عمرو الغفاري ان يتدخلا في امر توزيع الغنائم، لكن الحكم وقف ضد هذه المحاولة جهاراً وبكل قوة، ولم يرسل الى زياد إلا النصيب الشرعي وهو الخمس فقط اما اموال الفرائض المجباة من خراسان فكانت ترسل الى البصرة لان المقاتلة في خراسان هم من افراد الديوان في البصرة ولان خراسان نفسها كانت قسماً من ولاية البصرة[٤]. ولكن لما انفصلت خراسان عن البصرة واصبحت ولاية مستقلة بنفسها كان من الطبيعي – شأنها شأن غيرها من الولايات – ان ترسل قسماً من وارداتها الى الخزينة المركزية العامة في دمشق، ويقال ان عبيد الله ابن زياد حين ترك خراسان الى البصرة حمل معه الاموال والغنائم[٥]، الامر الذي لم يقبله العرب في خراسان لانهم يعتبرون انفسهم في ثغر، أي في خط المواجهة مع العدو مما يقتضيهم الكثير من النفقات الحربية.

---

(١) نفس المصدر ص ١٧٨ وابن قتيبة : المعارف ص ١٢٠ .

(٢) الطبري ج ٢ ص ١٧٨ .

(٣) البلاذري : فتوح ص ٤١٣ . البلاذري انساب الاشراف ج ٥ ص ١١٨ .

(٤) الطبري ج ٢ ص ٦٥ .

(٥) ابن الأعثم – فتوح ج ١ ورقة ٧ آ.

ولكن معاوية ، وقد رأى وفرة الاموال التي جلبها معه ابن زياد ، فانه حين عين الوالي الجديد لخراسان عين معه ممثلاً عن الحكومة المركزية ذا سلطة اشراف كاملة على الشؤون المالية للولاية لكي يقوي قبضة أمير المؤمنين على القسم الاعظم من ايراداتها . ولم ترض القبائل عن هذا العمل وعارضته ، ولذلك فما ان توفي مبعوث الحكومة المركزية لشؤون الخراج وهو في طريقه الى خراسان حتى تولى اسلم ابن زرعة مهام الاشراف على الشؤون المالية للمقاطعة ممثلاً للقبائل انفسهم ضد الحكومة المركزية .

وكان لأسلم سند قيسي فعال في عاصمة الخلافة ، فلأن معاوية كان في ذلك الحين يحتاج الى تأييد القبائل له لحملها على مبايعة ابنه يزيد بولاية العهد، فقد غض الطرف عن عمل اسلم وترك العاصفه تمر . وكذلك فقد كان على سعيد بن عثمان الوالي الجديد ان يقبل بأسلم بن زرعة شريكاً له في ادارة الولاية ، بل واضطر اخيراً الى ترك الولاية كاملة له حيث اصبح اسلم والياً عليها منذ عام ٦٧٧/٥٧ حتى ٦٧٩/٥٩ [١] .

وكان سعيد بن عثمان حين ذهب الى خراسان قد اصطحب معه رجالاً بارزين وقادة اكفاء مثل المهلب بن ابي صفرة [٢] وجيشاً يبلغ تعداده اربعة آلاف رجل ، وامراً من معاوية الى والي البصرة لان يدفع له اربعة ملايين درهم ليوزعها على أفراد جيشه . ومن الظريف حقاً ان نعرف ان هؤلاء الاربعة آلاف رجل الذين يكونون جيش سعيد كانوا من المساجين والشقاة في البصرة [٣] كما قيل « ان سعيداً اخرج معه في جيشه قوماً من قطاع الطرق في البصرة من بني تميم [٤] .

وبعد ان وصل سعيد الى خراسان وبعد ان استعد بجيشه استعداداً كاملا

---

(١) الطبري ج ٢ ص ١٨٠ ، البلاذري فتوح ص ٤١٣ والبلاذري انساب ج ٥ ص ١١٨ واليعقوبي تاريخ ج ٢ ص ٢٨٢ .
(٢) الطبري ج ٢ ص ١٧٨ .
(٣) ابن الأعثم – فتوح ج ١ ص ١٦٧ آ .
(٤) الطبري ج ٢ ص ١٧٨ والاصفهاني – الاغاني ج ١٩ ص ١٦٣ .

اندفع بالجيش العربي فقطع به النهر وذهب الى ما وراءه بعيداً فناهضه الصغد فقاتلهم حتى هزمهم ثم حصرهم في مدينتهم فصالحوه واعطوه رهناً منهم خمسين غلاماً يكونون في يده من ابناء عظمائهم . وثم عاد من الصغد وفي طريقه احتل الترمذ ، وهي حصن مهم على نهر سيحون يسيطر على طرق التجارة الرئيسية الذاهبة الى الشمال والجنوب ويحتمل انه زحف اليها من خلال الباب الحديدي [1] .

وبعد هذه الحملة بدأ الخلاف يذر قرنه ويشتد بين سعيد وأسلم حتى اوشك ان ينفجر بينهما علناً . وقد ظل اسلم بعد هذا في خراسان سنتين لم يقم فيهما بأية حملة .

٣ ـ محاولة اخضاع عرب خراسان للسلطة النامية للحكومة المركزية

كانت مشكلة معاوية في خراسان آنذاك هي ان يستعيد النظام في خراسان وان يضمن ولاء قبائلها العربية لسياسة حكومته ، ولتحقيق هدفيه هذين فقد عين في عام ٦٧٩/٥٩ ابناً آخر من ابناء زياد هو عبد الرحمن بن زياد والياً على خراسان ولم يطلب اليه القيام بحملات وفتوح جديدة في تلك الاطراف انما قصر مهمته على توطيد سلطة بني أمية وبسطها على القبائل العربية المنتشرة وفي خراسان .

وقد انتدب عبد الرحمن زعيماً قيسياً آخر ذا معرفة ودراية بشؤون خراسان هو قيس بن الهيثم وبعثه اليها قبله ، فما ان وصل قيس الى خراسان حتى قبض على أسلم بن زرعة والقاه في السجن بعد ان اغرمه ٣٠٠ الف درهم [2] .

وقد مكث عبد الرحمن بن زياد في ولاية خراسان سنتين كان قصارى همه فيهما ان يبسط سلطة بني أمية ، أي الحكومة المركزية ، على القبائل

---

(١) جيب : فتوح العرب ص ١٩ ــ ٢٠ .

(٢) الطبري ج ٢ ص ١٨٩ والبلاذري فتوح ص ٤١٣ وابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٤٣٠ ابن قتيبة العيون ج ١ ص ١٩٧ .

العربية ويوطد سلطانها بينهم وان يثبت حقها في واردات المقاطعة وان يجبي لها الضرائب والخراج والاعشار .

وقد نجح عبد الرحمن في مهمته كل النجاح وليس ادل على ذلك من انه استطاع خلال سنتي ولايته ان يوفر لنفسه عشرين الف الف درهم اي عشرين مليون درهم (وهو رقم مبالغ فيه ولا شك) منحه اياها امير المؤمنين مكافأة على جهوده واخلاصه وانه لم يقم هاتين السنتين بأية حملة . وبهذا حقق الغرض الذي أراده معاوية [١] .

ولما مات معاوية وخلفه ابنه يزيد ، عين في سنة ٦٨١/٦١ سلم بن زياد والياً على خراسان بهدف القيام بفتوح جديدة في بلاد ما وراء النهر .

وقد توقف سلم بطريقه الى خراسان في البصرة حيث استطاع ان يجمع له قوة مختارة قوامها الف رجل من خيرة المحاربين والاشراف . ونستشف من رواية الطبري لهذا الحادث مقدار رغبة الناس في الانخراط بجيش سلم . وكان معه عدد عظيم من قادة العرب العظام امثال المهلب بن ابي صفرة وعبد الله بن خازم السلمي وطلحه بن عبد الله الخزاعي السلمي وعمر بن عبيد الله بن معمر التيمي [٢] .

وفي خراسان ، كان اول عمل ذي مغزى سياسي قام به سلم حال وصوله مرو هو القبض على قيس بن الهيثم والقاوه وولده في الحبس بعد إهانتهما [٣] . ولم يكن هذا العمل من جانب سلم مجرد استجابة وارضاء لانصار اسلم بن زرعة بقدر ما كان موشراً واضحاً على تغيير اساسي في السياسة التي اتبعها قيس في عهد عبد الرحمن بن زياد ، سياسة ارسال ايراد خراسان الى دمشق [٤] .

---

(١) الطبري ج ٢ ص ١٨٩ . البلاذري انساب ج ٤ ص ٧٥ . اليعقوبي تاريخ ج ٢ ص ٢٨١ .

(٢) الطبري ج ٢ ص ٣٩٣ ، اليعقوبي تاريخ ج ٢ ص ٣٠٠ ابن الأعثم الفتوح ١٢٠ ص ٢٣١ ب .

(٣) الطبري ج ٢ ص ٣٩٢ .

(٤) ابن الأعثم . فتوح ج ١ ص ٢٣٢ ب .

ثم نشط سلم في حملاته ما وراء النهر ، وكان الجديد في خططه انه قرر الاقامة حيث كان – في سمرقند على الارجح – عندما داهمه الشتاء ، ولم يجر على خطط من سبقوه في الفتوح الذي كانوا يعودون بجيوشهم الى مرو في فصل الشتاء .

وقد اثارت خطة سالم هذه ثائرة القبائل العربية المقاتلة معه في بخارى وسمرقند، ولكنه استطاع بشجاعة قائده المهلب واقدامه ان يقضي على هذه المقاومة ، وان يدفع العرب الى ساحة القتال حيث غنموا غنائم وفيرة مجزية ارضت كل القبائل العربية المشتركة في القتال وانستها متاعب البرد والشتاء [١] .

وقد روى لنا ابن اعثم في اسلوبه المعتاد في تفصيل القول في الغنائم وطرق توزيعها ، ان سلم ارسل الى يزيد خمس ما غنمه الجيش فقط ووزع الباقي على افراد الجيش [٢] كما ذكر لنا المدائني ان سلم بعث بحصة يزيد مع مرزبان مرو [٣] وهو عمل فيه الدلالة على رغبة سلم في استقطاب ولاء اهل خراسان ، ولهذا فلا عجب ان نجد الاخبار الوفيرة عن المحبة التي كان يتمتع به سلم اثناء إقامته في خراسان [٤] .

٤ ـ الوضع في سجستان

كانت ولاية سلم بن زياد تشمل سجستان [٥] ايضاً باعتبارها جزءاً تابعاً لخراسان ، وعلينا ان نعود قليلاً الى الوراء لنتبين كيف حدث ذلك .

حين تولى زياد بن ابي سفيان امارة البصرة في عام ٤٥/٦٦٥ كانت ولايته تشمل خراسان وسجستان ايضاً [٦] ولهذا فقد عين زياد الربيع بن زياد الحارثي

---

(١) جيب – فتوح العرب ص ٢١ – ٢ والطبري ج ١ ص ٣٩٤ واليعقوبي . تاريخ ج ٢ ص ٣٠٠ وابن الاثير : الكامل ج ٤ ص ٨٣ والبلاذري فتوح ص ٤١٣ .
(٢) ابن الأعثم – فتوح ج ١ ص ٢٣٢ ب .
(٣) الطبري ج ٢ ص ٣٩٤ .
(٤) نفس المصدر ص ٤٨٩ وابن الاثير ج ٤ ص ١٢٨ والذهبي ج ٢ ص ٣٦٨ .
(٥) الطبري ج ٢ ص ٣٩٢ .
(٦) نفس المصدر ص ٧٤ .

عاملاً له على سجستان ثم ابدل به عبيد الله بن ابي بكرة الذي ظل في منصبه هناك حتى وفاة زياد في عام ٦٧٣/٥٣ . وقد تميزت هذه الفترة بالمقاومة المستمرة العنيفة التي بدأها زنبيل والتي انتهت اخيراً بقبوله دفع جزية مقدارها مليون درهم[١] .

وبعد وفاة زياد فصل معاوية سجستان عن خراسان وجعلها ولاية مستقلة عين عليها والياً أحد أولاد زياد وهو عباد بن زياد الذي استمرت ولايته حتى وفاة معاوية عام ٦٨١/٦١ [٢] وكانت الاحوال في سجستان في خلال هذه الفترة هادئة مستقرة، كما يظهر، اذ لم تذكر لنا المصادر خبر ثورة أو تمرد او اضطراب هناك .

وقد عاد يزيد بن معاوية فأضاف سجستان الى ولاية سلم بن زياد فعادت جزءاً من ولاية خراسان . وقد بعث سلم أخاه يزيد بن زياد عاملاً له على بلاد سجستان [٣] وكان الواضح ان الهدف من هذا الاجراء هو التمهيد للحملة على زنبيل في زابلستان وقد تمت هذه الحملة ولكنها عادت على جيش يزيد بن زياد بالخسائر والنكبات . فقد قتل هو في المعركة وأُسر أخوه ابو عبيدة وقتل من الجيش العربي عدد كبير ، وقد اضطر سلم ان يرسل من خراسان طلحة بن عبد الله الخزاعي على رأس جيش كبير لينقذ اخاه الأسير ويعيد الهدوء الى المنطقة واهلها الى الطاعة .

وقد استطاع طلحة ان يفتدي ابا عبيدة والاسرى الآخرين بمبالغ كبيرة من المال واستطاع بالدهاء والتدبير اكثر منة بالحرب والقتال ان يعيد الأمن الى المنطقة [٤] . ولكنه توفي هناك قبل وفاة امير المؤمنين يزيد ٦٨٣/٦٤ بوقت قليل . وكان للفتن الداخلية والحروب الاهلية التي تلت ذلك والتي

---

(١) البلاذري – فتوح ١ ص ٣٩٧ ، تاريخ سبستان لمؤلف مجهول طهران ١٣١٤ ص ٩١–٩
(٢) البلاذري فتوح ص ٣٩٧ تاريخ سهستان ص ٩٥ .
(٣) الطبري ج ٢ ص ٣٩٢ ، البلاذري فتوح ٣٩٧ تاريخ سهستان ص ١٠٠ .
(٤) البلاذري، فتوح ص ٣٩٧ – ٨ تاريخ سهستان ص ١٠٠ – ١٠٤ .

امتدت للفترة بين عامي ٦٤ – ٧٣/٦٨٤ – ٦٩٢ ، تأثيرها البالغ حتى على سجستان ابعد اجزاء الامبراطورية العربية .

٥ – خراسان خلال الحرب الأهلية

حين وصلت البصرة اخبار وفاة أمير المؤمنين الاموي يزيد ثم قيام دولة عبد الله ابن الزبير في الحجاز ، قررت قبائل البصرة ان تظل على ولائها للوالي الاموي عبيد الله بن زياد حتى تتضح الامور ويتم اختيار الخليفة الجديد [١] . وكذلك كان الامر بالنسبة الى خراسان رغم محاولات سلم بن زياد الفاشلة في إخفاء انباء الاضطرابات في قلب الامبراطورية [٢] ولكن لم يلبث الاخوان عبيد الله وسلم ان سلكا طريقين مختلفين ، ففي حين ظل عبيد الله في تأييده للأمويين اختار سلم الانضمام الى الدولة الجديدة في الحجاز ، دولة عبد الله بن الزبير [٣] المناهضة لحكم بني أمية ، ولم يحاول ان يخفي سعيه الحثيث على حمل القبائل العربية في خراسان على تأييد حركة ابن الزبير مما هدد بشق الصف العربي هناك في بلد مثل خراسان يعتمد مركز العرب فيه على قوتهم واتحادهم ، واذ لم يجد سلم استجابة لدعوته هذه فقد ترك بعد شهرين خراسان الى الحجاز حيث التحق بابن الزبير [٤] .

وبرحيل سلم عن خراسان غابت عن البلاد كل سلطة حاكمة ، وظلت القبائل العربية هناك دون ما حكومة لها تلتف حولها وتأتمر بأمرها ولم تكن تعرف لها بعد خليفة متفقاً عليه لتدين له بالامر والطاعة ولا ممثلاً شرعياً بينها للحكومة المركزية يستطيع ان يفرض هيبته ويوحد القبائل في يديه ، لهذا كان من الطبيعي ان يعود الوضع قبلياً صرفاً تغلب عليه العصبيات القبلية وتسود فيه النزاعات

---

(١) الطبري ج ٢ ص ٤٣٣ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٨٨ . اليعقوبي تاريخ ج ٢ ص ٣٠١ .

(٣) البلاذري فتوح ص ٤١٣ . البلاذري انساب ج ٥ ص ١٨٨ اليعقوبي تاريخ ج ٢ ص ٣٢٣ .

(٤) البلاذري فتوح ص ٤١٤ .

العشائرية ، وان تتجمع القبائل حول رؤسائها في مجموعات كبيرة تتعصب كل مجموعة لنفسها ضد الاخريات ، وان تنازع القبيلة القبيلة في سبيل ان تستخلص لنفسها دون الاخريات اقصى ما يعود على افرادها بالنفع والفائدة .

ولا يمكن التسليم هنا بما اورده الطبري[1] من ان سلماً عين ، قبل مغادرته خراسان، بعض الرؤساء القبليين هنا وهناك خلفاء له ، ذلك لان سلماً كما اشار البلاذرى الى ذلك، لم يعد حين غادر خراسان ذا سلطة لتعيين من يخلفه على حكم البلاد [2] . ولا يمكن حمل الاقوال التي اوردها الطبري الا على انها روايات كانت تروّجها القبائل نفسها لاضفاء الشرعية على تصرفات افرادها وزعمائها .

ولعل ما حدث فعلاً هو ان سلم بن زياد في محاولته جمع الانصار والتأييد لابن الزبير قد دخل في صفقات سياسية مع بعض زعماء القبائل الذين كان يرجو منهم الخير لقضيته ، وكان عبد الله بن خازم القيسي من ابرز هؤلاء الرؤساء واكثرهم قوة واوسعهم نفوذاً واكثرهم اخلاصاً في تأييد ابن الزبير تسنده في ذلك حمية قيسية كثيرة العدد شديدة البأس [3] .

وعندما غادر سلم خراسان للالتحاق بالحجاز ترك مع ابن خازم مابة الف درهم ، ولم يكن هذا المبلغ بذي خطر كبير ، وعينه نائباً او ممثلاً عنه في خراسان بانتظار ان يتم تعيينه نهائياً من قبل ابن الزبير نفسه[4] .

ومع ما يحيط بروايات الطبري في هذا الامر من غموض فانها تتفق في عمومها مع روايات اليعقوبي والبلاذرى ، حيث تعطي روايات الاخير منها صوراً اوضح للوضع في خراسان ، ومنه نجد ان ابن خازم قد غلب على مرو ، ولم يلق اول الامر معارضة جدية او صعوبة تذكر [5] ولكن متاعبه الشائكة

---

(١) الطبري ج ٢ ص ٤٨٩ – ٤٩٠ .

(٢) البلاذري فتوح ٤١٤ .

(٣) الطبري ج ٢ ص ٤٣٣ .

(٤) البلاذري فتوح ص ٤١٤ والطبري ج ٢ ، ٤٨٩ .

(٥) الطبري ج ٢ ص ٤٩٠ والبلاذري فتوح ص ٤١٤ .

ابتدأت بعد ذلك بستة أشهر حين وصل اليه امر التعيين من ابن الزبير [1] فقد ثار عليه سليمان بن مرثد وقومه من ربيعة فلقيه خازم بمرو الروذ فقاتله اياماً حتى قتل سليمان وهرب رجاله بقيادة اخيه عمرو بن مرثد الى الطالقان حيث تبعهم اليها ابن خازم والتقى معهم فيها فانتصر عليهم وقتل قائدهم عمراً . ثم رجع الى مرو .

وعندما عاد الى مرو اجتمعت كل قبائل ربيعة في خراسان في مدينة هرات تحت أمرة اوس بن ثعلبة ولربما كان في نيتهم التحصن بالمدينة حتى نهاية الصراع السياسي [2] ولم يكن جمع ربيعة هذا من المتحمسين لبني أمية قدر ما كانوا معارضين لابن الزبير لانه يمثل في نظرهم السيطرة القيسية المضرية [3] . ولكن ابن خازم في تصميمه القاطع على مد سلطان ابن الزبير على عموم خراسان زحف في الحال نحو هرات الا انه لم يستطع دخول المدينة فضرب حولها حصاراً قوياً طال امده عاماً كاملاً فلما تغلب في النهاية على مقاومة ربيعة وافتتح المدينة اعمل فيهم السيف حتى قيل ان قتلى ربيعة في المعركة بلغوا ٨٠٠٠ رجلاً ، وقد استخلف ابن خازم ابنه محمداً على ادارة المدينة وترك معه حامية قوية من بني تميم [4] .

وكانت هناك ايضاً قبائل الازد ، ولكنها لم ترد ان تكون طرفاً في النزاع الدائر بين مضر (قيس وتميم) وبين ربيعة فنزحت عن مرو الى حصن قرب نيسابور [5] . وقد استغل الهياطلة خلاف العرب وتفرق كلمتهم فاندفعوا يهاجمون المدن والحصون حتى وصلوا في تغلغلهم الى قرب نيسابور وهاجموا

---

(١) البلاذري فتوح ص ٤١٤ .

(٢) الطبري ج ٢ ص ٤٨٩ – ٤٩٠ . البلاذري – فتوح ص ٤١٤ . اليعقوبي . تاريخ ج ٢ ص ٣٠١ .

(٣) البلاذري – فتوح ص ٤١٤ ، الطبري ج ٢ ص ٤٩١ – ٤٩٣ .

(٤) البلاذري – فتوح ص ٤١٤ ، الطبري ج ٢ ص ٤٩١ – ٤٩٦ اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ٤٠١ .

(٥) الطبري ج ٢ ص ٤٩٣ .

الازد النازحين هناك والذين كانوا على ما يبدو على قلة في العدد ، فارسل الازد الى ابن خازم في طلب النجدة فانجدهم بجيش من بني تميم دحر الهياطلة وردهم على اعقابهم [1] وهكذا بدا وكأن في قدرة ابن خازم ان يفرض سيطرته على عموم خراسان ، ولكن هذا الحال لم يدم إلا امداً قصيراً فقط .

ذلك ان الروح القبلي ساد الناس وبعثت العصبيات القبلية بين ابناء البلاد وصارت مصلحة القبيلة وافرادها هي الهدف الرئيسي فلا عجب اذا ما جر ذلك الى نشوب القتال بين تلك القبائل لأتفه الاسباب ، وبل وحتّى دون ما سبب معلوم .

ولقد تكشفت العصبية القبلية والحرص على النفع المادي بأقوى صورهما عند بني تميم الذين كانوا من جند ابن خازم واشد انصاره وطأة في حربه مع ربيعة ، وكانت تميم تنتظر ان يكافئها ابن خازم على نصرتها له وجهادها من دونه لانها كانت تنظر اليه على انه رئيس قبلي وتنتظر منه ان يتصرف معها على هذا الاساس في حين كان ابن خازم ينظر الى نفسه على انه عامل امير المؤمنين عبد الله بن الزبير على خراسان وممثله الشرعي فيها وكان يتصرف على هذا الاساس .

وقد خرجت بنو تميم على ابن خازم وثارت على ابنه محمد القائم بالامر في هرات فقتلته [2] ورفضت طاعة أبيه، فسار اليهم ابن خازم . ولكي تتجنب تميم حملات كثيفة من جيش ابن خازم ضدها ، فقد انقسمت الى جماعات صغيرة متفرقة احتلت معاقل طوس ونيسابور [3] ، وهكذا بدأ القتال بين الطرفين واستمر سجالاً بينهما مدة سنتين [4] .

---

(١) البلاذري، فتوح ص ٤١٤ والطبري ج ٢ ص ٤٩٣ .

(٢) الطبري ج ٢ ص ٥٩٣ والبلاذري فتوح ص ٤١٥ .

(٣) البلاذري فتوح ص ٤١٥ . ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ١٧١ .

(٤) الطبري ج ٢ ص ٥٩٥ – ٥٩٦ .

٦ - تميم تكسب السيطرة في خراسان

حاول عبد الملك بن مروان الخليفة الاموي الجديد في دمشق ، ان يكسب عبد الله بن خازم الى جانبه فكتب اليه يدعوه الى بيعته ويقره على ولايته على خراسان ويتعهد له ان يظل في ولاية خراسان سبع سنين . لكن رد ابن خازم على هذا العرض كان ارغام رسول امير المؤمنين على اكل الرسالة التي يحملها اليه من عبد الملك [١] . لذلك فقد التفت عبد الملك الى تميم وعين احد رؤسائها بكير بن وشاح والياً على خراسان [٢] وكان ذلك عام ٦٩١/٧٢ . فخلع بكير عبد الله بن الزبير ودعا الى عبد الملك بن مروان فاجابه الى ذلك اهل مرو وثار من تبقى فيها من بني تميم على ابن خازم فانضمت مرو اخيراً الى عداد المدن الثائرة .

ولوجود بني تميم في كل من طوس وهرات ونيسابور فقد فقد ابن خازم الأمل [٣] بالانتصار فارسل ولده موسى ليجد له ملاذاً أميناً في مكان ما في تلك البلاد، وبعد تجوال مضن طويل في بلاد ما وراء النهر وجد موسى قلعة حصينة في الترمذ[٤] ، فأوى اليها ، ولما فقد ابن خازم الامل حاول اللحاق بولده الى الترمذ إلا أنه لم يوفق الى ذلك اذ لقي حتفه في معركة جرت في قرية قرب مرو في عام ٦٩١/٧٢ [٥] .

وهكذا عادت خراسان الى سلطان بني أمية بفضل نصرة بني تميم الذين اصبحوا في النهاية حكام البلاد والقابضين على زمام الامور فيها فعلاً .

إلا ان الحسد والعصبية والتقاليد القبلية المتوارثة من صحراء جزيرة العرب المتأصلة جذورها في هؤلاء الناس كانت أعمق واقوى من ان تدعهم ينعمون بحياة الرغد والاستقرار ، ولهذا فسرعان ما دب الخلاف بين بطنين من بطون

---

(١) الطبري ج ٢ ص ٨٣١ والبلاذري - فتوح ص ٤١٥ .

(٢) الطبري ج ٢ ص ٨٣٢ والبلاذري، فتوح ص ٤١٥ .

(٣) الطبري ج ٢ ص ٨٣٢ - ٨٣٣ والبلاذري ص ٤١٥ .

(٤) ابن الأثير . الكامل ج ٢ ص ٤٠٢ - ٤٠٣ والبلاذري فتوح من ٤١٧ - ٤١٨ والطبري ج ٢ ص ١١٤٥ .

(٥) الطبري ج ٢ ص ٨٣٢ البلاذري، فتوح ٤١٥ .

تميم وأدى ذلك الى وقوع الحرب بينهما ، فخاف اهل خراسان ان تعود الحروب وتفسد البلاد [1] فكتبوا الى عبد الملك « ان خراسان لا تصلح بعد الفتنة إلا برجل من قريش لا يحسدونه ولا يتعصبون عليه ويسمعون له ويطيعون » فيقضي على اسباب الحسد والنزاع ويعيد للعرب وحدتهم وتماسكم في خراسان .

وعلى هذا فقد عين عبد الملك بن مروان أمية بن عبد الله بن خالد بن اسيد القرشي والياً على خراسان المضطربة وذلك عام ٦٩٤/٧٤ [2] ، وقد حذا عبد الملك حذو من سبقه من خلفاء بني أمية اذ جعل خراسان ولاية مستقلة بذاتها وألحق بها سجستان ايضاً [3] .

وكانت أولى مهام الوالي الجديد واهمها إزالة الخلاف بين بطني تميم وجمعهما تحت لوائه ، ولم تكن هذه المهمة بالأمر السهل اليسير [4] ولم يساعد رئيسا الفئتين المتنازعتين الوالي الجديد على إنجاح خطته . فاما اولهما وهو الوالي السابق بكير بن وشاح فقد كان مغيظاً موتوراً فلم يكن يُنتظر منه إلا العمل على عرقلة جهود خلفه الوالي الجديد . وكان بكير قد تزعم فئة من بني تميم تدعو الى الخروج على سلطة الحكومة المركزية والى سيادة المفاهيم القبلية في حكم خراسان بحيث ينفرد زعماء القبائل بـ « اكل » المقاطعة كما عبر عن ذلك احد زعماء هذه الفئة [5] .

ولقد ذهبت هباء كل جهود الوالي أمية في كسب بكير الى جانبه عن طريق اصطناع سياسة اللين والكرم واغداق الوظائف الهامة عليه [6] .

اما الفئة الثانية ، انصار بحير بن الورقاء ، فقد اصطنعوا — ولربما من باب المعاكسة واللجاج في الخصومة — سياسة الوفاق والتعاون مع الحكومة المركزية

---

(١) الطبري ج ٢ ص ٨٦٠ البلاذري فتوح ٤١٦٧ .
(٢) الطبري ج ٢ ص ٨٥٩ البلاذري فتوح ص ٤٧٦ .
(٣) الطبري ج ٢ ص ١٠٢٨ البلاذري الفتوح ص ٣٩٩ .
(٤) نفس المصدر ص ١٠٢٢ .
(٥) الطبري ج ٢ ص ٨٦٢ ، البلاذري — الفتوح ٤١٦ .
(٦) ابن الأعثم — الفتوح ج ١١ ص ٤٧ ب ابن صرح ٢٠٧ .

ممثلة بممثلها الشرعي في خراسان الوالي أمية[1]، ولكن بحير بدسه المستمر عند الوالي ضد بكير لم يكن اقل اثراً في عرقلة جهود الوالي من خصمه بكير نفسه[2].

وفي عام ٧٧/٦٩٦ رأى الوالي ان الوضع في خراسان قد استقر كل الاستقرار، فقرر العودة الى السياسة الاموية التقليدية في خراسان وهي اشغال القبائل العربية فيها بحروب ما وراء النهر، ولقد خرج بجيشه غازياً. ولكنه كان مخطئاً في هذا القرار غاية الخطأ. فما ان خرج جيشه متجهاً نحو بخارى حتّى ثار بكير في مرو وخلع الوالي أمية، مما اضطره الى الرجوع اليها حيث قاتل بكيراً حتّى قهره ثم صالحه على شروط سهلة كريمة[3]، ولكن العفو لم يجد مكاناً في نفس بكير، فقد ظل يدس ويتآمر ويحرك الفتن ضد الوالي، حتّى رأى الوالي ان الامن والهدوء في البلاد يقضيان بالقضاء على بكير فأمر بقتله وقام بحير نفسه وبكل فخر وسرور بتنفيذ امر القتل هذا[4].

ومن المشكوك فيه ان يكون أمية قد استطاع ان يغزو ما وراء النهر بعد حملته المزمعة عام ٧٧/٦٩٦[5] رغم روايات الطبري والبلاذرى في هذا الصدد، ذلك لان أمية لم يطل به المقام طويلاً بعد القضاء على ثورة بكير، اذ غضب عليه عبد الملك لانه لم يرسل له من وارد خراسان إلا «حصانين عجوزين»[6] ولانه فشل في سياسته في خراسان، ولذلك فقد اعفاه في سنة ٧٧٨/٦٩ من ولاية خراسان واضافها الى اعمال واليه المخلص القدير الحجاج بن يوسف والي البصرة[7] وبهذا انفتحت صفحة جديدة كل الجدة في تاريخ خراسان.

---

(١) الطبري ج ص ١٠٢٣ – ٤.

(٢) نفس المصدر ص ٨٦١ . ٢.

(٣) نفس المصدر ص ١٠٣٠ – ١، البلاذري الفتوح ص ٤١٦ اليعقوبي التاريخ ج ٢ ص ٣٢٤.

(٤) نفس المصدر ١٠٣٠، البلاذري – الفتوح ٤١٦ ٤١٧ اليعقوبي ج ٢ ص ٣٢٤.

(٥) جيب – الفتوح العربية ص ٢٤، الطبري ج ٢ ص ١٠٣١ – البلاذري فتوح ص ٤١٧

(٦) ابن عبد ربه – العقد الفريد ج ١٤ ص ٤٥ ابن الأعثم ج ٢ ص ٥٨ب.

(٧) الطبري ج ٢ ص ١٠٣٢ – اليعقوبي – تاريخ ج ٢ ص ٣٣٢. البلاذري الفتوح ص ٤١٧

٧ – بذور الاندماج

طرأت على احوال العرب في خراسان تطورات بارزة خلال السنوات الممتدة بين عامي ٦٨٣/٦٤ و ٦٩٧/٧٨، اي خلال ولايات ابن خازم وبكير وأمية، وقد اتضحت هذه التطورات وبرزت بشكل ظاهر في السنين الاخيرة من ولاية أمية ، وان كانت جذورها في الواقع تمتد الى ابعد من ذلك بكثير اي الى ايام ابن خازم .

والواقع ان في اخبار المدائني عن احداث هذه الحقبة كما ينقلها لنا الطبري كفاية وغناء [١] .

وأول ما يلفت النظر في امر القبائل العربية هو اننا نرى ، ولاول مرة ، تجمعات قبلية عربية ممن اختلفوا مع ابن خازم تضرب في خراسان وتحاول ان تستقر في اماكن متفرقة كثيرة غير مرو .

ويمكننا ان نستنتج من هـــذا بأن العرب حاولوا الاستيطان في المدن والبلدان ذات القلاع والحصون مثل نيسابور والطالقان وهرات ومرو الروذ وطوس [٢] بغية الاحتماء في قلاعها مما قد يدركهم من خطر . ولكن يجب ألا نظن ان العرب قد رغبوا في الاستقرار النهائي في هذه المدن والبلدان وانما يتراءى لنا انهم كانوا يذهبون اليها ابتغاء الحماية والسلامة حين تضطرب الامور وتسوء الاحوال في مرو ولكنهم ما يلبثوا ان يتركوها ويعودوا الى مرو حال ما تستقر فيها الاوضاع .

واننا نرى ان مدينة مرو نفسها قد فتحت بآخرة ابوابها للقبائل العربية لتستقر فيها ، فاننا نسمع في نهاية هذه الفترة ولاول مرة اخباراً عن بعض العرب الذين سكنوا هذه المدينة ، ونسمع ان الوالي أمية بعد عودته من حملة ما وراء النهر بسبب ثورة بكير ٦٩٦/٧٧ ، قد قاتل بكيراً وبني تميم داخل مرو

---

(١) الطبري ج ٢ ص ١٠٢٢ – ٣١ .

(٢) الطبري ج ٢ ص ٤٩٠ – ٤٩٣ و ٩٣ و ٦٩٦ ، اليعقوبي تاريخ ج ٢ ص ٠١ البلاذري الفتوح ص ٤١٥ – ٤١٦ .

نفسها وحيث كانت عوائل رجال أمية تسكن المدينة نفسها. وقد روى ان أمية نفسه سكن المدينة بعد القضاء على التمرد التميمي [1].

وكذلك فاننا نعلم من نفس المصادر ان بعض القرى والدساكر حول مرو من أمثال باسان وبوينة كانت ملكاً للقبائل العربية[2] التي يبدو لنا انها سكنت هناك فترة طويلة مكنتها من شراء الارض وامتلاكها.

ورغم ان غالبية القبائل العربية الموجودة في خراسان قد تورطت في النزاعات القبلية هناك، فقد ظلت هناك فئات قليلة اخرى لم تتورط في هذا النزاع إما على اعتبار انه فتنة يجب الابتعاد عنها وإما على اعتبار انه صراع بين ربيعة ومضر فقط وهم ليسوا من هؤلاء ولا من هؤلاء.

وقد كانت هذه الفترة فترة هدوء وخمول بالنسبة الى هؤلاء «المحايدين» الذين تجنبوا الفتنة فلم يشتركوا فيها، وكذلك فقد توقفت حرب المشركين زهاء ثلاثة عشر عاماً فلم يقوموا بغزوة ولم يشتركوا بحملة، فلا غرابة إذن في ان ينصرفوا او قسم منهم الى ممارسة التجارة وامتلاك الاراضي بشرائها من اصحابها سكان البلاد الاصليين. وهذا ما يفسر لنا الخبر الوارد في هذه الرواية من ان بعض بني تميم اشتكوا الى بكير من ان الوالي أمية قد «سلط عليهم الدهاقين في الجباية»[3]. ومن المحتمل ان تكون هذه الضرائب، ضرائب الارض التي كان من المفروض ان يدفعها ملاك الارض الاصليون للعرب سداداً للجزية التي فرضها العرب على المدينة والتي كان الدهاقنة مسؤولين عن جبايتها ولكن بني تميم، بصفتهم عرباً مسلمين يرون وجوب اعفائهم من هذه الضريبة بعد ان تحولت الارض الى ملكيتهم.

وقد أدى مكث القبائل العربية الى جوار اهل البلاد الاصليين زمناً طويلاً الى بدء حركة من الاندماج والانصهار بين الشعبين العربي والايراني. فقد

---

(١) الطبري ج ٢ ص ١٠٢٦ – ١٠٢٨.

(٢) الطبري م ٢ ص ١٠٢٦.

(٣) الطبري م ٢ ص ١٠٢٩.

كانت الشؤون القبلية ونزاعاتها حتى ايام ابن خازم شأناً عربياً صرفاً يخص العرب وحدهم ولا يتدخل فيه السكان المحليون . وفي الواقع فاننا لا نجد في اي من المصادر التي بين ايدينا اية إشارة الى ان اياً من سكان البلاد قد تدخل فيما كانوا يعتبرونه شؤوناً عربية صرفة .

ولكننا نسمع ، ولاول مرة، خلال احداث عام ٧٧/٦٩٦ – ٧ باسماء مسلمين من اهل خراسان يشاركون في الاحداث الدائرة بين العرب ، امثال ثابت بن قطبة مولى خزاعه واخيه حريث . ولا شك ان وجود هذين الشخصين في جيش أمية ، الذي اريد له ان يسير الى ما وراء النهر ثم عاد للقضاء على ثورة بكير في مرو ، يدل على وجود اتباع لهما ايضاً في ذلك الجيش ، ولما وقع ثابت بن قطبة اسيراً بيد بكير في المعركة قرب مرو ، اطلق بكير سراحه في الحال في محاولة – ولا ريب – لكسب انصاره في الجيش[1] . وقد قام بكير بعمل مشابه لكسب الايرانيين الى جانبه اذ أعلن رفع الخراج عمن يسلم منهم[2] .

وعلى الرغم من فشل ثورة بكير ، فان اعماله نبهت الاذهان في معسكري العرب والايرانيين على حد سواء الى ما يترتب على اعتناق الفرس للاسلام من نتائج واسعة واثار كبيرة .

وخلال هذه الفترة التي بلغت زهاء اربعة عشر عاماً ، حرم العرب مما اعتادوا عليه من غنائم وفيرة تعود عليهم من حملاتهم في ما وراء النهر ، كما حرم العرب من مورد مالي آخر هو ما كان يدفعه اليهم أمراء بلاد ما وراء النهر الذين استطاعوا ان يستغلوا انشغال العرب في حروبهم مع بعضهم البعض ليستعيدوا لبلادهم استقلالها عن العرب ويحرموا العرب رفدهم المالي[3] . ومن الغريب في هذا الصدد ان نسمع من المدائني بأن العرب « دانوا من

(١) الطبري م ٢ ص ١٠٢٣ و١٠٢٦ – ٧ .

(٢) الطبري م ٢ ص ١٠٢٤ .

(٣) جيب – الفتوح العربية ص ٢٢ – ٢٣ .

بعض رجال السغد وتجارهم في مرو » للتجهيز لحملة ٧٧/٦٩٦ لغزو ما وراء النهر[١] اي ان رجال السغد هؤلاء الساكنين في مرو كانوا يمولون حملات العرب لفتح بلادهم ، بلاد السغد ، التي استطاعت ان تنفض عنها التبعية للعرب وان تستعيد منهم استقلالها وتقطع عنهم اموالها . ولا نستطيع إلا أن نستنتج ان رجال السغد هؤلاء كانوا ميالين الى استمرار هذه الامارات في دفع الضرائب للعرب حفظاً لحالة التعايش والوئام مع العرب ورغبة منهم في ان يظلوا في دار الاسلام والا يعتبرهم العرب جزءاً من دار الحرب وبالتالي تبقى الضرائب المفروضة عليهم في حدود الخمسة بالمائة كما هي في ديار الاسلام ولا ترتفع الى العشرة بالمائة كما هي في دار الحرب . وبهذا يستمر انتعاش التجارة بين ما وراء النهر ومرو[٢] .

ويبدو واضحاً مما بين ايدينا من مصادر ان أمراء بلاد ما وراء النهر قد استعادوا لبلادهم استقلالها عن العرب ، ولكن الحال ليس على هذا القدر من الوضوح بالنسبة الى الامارات جنوب نهر سيحون ، كما وان التاريخ لا يذكر لنا خبر اية مشكلة للعرب في تلك الاطراف خلا خبر بعض الغارات التافهة التي كان يشنها هياطله باذغيس على اطراف نيسابور . ولكن من المحتمل ان بعضاً من هذه الامارات قد توقفت موقتاً عن دفع الضريبة للعرب ولكنها — كما يقول البروفسور جيب — عادت فاعترفت بالسيادة العربية اسمياً على الاقل بعد ان اعاد أمية الهيبة والنظام الى البلاد[٣] .

٨ — موسى بن عبد الله بن خازم

كانت هناك مشكلتان أخريان واجهتا أمية في خراسان وفشل في حلهما ،

---

(١) الطبري ج ٢ ص ١٠٢٢ .

(٢) الدكتور العلي — التنظيمات ش ١٢٣ ، الماوردي : الاحكام السلطانية ص ١٣٢ ابن سلام — الاموال ص ١٦ و ٥٣٨ — ٩ ، يحي ابن آدم : الخراج ص ١٢٥ ابو يوسف الخراج ص ٧٦ ابن سعد ج ٧ ص ١٥١ .

(٣) جيب — الفتوح العربية ص ٢٣ .

الاولى مشكلة موسى بن عبد الله بن خازم الذي لجأ الى قلعة حصينة في الترمذ واقام فيها منذ وفاة ابيه عبد الله بن خازم ، والثانية مشكلة سجستان التي كانت جزءاً من ولاية خراسان .

اما عن موسى بن عبد الله فان بطولاته قد غدت اساطير شعبية في زمن البطولات والمغامرات حيث تختلط الحقيقة التاريخية بالاسطورة والخيال ... لكن الواقع ان اعماله الحقة كانت مثيرة فعلاً فقد استطاع ان يعيش آمناً في قلعته خمسة عشر عاماً ، مثالاً حياً على عجز الولاة في الجانب الآخر من النهر [1] .

وكان موسى قد بدأ مسيرته من مرو ومعه مائتا فارس فقط ، وظل يتسكع في البلاد وقد فشل في ان يجد له مقاماً او ملجأ في بخارى او سمرقند او كش ، فانتهى به الترحال الى الترمذ حيث استطاع بالمكيدة او بالقوة او بكليهما معاً ان يفرض له مكاناً في قلعتها الحضينة المطلة على نهر سيحون والتي تسيطر على مفترق الطريق من بلخ الى ما وراء النهر بعد ان طرد منها اميرها ترمذ شاه .

فلما قتل ابوه عبد الله بن خازم التحق اربعمائة من انصاره بابنه موسى في الترمذ ، فلما احس موسى بالقوة والاستقرار في قلعته خرج يغزو ما يجاور قلعته ويحيط بها من ارض الصغانيان . وقد اثار عمله — بطبيعة الحال — فزع السكان وهلعهم الى حد انهم استجابوا في الاخير الى نداء ترمذ شاه فارسلوا له جيشاً ليحاصر به موسى في الترمذ .

ولا نعلم على وجه الدقة من الذي هاجم موسى في هذه الفترة ، فان ما بين ايدينا من مصادر تشير اليهم على انهم « الترك » بالمعنى العام الذي يشمله هذا الاصطلاح في الكتب العربية .

ولما ولي بكير بن وشاح امر خراسان لم يعرض لموسى بشيء ولم يوجه اليه احداً ، لكن أمية جهز جيشاً للعبور الى ما وراء النهر وكان في خطته ان يهاجم موسى في الترمذ في طريق عودته ، لكن ثورة بكير في مرو افسدت الخطط

(١) نفس المصدر ص ٢٤ .

كلها واضطرت أمية على الرجوع الى مرو على عجل ، ولكن ما ان قضى أمية على ثورة بكير حتّى عاد فارسل عام ٦٩٧/٧٨ ، قوة من بني خزاعة هاجمت الترمذ في نفس الوقت الذي هاجمها فيه « الترك » . لكن موسى استطاع بانصاره القليلين ان يرد العرب والترك معاً عن قلعته ، وقيل ان بعضاً من بني خزاعة انضموا اليه [١] ، وظل موسى في مكانه سبع سنوات اخرى حتى عرض له وال آخر فهاجمه ودحره .

٩ ــ القلاقل في سجستان

وواجه أمية في سجستان مشكلة أخرى وواجه في حلها فشلاً آخر ايضاً . ذلك ان وفاة الخليفة الاموي يزيد عام ٦٨٣/٦٤ قد تبعها ايضاً وفاة طلحة بن عبيد الله عامل سلم بن زياد على سجستان . ورغم ان طلحة قد عين عند وفاته خلفاً له رئيساً يشكرياً من ربيعة الا ان القبائل الاخرى وخاصة المضرية منها لم تعترف بهذا التعيين وبدأ رئيس كل قبيلة يغلب على مدينة من المدن ويبسط حكمه عليها وينفرد بادارتها .

وحين عين عبد الله بن الزبير عبد الله بن خازم والياً على خراسان ارسل ايضاً عبد العزيز بن عبد الله بن عامر والياً على سجستان ، وقد قوبل تعيينه بالرضى والقبول من فئة من بني تميم يقودها وكيع بن ابي سود التميمي (الذي سنلتقي به بعد حين والياً على خراسان) ، وبالرفض والقتال من فئة تميمية اخرى [٢] .

وقد زاد في حدة الخلاف بين هاتين الفئتين في سجستان وصول بعض القبائل العربية اليها من خراسان ممن دحرهم ابن خازم هناك [٣] .

وقد اراد زنبيل ان يستغل هذا الخلاف لصالحه فهاجم البلاد ، لكن تحركاته

---

(١) الطبري ج ٢ ص ١١٤٥ – ٥١ ، البلاذري فتوح ص ٤١١ – ١٢ و ٤١٧ – ١٨ .

(٢) البلاذري فتوح ٣٩٨ تاريخ سهستان ص ١٠٣ – ١٠٥ .

(٣) الطبري ج ٢ ص ٥٩٦ و ١٠٢٦ .

وحدت القوى العربية ضده فاستطاعت دحره وقتله في ميدان القتال [1] ، فلما زال خطر زنبيل عادت الفئتان التميميتان الى الخلف والاقتتال وكان النصر من نصيب جماعة وكيع بن ابي سود وكان موآزراً لوالي ابن الزبير الذي ظل هناك حتى مقتل ابن الزبير [2] .

وفي ولاية بكير بن وشاح ، عاد الى خراسان بنو تميم الذين هربوا منها ايام ابن خازم [3] .

ولما عين عبد الملك بن مروان أُمية عام ٧٤/٦٩٣ والياً له على خراسان ضم اليها سجستان ايضاً ، وقد ارسل أُمية ابنه عبد الله على رأس حملة الى سجستان ، كتب لها النجاح اول الامر ولكن ما لبث زنبيل الجديد ان اعاد عليها الكرة بعد ان استجمع قوته فدحرها ، وقيل ان عبد الله نفسه قد لقي حتفه في هذه المعركة .

ولم يتهيأ لأمية القيام بحملة اخرى في سجستان ، فقد أعفي من منصبه بعد ذلك بقليل وأُضيفت ولايتا خراسان وسجستان الى ولاية الحجاج بن يوسف في العراق [4] .

١٠ ـ الحاجة إلى سياسة جديدة في المشرق

يمكن القول باختصار بان سياسة معاوية في خراسان والتي تهدف الى تقوية سلطة الحكومة المركزية على القبائل العربية في تلك البلاد بالتدريج ، كانت تحتاج لتنفيذها كما اثبتت الايام وقتاً اطول مما كان مقدراً لها .

ولربما لم يكن الاحتفاظ بالتركيب القبلي العربي في خراسان مع محاولة موازنة سلطات زعماء القبائل مع سلطة الوالي القرشي هناك ، لم يكونا كافيين لحمل

---

(١) البلاذري فتوح ص ٣٩٨ تاريخ سهستان ص ١٠٦ .

(٢) البلاذري فتوح ص ٣٩٨ تاريخ سهستان ص ١٠٧ ابن قتيبة معارف ص ٢١٢ .

(٣) الطبري ج ٢ ص ١٠٢٦ .

(٤) البلاذري : فتوح ص ٣٩٩ ، اليعقوبي تاريخ ج ٢ ص ٣٢٤ تاريخ سهستان ص ١٠٧ – ١٠٨ .

العرب على نسيان تقاليدهم البدوية العميقة الجذور ، واكثر من هذا فقد أدت هذه السياسة الى متانة الروابط القبلية وتماسكها ، تلك الروابط التي حاول الاسلام جاهداً ان يضعفها لتحل محلها رابطة الفرد بالجماعة الاسلامية ككل . ولربما ادى اشغال القبائل العربية بالحملات السنوية في بلاد الفرس والترك الى تأخير ظهور ضعف هذه السياسة الى العيان بدل ان تعمل على انجاحها .

وما ان برزت علائم الضعف في السلطة المركزية اول مرة اثر وفاة الخليفة يزيد ، حتى استغلتها القبائل العربية فرصة سانحة لاستعادة ما استطاعت الحكومة المركزية ان تسلبهم إياه من سلطات .

وما كانت حركة ابن خازم في الاصل الا نزاعاً بين جماعتين كانتا كلتاهما ضد السلطة المركزية وانما على درجات متفاوتة ، فلما تطورت الحركة الى نوع من الحرب القبلية بين مضر وربيعة ، كانت مضر ضد الامويين على خط مستقيم وعلى علاقة متأرجحة مع ابن الزبير ، في حين كانت ربيعة ، وهي الاقلية ، ليست تماماً مع الامويين بقدر ما هي ضد قيام نظام حكم منافس جديد ترى فيه تهديداً لوحدة الجماعة الاسلامية .

فلما انتهى الصراع بانتصار مضر ، طالبت العناصر المتطرفة فيها . وكان لها العدد الاغلب — باستقلال اكثر عن الحكومة المركزية وتوطيد اكثر للسلطة القبلية .

وقد رفعت تميم التي تمثل اكثرية مضر في خراسان السلاح في وجه ابن خازم حين حاول اثبات سلطته كحاكم على خراسان ، ثم ثاروا ثانية على أُمية بن عبد الله حين حاول ان يعيد سلطة الولاة الامويين السابقين على خراسان . وصحيح ان أُمية استطاع ان يخمد هذه الثورة ، ولكنه لم يخمدها إلا لأمد قصير .

وقد ازعجت اوضاع خراسان عبد الملك حتى دفعته الى ان يجرب في تلك البلاد سياسة جديدة يهدف من ورائها الى كسب ولاء القبائل العربية فيها تحت لوائه .

ولم يقتصر فشل السياسة الاموية في الدور الاول في خراسان الى ظهور حركات التمرد القبلية التي سبق ان الممنا بها ، وانما ادى فشل السياسة الى نتائج هامة اخرى لم تخطر على البال ولم تظهر اعراضها للعيان اول الامر . فبالرغم من الاضطرابات التي رافقت الفتن والحروب الاهلية في خراسان فقد أدت الاوضاع الى ظهور نوع من التقارب بين العرب الفاتحين للبلاد وبين الايرانيين، السكان الاصليين للبلاد المفتوحة . وقد ازداد التقارب ونما بمرور الايام حتى تطور الى عملية دمج وانصهار بين الشعبين .

وهكذا برزت للعيان عمليتا انصهار وضم في خراسان ، الاولى عملية انصهار القبائل العربية في المجموعة الاسلامية ، والثانية عملية انصهار العرب القادمين مع سكان البلاد الايرانيين . وقد قررت طبيعة عمليتي الانصهار هاتين وطبيعة المشاكل الناجمة عنهما مسيرة التاريخ في خراسان لبضعة الاجيال القادمة .



الفصل الرابع

الحجاج بن يوسف والمشرق

١ ـ أزد المهلب في مواجهة تميم

من المهم جداً ان نلاحظ ان حركة الخوارج التي عمت العراق كافة وشرق بلاد فارس ايام عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير ، لم تمتد الى خراسان، فعلى الرغم من ان بعض رجالات تميم في العراق لعبوا أدواراً بارزة في زعامة هذه الحركة إلا أننا لا نجد اثراً لخارجي بين بني تميم الموجودين في خراسان ، وتفسير ذلك ان أفراد القبيلة الواحدة وان كانوا ينتمون جميعاً الى اصل قبلي واحد وان تباعدت بينهم الاماكن في مختلف انحاء الامبراطورية ، إلا ان ذلك لا يمنع اي بطن أو فئة من تلك القبيلة في أن تنظر في المقام الأول الى مصالحها في المكان الذي تقيم فيه .

ومع ان فهم الروابط القبلية ضروري جداً لفهم كل احداث تلك الأيام، ولكنها ـ أي تلك الروابط القبلية ـ لم تكن العامل الأول والفعال في خلافات الجماعة العربية الاسلامية ، تلك الخلافات التي تحولت على مر الأيام الى صراع حاد بين مختلف التجمعات القبلية ، تلك التجمعات التي تمثل احزاباً مختلفة تجسد المصالح المتضاربة للقبائل العربية . وقد كانت هناك ولا شك تحركات وثورات قبلية هنا وهناك ، وهذا أمر طبيعي . اذ لم يكن ينتظر من أبناء البادية العربية ان ينسوا بين ليلة وضحاها ما ورثوه عبر القرون من عصبيات قبلية ، لكن الخطأ الجسيم هو في ان ننظر الى تاريخ العرب في هذه الفترة من وجهة نظر العصبيات القبلية فقط . فالخصومات والتحالفات القبلية القديمة

لا تستطيع لوحدها ان تصمد امام الدراسة النقدية الصحيحة[1] فاسباب الحروب والمنازعات القبلية ودوافعها يجب التحري عنها في المصالح القبلية وليس في التحالفات أو العداوات الاسطورية بين تلك القبائل. وعلى ذلك فقد كانت لدى القبائل العربية في كل من خراسان والعراق نفس الاسباب الدافعة للثورة والتمرد وابرزها الرغبة في التخلص من الحكم المركزي. ولكن بسبب اختلاف الظروف التي تحيط بها في العراق عنها في خراسان، فقد اتخذت الثورة في البلدين شكلين مختلفين وسلكتا طريقين سياسيين متغايرين منذ البدء وحتى ظهور الثورة العباسية.

وما ان فرغ عبد الملك بن مروان من حرب الخوارج حتى التفت الى علاج أمر خراسان المضطربة احوالها. واذ اثبت واليه على العراق الحجاج بن يوسف نفسه انه رجل الملمات والازمات. لذلك لم يتأخر عبد الملك في ان يجعل خراسان جزءاً من ولاية العراق ويعهد بها الى الحجاج كما عهد اليه بأمر قسم صعب آخر هو سجستان وجعله جزءاً من ولايته ايضاً.

واذ اصبح الحجاج بن يوسف مسؤولاً عن اكثر من نصف الامبراطورية فمن الطبيعي ان يمنحه امير المؤمنين ثقته التامة وان يمنحه معها كذلك قدراً واسعاً من السلطة يمكنه من معالجة المشاكل المستعصية في هذين البلدين الخطرين.

وقد استمر الحجاج ايام عبد الملك (٦٥ – ٦٧٥/٨٦ – ٧٠٥) وأيام الوليد ابن عبد الملك (٨٦ – ٧٠٥/٩٦ – ٧١٥) والياً على العراق فقط منذ عام ٦٩٤/٧٥ حتى عام ٦٩٧/٧٨ ثم والياً على العراق والمشرق منذ عام ٧٨ حتى ٦٩٧ – ٧١٤ وسار في هذه البلاد على سياسة حازمة صارمة وعلى خطة التوسع في الغزوات والفتوح مستعيناً في هذا وذاك بالجند السوري حيثما يمكن ذلك وحينما تدعو الحاجة اليه.

وكان وجود جيش اهل الشام أو الجند السوري في العراق ضرورياً وممكناً

---

(١) فالهوزن ص ٣٩٦ – ٤١٣.

فقد جردت الكوفة والبصرة ، وهما حاميتا العراق من عساكرهما واستقر الجند السوري في مدينة واسط التي بناها الحجاج لهذا الغرض.

ومن الواضح ان الجند السوري لم يكن من الكثرة بحيث يكفي للانتشار في جميع انحاء الامبراطورية . وعلى كل فان تجريد مدينتي الكوفة والبصرة من العساكر ، والانتصار على الخوارج ترك للحجاج عدداً لا يستهان به من القبائل العربية في العراق الذين قرر الحجاج ان يبعث بهم لتوسيع الحملات في خراسان وسجستان .

وبالنسبة الى سجستان ، فلعل خطة مشابهة لخطة زياد بن ابي سفيان قد خطرت للحجاج على بال ، أي فكرة استقرار القبائل العربية هناك ، على احتمال ان يؤدي وجودهم واستقرارهم الى انتشار الاسلام الى زابلستان ومنها يزحف الى اعماق بلاد الهند .

لكن الحجاج لم يستطع ان يقدر مخاطر التعسكر في المناطق الجبلية شرق سجستان ، كما انه استخف بقوة الزنابلة في زابلستان ، وقد انتهت خططه كما سنرى الى كارثة كبرى شتتت شمل الجيش والى ثورة صاخبة هي ثورة ابن الاشعث .

اما بالنسبة الى خراسان ، فان الحجاج اختار المهلب بن ابي صفرة ، بطل حروب الخوارج ، وعينه عاملاً له على خراسان[1] ولم يخرج الحجاج في هذا التعيين عن السياسة المتبعة في تعيين القرشيين ولاة على العرب في خراسان فحسب بل وعمد ايضاً الى اختيار زعيم قبلي شهير ليكون عامله هناك ورئيساً لزعماء القبائل الاخرى .

ولعل الحجاج ظن ان مشكلة خراسان هي مشكلة تفوق تميم وانتشار نفوذها هناك مع صلابة موقفها وشدة شكيمتها ، فأراد ان يروضها بأن يوازي نفوذها بنفوذ قبيلة كبرى اخرى اثبتت منذ وقت قريب للملأ وجودها في ساحات الحروب وميادين القتال وضد تميم بالذات وتلك هي قبيلة الازد .

(١) الطبري ج ، ص ١٠٣٢ .

ومع ان المهلب كان زعيم الازد غير منازع ، فلم يكن كل اتباعه من الازد بل كانت الى جانبه ايضاً فئة كبيرة العدد من ربيعة[1] وليس في ما بين ايدينا من مصادر ما يساعدنا على ان نعرف اي بطون ربيعة كانت مع الازد ، لكن مصادر الاخبار تخص «تغلب» فقط بالذكر على انها من احلاف المهلب ثم تذكر بكر وربيعة عامة[2] . وقد يعني هذا ايضاً ان بطوناً ممن لا ينتمون الى بطني اخماس البصرة وهما بكر وعبد القيس[3] ربما وجدوا ان الادعاء بالانتماء الى الازد يسهل لهم السجل في الديوان والانخراط في جيش ابن المهلب .

ومن الطبيعي ان يرحب المهلب بمثل هؤلاء الاحلاف الذين يزيدون في ذيوع صيته وقوة جيشه وعلى هذا فقد اعتاد المهلب ان يقود أقواماً كثيرين من غير اهل عشيرته وهي كفاءة تحتاجها خراسان .

وبموارد العراق الوفيرة وسمعة الحجاج المهيبة امكن لابن المهلب ان يسيطر على القبائل العربية في خراسان سيطرة تامة كما استطاع ابن المهلب وهو القائد العسكري البارز ان يشن الحروب ويوسع الفتوح في اواسط آسيا فيشغل بها القبائل عن نفسها وخصوماتها .

وكان لضم المشرق الى ولاية العراق معنى آخر ، هو ضم ايراد خراسان وسجستان الى بيت المال في العراق ووضعها كلها تحت تصرف الحجاج وبالتالي القضاء على المشاكل الناجمة عن توزيع الدخل بين الولايات والحكومة المركزية اذ ترك الامر للحجاج يستخلص لنفسه قدر ما يريد من هذا الايراد .

وما ان وصل المهلب خراسان عام ٦٩٨/٧٩ حتى بدأ التجهيز لحملة كبيرة يشنها في ما وراء النهر . وكان قوام جيشه هم اتباعه الذين جاء بهم من العراق

---

(١) الاصفهاني، الاغاني. القاهرة ج ١٣ ص ٥٨ - ٥٩ وم ١٥ ص ٢٠ وم ١٩ ص ١٠٧ . الجاحظ : المحاسن والاضداد تحقيق فلوتين لايدن ١٨٩٨ ص ١٢ . التنوخي . المستجاد تحقيق محمد كرد علي في دمشق ١٩٢٤ ص ٢٠٦ ، الدينوري ص ٢٨٢ و ٢٨٨ .

(٢) الطبري ج ص ١٠٨٢ .

(٣) العلي - التنظيمات ج ص ٣٩ ، ٢٩٢ - ٢٩٥ .

ونفراً من القبائل العربية في خراسان وجماعة من سكان خراسان الاصليين وعلى رأسهم ثابت وحريث ولدا قطبة وهما من موالي خزاعة[١] .

في عام ٦٩٩/٨٠ اناب المهلب عنه في مرو ولده المغيرة وسار على رأس جيشه فعبر به نهر بلخ قرب زم ، وكان صاحبها قد اسلم على يد المهلب وصار في جيشه[٢] وعسكر حول كش من بلاد السغد وضرب عليها حصاراً دام سنتين كان خلالهما يبعث بابنائه في غزوات قصار في البلاد المجاورة لم تكن ذات نفع كبير[٣] وقد توفي ولده المغيرة عام ٧٠١/٨٢ فصالح أهل كش على فدية ورحل عنها يريد العودة الى مرو لكن المنية باغتته وهو قرب مرو الروذ[٤] .

وتصور الروايات العربية المهلب حزيناً جزعاً لموت ابنه المغيرة وتجعل حزنه هذا سبب انصرافه عن القتال وعودته الى مرو ، لكننا نستطيع من اشارة عابرة وردت في رواية المدائني ان نستشف ان السبب في عودة المهلب عن القتال هو وجود مؤامرة ضده في جيشه اتهم بها قوماً من مضر فحبسهم وقفل من كش[٥] وكان من اشهر المضريين المشاركين في هذه المؤامرة عبد الملك بن ابي شيخ القشيري ، والذي يحتمل انه كان بين زعماء القبائل العربية في سجستان الذين ثاروا اثر وفاة الخليفة يزيد عام ٦٨٣/٦٤ والذي يبدو لنا انه ارتحل بعد ذلك الى خراسان واقام فيها[٦] .

وفي نفس التاريخ قتل في معسكر المهلب في ما وراء النهر الزعيم التميمي البارز بحير بن الورقاء ثأراً لقتله بكير بن وشاح[٧] .

---

(١) الطبري ج ، ص ١٠٣٢ و ١٠٧٨ و١٠٨٠ .
(٢) كذا ص ١٠٧٨ .
(٣) جيب – الفتوح العربية ص ٢٥ . الطبري ج ٢ ص ١٠٤٠ اليعقوبي تاريخ ج ٢ ص ٣٣٠ البلاذري الفتوح ص ٤١٧ .
(٤) الطبري، ج ٢ ص ١٠٧٧ – ٨٢ .
(٥) كذا ص ١٠٨٠ .
(٦) تاريخ سهستان ص ١٠٤ والطبري ص ١٠٤٢ .
(٧) الطبري ج ٢ ص ١٠٥٠ .

كما واننا نعرف ان ثورة عاتية نشبت في سجستان عام ٨١/٧٠٠[1] بقيادة ابن الاشعث ضد الحجاج .

هذه كلها دلائل على عدم الاستقرار في جيش ابن المهلب وفي اقصى حدود ولايته ، وهي تكفي لاقناعه بالعودة الى مرو ليعيد تنظيم شؤونه الداخلية قبل ان يتورط في حملة بعيدة فيما وراء النهر .

وليس لدينا مع الاسف معلومات مفصلة عن هذه المؤامرة لكن ترديد اسم مضر فيها قد يساعد على القاء بعض الضوء على هذه القضية ، اذ ان هذا يعني وجود عمل مشترك بين قسمي مضر وهما تميم وقيس . فمن الممكن ان يكون نفر من قيس قد هفت قلوبهم الى نصرة ابن عمهم في الترمذ الذي وصلت اليه مؤخراً نجدة قيسية من ابناء عمومتهم في سجستان ، فحاولوا حين كانوا وراء النهر قرب الترمذ ان يثيروها فتنة ضد الوالي الجديد المهلب بن ابي صفرة نصرة لموسى بن عبد الله بن خازم الذي اصبح رمزاً بطولياً للمقاومة ضد الحكومة المركزية .

وقد يكون انضم الى هؤلاء النفر القيسين الناقمين نفر من تميم الذين أغاظهم قدوم هذا الوالي المحدث النعمة واتباعه الأقوياء ، واخافهم ان يقضي بوجوده على مركز تميم ونفوذها في خراسان[2] الذي بدأ بالتصدع بسبب الصراع بين قطبي تميم بكير وبحير .

لذلك لم يكن امام المهلب الذي احس بخطر هذه التحركات داخل جيشه وهو في ارض العدو الا ان يلقي القبض على رؤوس المؤامرة وان يعود الى قاعدته في مرو[3] .

ومما له دلالة في هذا الصدد ان المهلب كان خلال ولايته ابعد ما يكون

---

(١) كذا ص ١٠٥٤ — ١٠٥٩ .

(٢) الذهبي ج ٣ ص ١٢٢ .

(٣) الطبري ج ٢ ص ١٠٤٢ .

عن ان يقدم على عمل ضد موسى في الترمذ ، بل انه في سبيل ان يتلافى اللقاء مع هذا الثائر فقد تنكب طريق الترمذ وعبر السيحون من زم .

ولعل المهلب احس بشعور مضر في نصرة اخيها موسى وتأييده ، ولانه لم يكن قد استعد في خراسان تمام الاستعداد ، فقد فضل ان يتجنب هذه المشكلة بعض الوقت بدل من ان يؤلب ضده مشاعر هذه الجماعة اذا ما اقدم على مهاجمة الترمذ .

وقبل وفاته في عام ٨٢/٧٠٢ استخلف المهلب ابنه يزيد على ولاية خراسان وقد أقره الحجاج على ذلك[١] ولم يكن من المتوقع ان يكون بلاء يزيد في الحروب بلاء موثراً ، فقد ذكر المدائني انه غزا باذغيس حيث التقى نيزك الهيطلي[٢] كما ذكر البلاذرى انه غزا خوارزم ايضاً[٣] .

ولكن الاهم من هذا وذاك هو وصول فلول جيش ابن الاشعث في سجستان الى بلدة هرات ونجاحهم في الاستيلاء عليها . ولان يزيداً لم يكن واثقاً من ميول القبائل في خراسان فقد تباطأ في الحركة ضد هذا الخطر الجديد ولكنه قرر في النهاية ان يزحف على هرات حيث استطاع ان يطرد منها فلول جيش ابن الاشعث التي التحق غالبها بموسى بن خازم في الترمذ[٤] . وهكذا ، وبمرور الايام ، اصبح هذا الجيب الثائر خطراً حقيقياً متنامياً يهدد مركز الوالي في خراسان .

وكان موسى قد جمع خلال هذه المدة زهاء الـ ٨٠٠٠ رجل من العناصر الناقمة من جميع القبائل العربية[٥] كما والتحق به حريث بن قطبة واخوه ثابت اللذان قدر لهما ان يلعبا دوراً هاماً في احداث هذه الفترة بحيث يستحقان ان نفرد لهما مكاناً خاصاً في هذا البحث .

---

(١) كذا ص ١٠٨٢ .
(٢) كذا ص ١١٢٩ .
(٣) البلاذري، الفتوح ص ٤١٧ .
(٤) الطبري ج ٣ ص ١١٠٥ – ١٠ والبلاذري – الفتوح ص ٤١٧ .
(٥) الطبري ج ، ص ١١٥٢ .

٢ ـ ثابت وحريث ابنا قطبة : ممثلا تجار السغد في مرو

كان هذان الاخوان من موالي خزاعة[١] ولكن كان لهما ، رغم ذلك ، نفوذ واسع على بعض أفراد هذه القبيلة . بل وروى انه كان بين اتباعهما نفر من عرب خزاعة وهو امر في غاية الغرابة في تلك المرحلة المبكرة من تاريخ خراسان [٢] .

وقد ورد ذكر هذين الاخوين اول مرة كرؤساء في حملة أُمية الى ما وراء النهر عام ٦٩٦/٧٧ وكانا الى جانبه ايضاً في ثورة بكير . وقد تقدم بنا ان بكيراً لقي ثابتاً وأسره ثم أخلى سبيله ليد كانت لثابت على بكيْر ، كما يقول المدائني [٣] .

ثم اشترك الاخوان في حملة المهلب على كش عام ٦٩٩/٨٠ وحين رفع المهلب الحصار عنها وقفل عائداً يريد مرو ، خلف عليها حريث بن قطبة ليستوفي الفدية ثم يتبعه الى مرو . لكن حريث ـ لاسباب لم تذكرها مصادرنا ـ قد عجل الصلح مع ملك كش على شروط مرضية له فغضب عليه المهلب ، فلما قدم عليه حريث في بلخ وبخه واهانه وجلده فلم يطب للاخوين المقام بعد هذا مع المهلب « ففروا منه بثلاثماية من شاكريتهما (اي من اتباعهما أو جندهما الايرانيين) والمنقطعين اليهما من العرب » والتحقا بموسى بن عبد الله ابن خازم في الترمذ [٤] .

ولما خلف يزيد اباه في ولاية خراسان صادر اموالهما واساء معاملة أهليهما في مرو ، واذا اعتبرنا تصرف يزيد على انه انتقام طائش [٥] فمن الصعب ان نفهم تصرف المهلب نفسه ضد هذين الاخوين ذوي النفوذ الواسع وخاصة وان مثل هذا العمل لا يتفق وطباع المهلب كزعيم كبير .

---

(١) كذا ص ١٠٢٣ و ١٠٢٦ و ١٠٨٠ .
(٢) كذا ص ١١٥٥ و ١١٥٧ ـ ٨ .
(٣) كذا ص ١٠٢٣ ـ ٢٦ .
(٤) كذا ص ١٠٨٠ ـ ٢ و ١١٥٢ وبارتولد : تركستان ص ١٨٠ .
(٥) جيب ، الفتوح ص ٢٦ .

فلم يكن المهلب ذلك الرجل المتسرع أو السريع الغضب الذي قد يثير بتسرعه سخط السكان الايرانيين عليه. خاصة وان الموقف كان قد بلغ من الدقة حداً اضطر معه المهلب على إيقاف حملاته.

ومن الواضح ان نفوذ هذين الرجلين كان معدوماً في خراسان، وليس في مصادرنا ما يوحي بوجود نفوذ أو أتباع لهما بين الايرانيين او العرب في الولاية، ولذلك فالظاهر ان قتلهما بعدئذ لم يترك اثراً في خراسان.

ومن تتبع نشاط هذين الاخوين، وخاصة بعد التحاقهما بموسى، يظهر لنا جلياً ان مصلحتهما انما هي في بلاد ما وراء النهر وانهما – كما تكشف مصادرنا لنا ذلك – يتمتعان هناك من أهليها وأمرائها بالمحبة والثقة والنفوذ(1) وانهما كانا منهمكين في التجارة بين بلاد ما وراء النهر وخراسان حتى في اثناء قتالهم مع موسى في أخريات ايامهما(2).

واكثر من ذلك فقد كانا يحيطان انفسهما بالشاكرية (الحرس الايراني) على غرار أمراء بلاد السغد(3).

وقد اشرنا من قبل الى وجود فريق من التجار من اهل السغد في مرو ممن تولوا تمويل أمية الى ما وراء النهر وانه روى ان بكير واتباعه بخاصة «كانوا المستقرضين من هؤلاء التجار حين كان من المفروض ان يقود بكير حملة أمية الى ما وراء النهر»(4).

وكذلك فاننا نعلم ايضاً ان بكير يدين بيد سابقة لثابت عليه(5).

ولهذا كله فمن المحتمل ان يكون هذان الاخوان زعماء تجار السغد في مرو، فاذا صح هذا الافتراض كان من السهل جداً فهم السر في نشاطهما وهو رغبتهما في حفظ العلائق التجارية قائمة مستمرة بين بلاد السغد وخراسان.

---

(1) الطبري ص ١١٥٢.
(2) كذا ص ١١٥٧.
(3) كذا ص ١٠٨٢.
(4) كذا ص ١٠٢٢ – ٣.
(5) كذا ص ١٠٢٦.

وعلى هذا الاساس نفترض ان هذين الاخوين – مدفوعين بمصالحهما التجارية – قد ساعدا اولاً في تجهيز حملة عسكرية عربية لغزو بلاد ما وراء النهر ليعيدا نوعاً من العلاقات السلمية بين العرب وبين إمارات ما وراء النهر [1] تزدهر فيها التجارة وتنمو ، ثم انهما اشتركا بالحملات وخاصة حين بشر وصول المهلب بقيام حكومة قوية ثابتة في خراسان ، ولكنهما حين اكتشفا ان عناصر النقمة والاستياء تسود بين القبائل العربية وتهدد بالانفجار حتى في ميدان القتال ، آثرا سلوك خطة أخرى تضمن لهما استمرار تجارتهما وقد وجدا ان موسى في الترمذ قد استمر بنجاح في تحدي حكومات الولاة العرب في خراسان وان قوته تنمو وتتزايد وتنتشر ، لهذا فقد قررا ان يلتحقا به ليستغلاه لصالحهما .

وقد استعملا نفوذهما لدى أمراء ما وراء النهر فاستطاعا ان يكوّنا تحالفاً بين موسى من جهة وبين أمراء بخارى وسمرقند والصغانيان والختل من جهة ثانية ، كما انضم الى هذا الحلف نيزك امير باذغيس الهيطلي ليقوي مركزه ضد العرب في خراسان [2] .

وقد حاولا اقناع موسى باخراج يزيد بن المهلب من خراسان ، لكن بسبب نفور رجال موسى من الانضمام تحت لواء المشركين صراحة لمحاربة بني قومهم ودينهم ، فقد اتفقا على تكوين إمارة عربية في الترمذ تحت رئاسة موسى تقوم بحماية طرق التجارة وتصد في الوقت نفسه هجمات العرب على ما وراء النهر. وفي مقابل هذه الخدمات فقد تعهدت الامارات المتحالفة ان تدفع الى موسى ما كانت تدفعه الى يزيد والى خراسان من اموال وضرائب . لكن اصحاب موسى الذين لم يعجبهم التحالف مع اهل الشرك ألحّوا عليه في الخروج على حريث وثابت الفكرين المدبرين لهذا التحالف والتخلص منهما « واختلفوا في هذا الامر حتى – كما يقول المدائني – اضطرب أمرهم » [3] .

---

(١) انظر ص ٩٧ من هذا الكتاب .

(٢) الطبري ج ٢ ص ١١٥٢ – ٣ .

(٣) كذا ص ١١٥٣ .

وادرك الحلفاء ضعف تحالفهم فوثب بعضهم على بعض فهاجم أمراء ما وراء النهر موسى ولكنه استطاع ان يردهم على اعقابهم وقد جرح في المعركة حريث بن قطبة ثم مات بعد ذلك بيومين[١] .

وقد قوى هذا الهجوم ظنون انصار موسى في الحريث وثابت اخيه ، وشكوكهم فيهما ، فالتفتوا الآن الى ثابت يريدون الخلاص منه مما اضطره الى الفرار الى حضن حاشورا حيث انضم اليه اتباعه من العجم – لعلهم شاكريته – والعرب [٢] .

وكان لثابت مركز قوي بين خزاعة خراسان الذين ايدوه وناصروه في هذه الفترة [٣] ولكن يجدر بنا ان نلاحظ ان هناك فئة من هذه القبيلة تقاتل اخوانها الى جانب موسى وكان هؤلاء الخزاعيون انصار موسى من الوافدين الجدد من خراسان ومن فلول جيش ابن الاشعث [٤] وهذا مثال بارز على اختلاف المصالح بين افراد القبيلة الواحدة وبالتالي ضعف الشعور بالولاء القبلي بين العرب المقيمين في خراسان . ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان ابا مسلم الخراساني حين جاء خراسان بعد اربعين عاماً من هذا التاريخ ، كانت خزاعة اول من سنده في بدء حركته[٥] .

وأحس ثابت بالوحدة والانعزال ضد موسى ، فاستنجد بأصدقائه أمراء ما وراء النهر فأحاطوا بموسى في الشرق من جميع الجهات[٦] .

ويروي المدائني قصة طريفة هي محاولة ثابت ان يرشي بعض اتباع موسى بالنقود التي كان يستلمها من تجارته مع بلخ التي كانت ما تزال مزدهرة حتى

(١) كذا ص ١١٥٤ .
(٢) كذا ص ١١٥٥ فالهاوزن ص ٤٢٥ .
(٣) الطبري ص ١١٥٥ و١١٥٧ – ١١٥٨ .
(٤) كذا ص ١١٥٨ .
(٥) كذا ص ١١٥٣ – ٤ .
(٦) كذا ص ١١٥٦ – ٩ .

ذلك الوقت [1] . وهو مثل واضح عن التفكير التجاري الذي يزن جيداً قوة خصمه وثمنه .

وقد اغتيل ثابت اثناء حصار الترمذ ، بيد احد انصار موسى فانتقلت قيادة الحرب ضد موسى الى طرخون امير سمرقند رغم ان شاكرية ثابت انفسهم كانوا تحت قيادة عربي اسمه ظهير [2] .

وقد اعلن نوع من الهدنة بين موسى وخصومه ، ورجع كل قوم الى بلادهم بما في ذلك شاكرية ثابت [3] وكان ذلك قبل ان يستدعي الحجاج يزيداً بوقت قليل . وقد كان يزيد والي خراسان أعجز من ان يلعب أي دور في هذه الاحداث ، ولربما كان مرد عجزه الى وصول انصار ابن الاشعث الى هرات ، ولكن الارجح ان سبب عجزه هو وضعه الدقيق نتيجة موقف مضرية خراسان منه ، وكان اظهر ما يكون عجزه حين عجز عن اتخاذ اجراء معين أمره به الحجاج نفسه ضد بطن من بطون تميم هم بنو الاهتم نهضوا يقاومون الوالي يزيد نفسه [4] .

٣ – المفضل بن المهلب : وال انتقالي

ادرك الحجاج الآن ان سياسته في إرسال المهلب وبنيه واتباعه الى خراسان قد أدت الى نفرة المضرية منه كما أدت الى زيادة التحالف بين قيس وتميم في خراسان . لذلك رأى من واجبه ان يسرع بتغيير هذه السياسة وان يختار والياً جديداً ترضى عنه مضر ويستطيع في الوقت نفسه ان ينفذ له سياسته في خراسان . وقد وجد الحجاج ضالته هذه في قتيبة بن مسلم ، فقد كان قتيبة قيسياً وفي ذلك إرضاء لمضر ولكنه من بطن من اضعف بطن قيس واقلها شأناً وهو باهلة . وعليه فلم يكن ليستطيع الاعتماد على تأييد قبلي وانما عليه

---

(١) كذا ص ١١٥٦ – ٧ .
(٢) كذا ص ١١٥٨ – ٩ .
(٣) كذا ص ١١٦٠ .
(٤) كذا ص ١١٦١ والاغاني ج ١٣ ص ٦١ .

ان يعتمد في التأييد ويستمده من السلطة المركزية ، كما ان هذا التعيين وان ارغم قيساً ومضراً على السكوت والرضى به ، فانه لم يكن بأي حال من الأحوال نصراً لقيس ومضر لانه لم يذهب الى واحد من زعمائهما البارزين .

ولكن الحجاج لم يشأ أن يثير ضده آل المهلب وانصارهم فأقدم على خطوة بارعة لارضائهم بنقل ولاية خراسان من يزيد الى اضعف اخوته المفضل . ويبدو ان يزيد لم يعارض في عمل الحجاج هذا بل يقال انه ابدى الطاعة والتأييد [1] .

وقد ظل المفضل في ولايته تسعة اشهر من عام ٧٠٤/٨٥ استطاع خلالها ان يحقق ما لم يستطع ابوه واخوه تحقيقه من قبل وهو القضاء على ثورة موسى في الترمذ .

وقد يبدو الامر غريباً بعض الشيء ، فان الاوضاع في خراسان لم تتبدل تبدلاً كبيراً يبرر الاقدام على مثل هذا العمل أو يشجع عليه سوى ان وضع موسى قد ضعف غاية الضعف والوهن .

ولعل المفضل اراد ان يبرز للحجاج شخصيته ويحظى برضاه ، فأقدم على قتال موسى ، وارسل لحربه جيشاً لجباً بقيادة عثمان بن مسعود وهو من بني الاهثم من بني تميم ، وقد مر بنا ان هذا البطن من تميم كان من العناصر المعادية للحكم المركزي [2] ومعنى ذلك ان المفضل اختار اشد من يخشاه من القبائل لمحاربة موسى الذي لم يعد لضعف مركزه كما كان محط انظار القبائل المتمردة ومحل إعجابها .

وكتب المفضل الى اخيه مدرك وهو ببلخ ان يسير مع جيش ابن مسعود كما أمر منادياً فنادى في مدينة مرو بأن « من لحق جيش ابن مسعود فله ديوان » [3] .

ولا توضح لنا الرواية ما اذا كان المقصود هو اقناع العرب ام الايرانيين

---

(١) الطبري ج ، ص ١١٤١ – ٤ .

(٢) كذا ص ١١٦١ والبلاذري – الفتوح ص ٤١٩ وانظر ما قبله ص ١١٦ .

(٣) الطبري ص ١١٦١ – ٢ .

المسلمين للالتحاق بالجيش ، ولكن حيث ان من الصعب ان نتصور عربياً في خراسان غير مسجل في الديوان ، لذا فينصرف هدف هذا النداء الى اقناع المسلمين من غير العرب للالتحاق بالجيش العربي .

ونزل ابن مسعود ومدرك بالجيش في الترمذ ، واتفقا مع ملوك ما وراء النهر ضد موسى فحصروه وضيقوا عليه وعلى اصحابه حتّى غلب على أمره وقتل في ساحة المعركة [١] ويقال ان عثمان بن مسعود امر بكل الاسرى العرب من اصحاب موسى فقتلوا ولم يسلم منهم احد في حين اخلى سبيل من كان في القلعة من انصار موسى من غير العرب . ويبدو ان في هذا الخبر مبالغة من جانب الرواة [٢] .

ويعود الى المفضل فضل حملتين أُخريين احدهما ضد باذغيس والثانية ضد شومان وآخرون . ولكن لقصر مدة حكمه فان هاتين الحملتين لم تكونا – ان وقعتا فعلاً – إلا غزوتين عابرتين [٣] .

ومن اشارة في خبر هذه الحملات نعلم ان المفضل لم يكن له بيت مال « وانه كان يعطي الناس ما جاءه من شيء وان غنم شيئاً قسّمه بينهم » [٤] .

ويبدو وكأن الحجاج لم يستطع ان يستخلص لنفسه من اموال خراسان طيلة ولاية المهلب وابنيه عليها شيئاً ذا بال غير خمس الغنائم – كما يقول ابن اعثم – وكان هذا ايراداً قليلاً لندرة الحروب [٥] .

اما رواية الطبري من ان الحجاج حبس يزيد بن المهلب واخوته وأغرمهم ستة آلاف الف درهم . فهي ولا شك رواية موضوعة في بعضها ومبالغ في باقيها مبالغة كبيرة خاصة وان اصلها الازدي واضح في رواية الطبري هذه [٦] .

---

(١) كذا ص ١١٦٢ – ١٣ ، والبلاذري ، الفتوح ص ٤١٩ وجيب ، الفتوح العربية ص ٢٧ .
(٢) الطبري ص ١١٦٣ .
(٣) كذا ص ١١٤٤ والبلاذري الفتوح ص ٤١٧ .
(٤) الطبري ص ١١٤٤ وابن الاثير – الكامل . ج ٤ ص ٤٠٢ .
(٥) ابن الأعثم فتوح ج ٢ ص ٩٠ آ .
(٦) الطبري ج ، ص ١٢٠٨ .

ولعل القصد من وضع امثال هذه الروايات كان خلق خلفية تبرر ثورة يزيد بعد وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز . وعلى كل حال ، وحتى بالنسبة الى هذه الروايات فان هذا الحبس لم يقع إلا قبل وفاة الحجاج (عام ٩٥/ ٧١٤) [١] بوقت قليل جداً ولعله كان جزءاً من سياسة شاملة للحجاج لقمع حركة المعارضة ضده [٢] .

وليس في مصادرنا ما يفيد ان المهلب او احد ولديه حاولوا اسكان أي من القبائل العربية في أي مكان آخر في خراسان ، فقد ظلت مرو ، بما في ذلك المدينة نفسها ــ هي القاعدة العسكرية وقد سمعنا ايضاً بوجود حاميتين صغيرتين عسكرتا لاغراض الدفاع في بلخ وهرات .

وكان جيش المهلب عربياً صرفاً ما عدا فئة قليلة من انصار حريث بن قطبة . لكن تركيب هذا الجيش اختلف بعد دخول المهلب الى زم ، اذ دعى المهلب اميرها وجيشه الى الالتحاق بالجيش العربي [٣] وكذلك فعل المفضل اذ دعى الموالي في مرو للالتحاق بجيشه مقابل تسجيلهم في الديوان [٤] وهذا يعني استلامهم العطاء الذي كان من قبل امتيازاً خاصاً بالعرب فقط .

٤ ــ قتيبة بن مسلم : من بناة الامبراطورية

رغم النجاح الذي اصابه المفضل في حرب موسى بالترمذ فقد كان الحجاج مصمماً على تغيير سياسته في خراسان . ولم يكن ــ ولعله على حق ــ ليطمئن الى بني المهلب لتنفيذ سياسته الجديدة . ولهذا فقد عزل المفضل وبعث خلفاً له صاحبه قتيبة بن مسلم الذي طالت ولايته على خراسان عشر سنوات (٨٦ ــ ٩٦/٧٠٥ ــ ٧١٥) وكان عهده من أبرز العهود في تاريخ خراسان في العهد الاموي .

---

(١) كذا ص ١٢١٧ .
(٢) انظر ص ١٤٣ من هذا الكتاب .
(٣) الطبري ص ١٠٧٨ .
(٤) كذا ١١٦١ .

وقـد تميز هذا العهـد من الناحيتين العسكرية والادارية ، ومع هذا فان التطورات اللاحقة التي حدثت في خراسان تركت شكاً كبيراً فيما اذا كانت هذه السياسة التي أجاد وضعها الحجاج واخلص في تنفيذها قتيبة كانت بالضرورة هي السياسة المثلى او الاحسن .

وحيث ان حروب قتيبة قد شرحها البروفسور جيب [١] فلا ضرورة لتكرار القول فيها على اننا سنعنى هنا بشرح طريقة تنظيمه الاداري للمقاطعة والذي مكنه من ان يحقق في ميادين القتال ما عجز عنه غيره من ولاة بني أمية في خراسان .

فحين وصل قتيبة خراسان عام ٧٠٥/٨٦ لم يصطحب معه أية قوات عسكرية جديدة من العراق[٢] لكننا نعلم ان المقاتلين العرب في خراسان قد بلغ عند نهاية ولايته عام ٧١٥/٩٦ حوالي ٤٧ الف رجل موزعين كما يلي :

من البصرة :	اهل العالية	٩٠٠٠
	بكر	٧٠٠٠
	تميم	١٠٠٠٠
	عبد قيس	٤٠٠٠
	الازد	١٠٠٠٠
ومن الكوفة :		٧٠٠٠ [٣]

لكننا نعلم ايضاً ان جيشاً كوفياً بقيادة جهم بن زحر الجعفي التحق به عام ٧١٤/٩٥ [٤] وكان هذا الجيش قد انسحب من الهند بأمر الحجاج ، ولا بد انه كوّن غالبية السبعة آلاف كوفي الذين كانوا ضمن مقاتلته عام ٥١٥/٩٦

(١) جيب ، الفتوح العربية ص ٢٩ – ٥٧ .

(٢) الطبري ج ، ص ١١٧٨ – ٩ .

(٣) كذا ص ١٢٩٠ . وابن اعثم – الفتوح ج ٢ ص ١٥١ ب .

(٤) الطبري ص ١٢٥٧ و ١٢٩٠ .

والذين سبق ذكرهم، كما ان الحجاج أمده بجيش آخر من العراق عام ٧١٤/٩٥[١] وكل هذا يعني ان عدد افراد القبائل العربية في خراسان كان حين وصول قتيبة اليها اقل من ٤٧ الف رجل.

وقد عمد قتيبة منذ أول توليه الحكم الى استخدام سكان البلاد الاصليين في البلاد المفتوحة لتقوية جيشه، فقد جاء في الاخبار انه قد «تلقاه دهاقين بلخ وبعض عظمائهم فساروا معه» وذلك في حملته الاولى على ما وراء النهر اول وصوله خراسان عام ٧٠٥/٨٦. وقد امنت له هذه الحملة الطريق للحملات الاخرى فيما وراء النهر حيث جاءه ملك الصغانيان وملك آخرون وشومان وملك كفتان [٢] وسلموا له بلادهم واظهروا له الطاعة والولاء. ومن المحتمل انه استطاع ان يقمع تمرداً صغيراً في بلخ ثم عاد الى مرو تاركاً الجيش وراءه ليقوم بغزوات صغيرة[٣].

وكان القصد من الاسراع بعودته الى مرو هو رغبته في إعادة تنظيم القبائل العربية في خراسان على غرار تنظيمات البصرة التي احتذاها مثالاً، فقسم القبائل اخماساً هي الازد وتميم واهل العالية وبكر وعبد قيس، وهذه هي المرة الاولى التي نسمع فيها بمثل هذا التقسيم في خراسان [٤].

ثم صالح قتيبة نيزك الهيطلي امير باذغيس على ان يشترك مع المسلمين في حربهم القادمة ٧٨ – ٧١٦/٩٠ – ٧١٩ ضد بخارى وقد اشتهر نيزك في الشجاعة والاقدام في الحرب الى جانب المسلمين [٥].

---

(١) كذا ١٢٦٧.

(٢) كذا ص ١١٨ والبلاذري الفتوح ٤١٩.

(٣) جيب – الفتوح العربية ص ٣١ – ٣٢ والبلاذري الفتوح ص ٤١٩ والطبري ج ٢ ص ١١٨٠ – ١١٨١.

(٤) الطبري ج ٢ ص ١٢٠٢ و ١٢٥٤ وصالح العلي – التنظيمات ص ٣٤ – ٤٢ و ٢٨٧ – ٢٩٥.

(٥) الطبري ص ١١٨٤ و ١١٩٥ و ١٢٠٤. البلاذري الفتوح ص ٤٢٠ واليعقوبي – التاريخ ج ٢ ص ٣٤٢.

وفي هذه الحملات ٨٧ – ٧١٦/٩٠ – ٧١٩ ركز قتيبة هجماته على واحة بخارى ، وقد فتح الله على المسلمين بغنائم لم يسمع بمثلها ، وخاصة في مدينة بيكند – مركز التجارة الصينية – ثم تكللت الحملة بفتح مدينة بخارى نفسها على يد قتيبة على صلح ٢٠٠ الف درهم وترك العرب حامية في قلعتها [١] .

ولم يقتصر قتيبة في هذه الحملات على الحصول على تأييد نيزك فحسب ، بل سعى الى الحصول على خدمات حيان النبطي واتباعه [٢] وكان حيان رجلاً ذا خطر ونفوذ وقد ظل ذا مركز مرموق في حملات قتيبة طيلة مدة ولايته في خراسان ويبدو انه كان يقوم بدور المفاوض مع الامراء الاتراك وخاصة منهم الصغانيان [٣] .

ولم تهتم المصادر التاريخية بتحديد عدد اتباع حيان الا مرة واحدة في عام ٧١٥/٩٦ اذ قيل انهم كانوا سبعة آلاف من الموالي من مقاتلة خراسان[٤] ، وهذا يبيح لنا ان نستنتج ان هذا هو عدد الايرانيين الذين اسلموا وادرجت اسماؤهم في الديوان ليتسلموا اعطيات المقاتلة .

وكان المفضل قد بدأ هذه الخطة في مرو ويبدو ان قتيبة قد استمر على الاخذ بها وربما مضى بها الى ابعد من ذلك فاشترط على كل مقاطعة في خراسان ان تجهزه بعدد معين من الرجال ليلتحقوا بحملات الجيش العربي في الربيع ويعودوا الى اهليهم في الشتاء ، وليس من الضروري ان يكون هؤلاء من المسجلين في الديوان، اذ من الواضح انه لم يكن يشترط فيهم ان يكونوا ممن اسلموا ، وان عدم اسلامهم يبرر بما فيه الكفاية عدم ادراجهم في الديوان .

---

(١) الطبري ص ١١٨٨ – ٩ . البلاذري الفتوح ص ٤٢٠ . ابن الأعثم الفتوح ج ٢ ص ١٣٥ ب .

(٢) الطبري ج ٢ ص ١٢٠٤ .

(٣) الطبري ص ١٢٠٤ واليعقوبي ، التاريخ ج ٢ ص ٣٤٢ والبلاذري الفتوح ص ٣٣٧ .

(٤) الطبري ١٢٩١ – ٢ .

وكما سنرى بعد قليل ، فان قتيبة سرعان ما طبق هذه الخطة على سمرقند وبخارى ، وقد أعلمنا المدائني ان قتيبة حين عاد الى مرو بعد فتح بخارى عام ٧٠٩/٩٠ فانه ترك هناك حامية عربية وسرح بقية جيشه اثناء الشتاء حتى انه اذا احتاج الى جمعه في الربيع « كتب الى ابرشهر وبيورد وسرخس واهل هرات ليقدموا قبل اوانهم الذي كانوا يقدمون فيه »[١] . ومع ذلك فقد استطاع في شتاء نفس العام ان يجمع من مرو وحدها زهاء اثني عشر الف رجل بعثهم مع اخيه عبدالرحمن ليعسكروا في بلخ[٢] .

كل هذه الدلائل تنتهي بنا الى الاعتقاد بان عدد الرجال المجندين في خراسان للمشاركة في حروب قتيبة كان اكثر بكثير من السبعة آلاف من الموالي التي تذكرها مصادرنا[٣] وكان الدافع الذي اضطر قتيبة الى جمع اثني عشر الفاً وإرسالهم على وجه السرعة الى بلخ عام ٧٠٩/٩٠ هو ظهور بوادر تمرد عند الامراء الهياطلة في مناطق جوزجان بما فيها الطالقان والفارياب يقودها نيزك ويؤيدها اصبهذ بلخ وباذام دهقان مرو الروذ[٤] .

وبعد ان لخص البروفسور جيب اسباب هذا التمرد كما أوردته المصادر العربية انتهى الى القول « ان نيزك قد ادرك مؤخراً ان عليه ان يقلع عن أي أمل في إعادة استقلال بلاده عن العرب اذا ما سمح للحكم العربي في خراسان ان يقوى ، ولربما اخطأ نيزك الحساب فعد رغبة قتيبة في تحقيق اهدافه سلماً وبالطرق الدبلوماسية ، دليلاً على ضعف الحكم العربي ، فاغتنمها فرصة اخيرة وقرر ان يضرب ضربته المباغتة للاطاحة بالحكم العربي في طخارستان السفلى في وقت لا يتوقع احد قيام مثل هذه الحركة فيه »[٥] ولربما شجع الامراء الهياطلة

---

(١) كذا ص ١٢٠٦ – ٧ .

(٢) كذا ص ١٢٠٧ .

(٣) ابن الاعثم – الفتوح . ج ٢ ص ١٤١ ب .

(٤) الطبري ج ٢ ص ١٢٠٦ ابن الأعثم الفتوح ج ٢ ص ١٣٨ ب اليعقوبي التاريخ ج ٢ ص ٣٤٢ .

(٥) جيب الفتوح العربية ص ٣٦ .

على الثورة بوجه العرب في هذا الوقت بالذات النجاح الذي أحرزه ضد العرب اخوانهم في الجنوب بقيادة زنبيل. وقد قرر نيزك - كما يشير المدائني - ان يطلب من زنبيل المساعدة في ثورته ضد قتيبة [1] وهذا يفسر السبب في سير قتيبة نحو زنبيل في حملته التالية. كما اضطر نيزك جغبويه ملك طخارستان - وكان ضعيفاً - ان ينضم اليه في محاولة لجمع كل ملوك وأمراء طخارستان في معركة موحدة للقيام بوجه العرب في محاولة لاستعادة استقلال بلادهم [2].

لكن خطة نيزك لاعلان الثورة في عام ٧٠١/٩١ باءت بالفشل بسبب سرعة حركة قتيبة في إرسال الاثني عشر الف رجل من مرو الى بلخ. ولهذا فلما زحف قتيبة على الثوار لم يجد امامه احداً منهم فتقدم الى مرو الروذ ففر دهقانها باذام الى الطالقان فلحقه اليها قتيبة [3]، وهنا تختلط الروايات اختلاطاً كبيراً [4] وعلى كل فان قتيبة لم يلق مقاومة في الطالقان وكذلك كان الامر في الفارياب وبلخ.

ومن بلخ وردت قتيبة امدادات جديدة فاستطاع ان يتعقب نيزك حتى ظفر به، وقد ساعد سليم الناصح، وهو من موالي خراسان، في استسلام نيزك الى قتيبة الذي وعد ان يعفو عن الامير الثائر الفاشل ولكن قتيبة لم يجد بداً من قتله تنفيذاً لاوامر الحجاج فقتله وسبعماية من انصاره معه [5] وعفا عن جغبويه ملك طخارستان وبعث به الى الشام رهينة ثمينة او رمزاً بارزاً للانتصار العظيم [6].

ولا بد للمرء من ان يوافق البروفسور جيب في قوله بأن « نتائج هذه الحملة كانت على جانب عظيم من الاهمية للعرب ليس لان خطط نيزك في الانفصال

---

(١) الطبري ج ٢ ص ١٢٠٦.
(٢) جيب، الفتوح العربية ص ٣٧ الطبري ص ١٢٠٦.
(٣) اليعقوبي، التاريخ ج ٢ ص ٣٤٢. الطبري ص ١٢١٨.
(٤) جيب: الفتوح العربية ص ٣٧.
(٥) الطبري ص ١٢٢٠ - ٤.
(٦) كذا ١٢٢٥.

قد باءت في الفشل وقضي عليها ، وان طخارستان السفلى اندمجت في الامبراطورية العربية فحسب بل وايضاً لان سيطرة العرب امتدت ولأول مرة الى بلاد جبغويه وتوابعها في حوض نهر السيحون »[1] .

ولم يكن هناك دلائل على أي تغيير في ادارة المنطقة سوى تعيين ممثلين عرب الى جانب الامراء المحليين الذين تركوا في مناصبهم الادارية [2] ومما يجدر التنبيه عليه في هذا المقام هو ان معسكر قتيبة وكتيبته في بلخ لم يكونا داخل المدينة وانما في قرية البروقان القريبة من المدينة [3] .

وفي نفس هذا العام (٧١٠/٩١) كتب على قتيبة ان يواجه انتفاضة اخرى في شومان وقد استطاع ان يمحقها وان يتقدم بعدها الى الباب الحديد في بلاد السغد حيث جاز منها الى كش ونسف ففتحهما ثم تقدم الى بخارى حيث اتخذ قراراً حاسماً بانشاء مستعمرة عسكرية فيها ، وقد حدث في بخارى مثل ما حدث في مرو من قبل اذ سكن العرب في بيوت اهل بخارى [4] .

وقد وجهت حملة عام ٧١١/٩٢ ضد زنبيل في سجستان بناء على اوامر الحجاج [5] ، فقد كانت سجستان من ضمن اعمال الحجاج ولكنها كانت بالنسبة له مشكلة مستعصية على الحل ، فقد بعث لها في عام ٦٩٧/٧٨ حملة بقيادة عبيد الله بن ابي بكرة بقصد القضاء التام على زنبيل ، لكن ما حدث كان على العكس تماماً فقد فشلت الحملة واستطاع زنبيل ان يقضي عليها ويشتت شملها ويقتل غالب افرادها « فمات قائدها كمداً لما نال الناس واصابهم » [6] .

---

(١) جيب . المصدر السابق ص ٨١ .

(٢) الطبري ص ١٢١٨ – ١٩ .

(٣) كذا ص ١٢٠٦ – ٧ .

(٤) جيب ، الفتوح العربية ٣٨ – ٣٩ ، بارثولد : تركستان ص ١٨٥ ، نرشخي: تاريخ بخارى، ترجمه . ر . ن . فري ١٩٥٤ ص ٥٣ . الطبري ج ٢ ص ١٢٢٨ – ١٢٣٠ .

(٥) اليعقوبي – التاريخ ج ٢ ص ٣٤٣ .

(٦) الطبري ص ١٠٣٦ – ٩ و ١٠٤٦ والبلاذري فتوح ص ٣٩٩ .

وكانت نكسة العرب هذه تتطلب عملاً حازماً سريعاً اذا ما اريد لهيبة العرب في خراسان البقاء ولخطط الحجاج في المشرق النجاح ، ولذا فقد بادر الحجاج بما عرف عنه من الحزم والعزم بتجهيز جيش جديد اكبر عدداً من الاول حتّى قيل ان تعداده بلغ الاربعين الف رجل من اهل البصرة والكوفة ، وكان يدعى جيش الطواويس وجعلت قيادته الى عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث وامره بالخروج الى رتبيل .

ولم يدخر الحجاج في سبيل هذا الجيش مالاً فجهزه بالخيول الروائع والسلاح الكامل ، وفي هذا ما يبرر تسميته بجيش الطواويس وان كانت التسمية قد تعني ايضاً وجود الكثيرين من الشجعان الصناديد الفخورين بانفسهم في ذلك الجيش .

وكان الحجاج في هذا الوقت قد اتم تجريد مدينتي الكوفة والبصرة من العسكر ، ورأى ان احسن سبيل لاستقرار العراق وهدوئه هو إرسال افراد القبائل القدامى في الكوفة والبصرة الى سجستان واقناعهم تدريجياً بالمكوث والتوطن هناك . وكان الكثيرون من هؤلاء من أبناء أو أحفاد اشراف ومؤسسي هذين المصريين الذين لم تعجبهم سياسة الحجاج في المركزية كما لم يعجبهم قراره في ابقاء الجند السوري في العراق على الدوام ، وحتّى ابن الاشعث ، قائد الجيش نفسه فقد كان حفيد الاشعث بن قيس الكندي الذي كان بلا نزاع من اقوى رؤساء القبائل في الكوفة واشهرها اسماً واجلّها رأياً ، لذلك فقد رأى الحجاج ان التخلص من وجود هذه العناصر القومية المدلة باحسابها وتاريخها في العراق يخدم غرضين اثنين هما نشر الاستقرار في القطر العراقي ودفع العرب الى المزيد من الفتوح في المشرق .

وما ان وصل جيش الطواويس الى سجستان في ربيع عام ٦٦٩/٧٩ حتّى تقدم شرقاً الى زابلستان وحقق بعض الانتصارات ضد رتبيل ، ولكن ما ان اكتشف ابن الاشعث ورجاله صعوبة الحركات في هذه البلاد المعادية حتّى بدأوا يعيدون النظر في موقفهم ، وفي هذا الوقت بالذات اظهر الحجاج ما

خفي من عزمه على إبقائهم بصفة دائمة في تلك البلاد النائية . ولعل رجال جيش الطواويس كانوا يظنون ان غيابهم في الحرب لن يطول إلا مدة الربيع والصيف وانهم عائدون الى اهليهم في البصرة والكوفة في اول الشتاء ، كما هو المألوف في غزوات المسلمين . لكن اوامر الحجاج ظلت تترى على ابن الاشعث بلزوم « المضي في الحرب والوغول في ارض زنبيل وان يقيموا فيها حتى يفتحها الله فإنها دارهم » .

وقد فهم الاشعث وصحبه هذه الاوامر على حقيقتها وهي الحكم عليهم بالبقاء في سجستان الى الابد [١] لذلك فقد قرروا الثورة على الحجاج والسير لحربه نحو العراق . إلا أن الجيش السوري المقيم في العراق التقاهم وقضى عليهم فتشتت شملهم وفرت فلولهم شرقاً واختفت في البلاد والدساكر ولجأ ابن الأشعث الى زنبيل نفسه حيث ظل عنده الى ان مات عام ٧٠٤/٨٥ [٢]. وبعد وفاة ابن الاشعث صالح الحجاج زنبيل « على الا يغزوه سبع سنين على ان يؤدي في كل سنة تسعماية الف درهم عروضاً » [٣] ، وقد ورد في الاغاني ان سبعمائة نفر من تميم اثروا البقاء في سجستان في ذلك الوقت [٤] .

ويقول البلاذرى انه « لما ولى قتيبة بن مسلم الباهلي خراسان وسجستان ولى أخاه عمرو سجستان فطلب الصلح من زنبيل « دارهم مدرهمة » فذكر انه لا يمكنه ذلك « إلا ما كان قد فارق الحجاج عليه من العروض » . فكتب عمرو بذلك الى اخيه فسار قتيبة الى سجستان [٥] » .

وكان الدافع ايضاً الى اسراع قتيبة بالزحف في هذا الوقت بالذات هو رغبته في القضاء على احتمال وصول أي مدد من الامارات الهيطيلية الجنوبية

---

(١) الطبري ج ٢ ص ١٠٥٤ .

(٢) الطبري ص ١٠٤٢ – ١٠٧٧ ، ابن الأعثم الفتوح ج ٢ ص ٩٨ آ و١١٣ آ وانظر ايضاً فلهاوزن ص ٢٣٤ – ٩ ، بوزورث ص ٥٢ – ٦٣ .

(٣) البلاذري الفتوح ص ٤٠٠ .

(٤) الاغاني ج ١٩ ص ١٥٦ .

(٥) البلاذري – الفتوح ص ٤٠٠ .

الى اخوتهم في الشمال مما قد يشجعهم على الخروج على سلطان العرب. وعلى كل حال فقد دهش زنبيل لهذه الحملة المباغتة واخافته شهرة قتيبة بالحرب والبطش فتلقته رسله بالصلح فقبل قتيبة ذلك وانصرف عائداً الى مرو بعد ان استخلف في سجستان ابا عبد الله بن عمير الليثي اخا عبد الله بن عامر لأمه نائباً عنه هناك[1].

وكانت حملة قتيبة هذه آخر ما سجله التاريخ من حملات ضد زنبيل فيما تبقى من حكم بني أمية. فلم تشهد الايام المتبقية من حكم الامويين حملة أخرى ضد زنبيل رغم انه نكث الصلح وتوقف عن دفع الفدية للعرب [2].

وفي السنوات التالية حتى نهاية ولاية عام ٧١٥/٩٦ عاد قتيبة فركز اهتمامه من جديد على بلاد ما وراء النهر، حيث تغلغل هناك حتى وصل فرغانة. وكان قتيبة قد احتل عام ٧١٢/٩٣ خوارزم بحجة مساعدة ملكها الضعيف ضد أخيه الثائر عليه وترك فيها حامية عربية [3]. وفي طريق عودته وجد الفرصة سانحة للاستيلاء على سمرقند على حين غرة رغم انه قد عقد صلحاً مع أميرها بعد فتح بخارى. وعلى كل حال فقد هاجم المدينة ودخلها عنوة وفرض على أهلها صلحاً جديداً [4] ولما اقام العرب حامية عسكرية في قلعة المدينة، تركها اميرها غورك وتجارها وبنوا لهم مدينة جديدة الى الشمال من سمرقند اسموها فرنكث [5]. وقد اشار البروفسور جيب الى وجود:

---

(١) ابن الأعثم، الفتوح ص ١٤٠ ب. واليعقوبي – تاريخ ج ٢ ص ٣٤٣ والبلاذري الفتوح ص ٤٠٠ والطبري ج ٢ ص ١٢٣٥.

(٢) البلاذري – الفتوح ص ٤٠١.

(٣) جيب – الفتوح العربية ص ٤٢–٣، الطبري ص ١٢٣٦–٤١ البلاذري الفتوح ص ٤٢٠ ابن الأعثم الفتوح ج ٢ ص ١٤١ اليعقوبي – التاريخ ج ٢ ص ٣٤٣.

(٤) نقل ابن الأعثم نص المعاهدة مع سمرقند كاملا في ج ٢ ص ١٤٣ ب – ١٤٤ آ من كتاب الفتوح.

(٥) جيب، الفتوح العربية ص ٤٥ – ٤٧، البلاذري. الفتوح ص ٤٢١ الطبري ج ٢ ص ١٢٤١ – ٥٢. ابن الأعثم – فتوح ج ٢ ص ١٤٢ آ – ١٤٤ ب، اليعقوبي التاريخ ج ٢ ص ٤٤٣ – ٤.

« فرق اساسي بين فتح بخارى وفتح سمرقند ، ففي الاولى تم الفتح بعد معارك مستمرة استنفدت موارد البلاد وابناءها ، وكانت الارض تؤخذ شبراً شبراً واصبح جميع السكان رعايا للعرب وتحت سيطرتهم التامة وحتى اميرهم توغشاد اضطر الى اظهار الولاء للعرب . لكن فتح سمرقند جرى بسرعة وكانت بلاد السغد في أكثرها لم تخضع للعرب بعد ولكنها لأسباب سياسية اعترفت بسيادة العرب في ذلك الحين » [1] .

وفي حملة عامي ٩٤ – ٧١٣/٩٥ – ٧١٤ وصل قتيبة بالجيش العربي بعيداً الى مقاطعات الجيحون مثل اسبيجاب وفرغانه [2] . لكن لم يكتب لسلطة العرب ان تثبت وتستقر هناك فقد اوقفت وفاة امير المؤمنين الوليد بن عبد الملك الزحوف العربية مدة من الزمن .

ويلاحظ ثمة عنصر جديد يدخل جيش قتيبة بعد فتح خوارزم وعند فتح سمرقند عام ٧١٢/٩٣ خاصة هو عنصر المجندين من بخارى وخوارزم والذين سنجدهم ثانية في غزوات عامي ٩٤ و ٧١٣/٩٥ – ٧١٤ علاوة على مجندين آخرين من السغد [3] على اننا لا نجد في غزوة عام ٧١٥/٩٦ ذكراً لأي من هؤلاء المجندين في جيش قتيبة .

وقد يكون سبب غيابهم هذا وصول امدادات عسكرية الى قتيبة في عام ٧١٤/٩٥ ارسلها له الحجاج وكان ابرزها جيش اهل الكوفة في الهند وجيشاً آخر من العراق ، مما لم تعد بعدها حاجة للمجندين من ما وراء النهر .

لكن السؤال هو لماذا لجأ قتيبة الى جمع المجندين من البلاد المحتلة في ما وراء النهر ؟

---

(١) جيب : المصدر السابق ص ٤٥ – ٤٦ .

(٢) جيب : المصدر السابق ص ٤٨ – ٥٣ ، وجيب : غزو العرب للكشغار ، عام ٧١٥ . في مجلة مدرسة الدراسات الشرقية ١٩٢٣ – ص ٤٦٧ – ٧٤ .

(٣) الطبري ج ٢ ص ١٢٤٤ – ١٢٥٦ .

نستطيع ان نتبين جواب هذا السؤال من قصة وردت في اخبار فتح خوارزم فقد قيل ان رغبة الجيش انصرفت في فترة ما الى العودة وقد احس قتيبة بهذه الرغبة فاستجاب لها وامر جيشه بالعودة الى مرو[1] ولكنه عاد فغير رأيه وهجم على سمرقند، كما ورد ان قتيبة عاقب بعدها حيان النبطي دون ان توضح لنا القصة اسباب العقاب[2] ففي حصار سمرقند كان المجندون من اهل بخارى وخوارزم – وكان العرب يسمونهم العبيد – عنصراً لا غناء عنه[3]، حتى ان امير سمرقند احتج على قتيبة قائلاً «انك انما تقاتلني باخوتي واهل بيتي» من عجم خوارزم وبخارى وكان على قتيبة ان يبرهن له على وجود العرب في جيشه ايضاً[4].

ويبدو ان وضعاً جديداً قد ظهر حين بدأ المجندون من خراسان يشعرون بالتعب من استمرار الحروب فلما كانوا في خوارزم طلبوا ان يعودوا الى ديارهم وضغطوا في ذلك على ممثلهم والناطق بلسانهم حيان النبطي ليجهر بطلباتهم الى قتيبة الذي امر بعدئذ بعقاب حيان لعجزه عن ضبط بني جلدته.

والحقيقة ان هذه الحروب لم تعد على هؤلاء الرجال بمغنم أو نفع وكل الذي نالوه منها غيابهم المستمر عن اهليهم وحرمانهم من القيام بأي عمل منتج ومربح لهم خلال هذه الفترة. وبين ايدينا اشارة عابرة ولكنها ذات دلالة اوردها المدائني اذ قال ان أول عمل قام به خليفة قتيبة، وكيع بن ابي سود، هو اتهام قتيبة بانه «اغلى عليكم اسعاركم» والوعد بتخفيض الاسعار وخاصة سعر القمح[5].

ذلك ان حروب قتيبة وان جلبت الى خراسان «مغانم لم يسمع بمثلها» وخاصة حروب السنوات الاولى –، فانها قد جردت البلاد من اليد العاملة.

---

(١) اليعقوبي – التاريخ ج ٢ ص ٣٤٣ والطبري ج ٢ ص ١٢٤٠ – ٤١.
(٢) الطبري ص ١٢٥٣.
(٣) كذا ص ١٢٤٥.
(٤) كذا ص ١٢٤٤.
(٥) كذا ص ١٢٩٨.

وهذا الوضع قد خلق – اذا استعملنا اصطلاحاً عصرياً – « اقتصاد حرب » أدى بدوره الى التضخم الذي انتهى بدوره الى الغلاء وارتفاع الاسعار .

ومن الطبيعي ان تثني هذه الظروف اهل خراسان عن الاشتراك في حروب قتيبة مما دفعه الى الاستعانة بالمجندين العجم في نفس الوقت الذي طلب فيه من الحجاج امداده بجيوش عربية جديدة لحملاته التوسعية المقبلة .

ومظهر آخر برز في جيش قتيبة لأول مرة في غزوة سمرقند ، ثم تطور بعد ذلك في آخريات ولايته ، وهم الرماة الذين سجلت مصادرنا مقدرتهم الفائقة في الرماية والاصابة [1] فقد ذكر ابن اعثم انهم كانوا يسمون « رماة الحدق » وكانوا يعدون بأكثر من عشرة آلاف من نبلاء السغد والهياطلة وأمراء طخارستان وخراسان [2] .

وواضح عنصر المبالغة في العدد الذي يذكره مؤرخنا ، ولكن مهما تكن حقيقة عددهم فالثابت ان هوٴلاء الرماة النبلاء ظلوا مخلصين الى قتيبة حتى بعد ان انصرفت عنه غالبية قومه [3] مما يدل على انهم كانوا له اشبه بالحرس الخاص منهم بوحدة عادية من وحدات الجيش .

٥ – سقوط قتيبة

وعلينا ان نلتفت الآن الى دراسة العوامل التي أدت الى سقوط قتيبة والى تحري السبب في ثورته المفاجئة أو بالاحرى ثورة جيشه عليه .

وقد رد الباحثون سبب هذا الانقلاب المفاجئ الى العداء بينه وبين الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك [4] ولكننا نرى الامر اعمق من ذلك بكثير .

فنحن نعلم ان الحجاج ظل مدة اثني عشر عاماً الرجل الأول – بعد امير المؤمنين – في الامبراطورية كلها ، ولما توفي صاحبه عبد الملك أقر ابنه الوليد

---

(١) كذا ص ١٢٤٤ .

(٢) ابن الأعثم فتوح ج ٢ ص ١٥١ آ .

(٣) البلاذري، الفتوح . ص ٢٤٢ .

(٤) فيلهاوزن : ص ٤٣٩ ، بارثولد : تركستان ص ١٨٦ ، جيب : الفتوح العرب ص ٥٢ بوزورت ص ٦٨ .

الحجاج على ما كان عليه ايام ابيه ، بل — وهذا ما كان متوقعاً بطبيعة الحال — زادت سلطة الحجاج وهيمنته في ايام الابن عن ايام ابيه وامتد نفوذه على اكثر أجزاء الامبراطورية .

ولهذا وبسبب مدة حكمه الطويلة وما كان يتمتع به من سلطة واسعة في اختيار الولاة والعمال في اكثر من نصف الامبراطورية فقد استطاع الحجاج ان يخلق له مدرسة خاصة من الولاة تسميها مصادرنا « مدرسة الحجاج »[1] استمرت قائمة موثرة الى سنين عديدة بعد وفاته ، وكان قتيبة نفسه من ابرز تلامذتها واشدهم بأساً .

ومن أبرز الأمثلة التي تقدمها مصادرنا على قدرة الحجاج وازدياد نفوذه ، هو قدرته على اقناع الوليد بن عبد الملك على عزل ابن عمه عمر بن عبد العزيز من ولاية المدينة عام ٩٣/٧١٢ وتعيين أحد أبناء مدرسة الحجاج بدلاً عنه [2] .

لقد كان الحجاج من اكبر بناة الامبراطوريات في كل التاريخ العربي ، ان لم يكن اكبرهم على الاطلاق ، ولهذا فقد كان كل همه تقوية سلطة الحكومة المركزية في البلاد المفتوحة وتوسيع رقعة الامبراطورية بالاستزادة من الفتوح الجديدة .

إلا أن الحجاج واجه في خراسان مشكلة صعبة جداً ، فقد كانت خراسان بالنسبة له — وهي كذلك في الواقع — اكثر البلاد قابلية للاتساع وازدياد الفتوح ، ولكن الجماعة العربية فيها ابعد ما تكون عن الطاعة والانقياد ، لذلك كان عليه ان يعمل أولاً على اخضاع هؤلاء العرب واجبارهم على الانصياع لاوامر الحكومة المركزية وسياستها ، ثم دفعهم في البلاد الى مزيد من الحروب والفتوح .

ولعله كان يرى انه من الممكن دمج هذه القبائل وصهرها اذا ما اشغلها بالحروب ، ولذلك فحين صارت خراسان تحت أمرته ارسل اليها جماعة جديدة

---

(٢) الطبري ص ١٣٥٤ .

(٣) كذا ص ١٢٥٤ .

من القبائل لتوازن نفوذ القبائل الموجودة بها من قبل، وقد اختار لها والياً جديداً هو المهلب بن ابي صفرة القائد العسكري المحنك.

لكن سياسته هذه منيت بالفشل وكان عليه ان يلجأ الى سياسة اخرى، وقد الهم هذه السياسة الجديدة بظهور طبقة الموالي ايام ولاية أمية والمفضل، فظن انه اذا احسن استخدام هؤلاء الموالي صاروا في يد الوالي في خراسان القوة التي يفتقدها للسيطرة على القبائل وضبطها. كما صاروا للوالي قوة ضاربة مأمونة الجانب لاستعمالها في الفتوح العربية الجديدة، ولهذا فان قتيبة لم يصطحب معه جيشاً عربياً جديداً حين ذهب الى خراسان.

وكان يمكن ان يكتب النجاح لهذه الخطة لو انها اخذت بنظر الاعتبار مصالح السكان الايرانيين من اهل خراسان وعملت على اذابتهم في الجماعة العربية. لكن الحجاج وكذلك قتيبة لم يعملا شيئاً في هذا الاتجاه، بل ان قتيبة اتبع في الواقع سيادة مضادة لذلك تماماً. فقد استفاد من هؤلاء الموالي كل الفائدة ولكنه اغفل واهمل مصالحهم كل الاهمال.

وقد نبه حيان النبطي قتيبة الى هذه الحقيقة والى نتائجها السيئة حين طلب قتيبة منه نصرة اصحابه – الموالي – ضد القبائل العربية التي تمردت على الوالي اثناء فتح فرغانه عام ٩٦/٧١٥[1]. وقد ذهب قتيبة الى ابعد من ذلك في منع اندماج هذين العنصرين اذ جعل الموالي فئة متميزة مستقلة في جيشه بدلاً من ان يشاركوا القبائل والبطون التي ينتمون اليها بالولاء. ولهذا يبدو واضحاً كيف ان سياسة الحجاج وقتيبة قد ألبت العناصر الايرانية في خراسان ضد قتيبة حتى اذا ما احتاج اليها وقت الضيق خانته وانقلبت عليه.

اما العرب فقد كانت لهم اسبابهم الخاصة بهم للانقلاب ضد قتيبة. فقد كانت هناك اولاً القوة المتعاظمة للحكومة المركزية وممثلها وقد ظهر تعاظم هذه القوة بكل وضوح في الطريقة التي محق بها الحجاج بني الاهتم من تميم لمجرد

---

(١) البلاذري – الفتوح ص ٢٤٢.

انهم عارضوا سياسته [1] وفي تدخل قتيبة نفسه في عزل بعض كبار رؤساء القبائل وتعيين آخرين بدلاً عنهم ممن هم اكثر قبولاً لدى الحكومة المركزية كما حدث ذلك في امر وكيع بن ابي سود مما اثار القبائل واسخطها [2] .

ومن الجهة الثانية فقد مضت على رؤساء القبائل هؤلاء فترة طويلة من الزمن في خراسان اعتادوا خلالها على طرق في ترف العيش ولينه لا تأتلف وسياسة قتيبة في الحروب المستمرة .

وفي نفس الوقت وعلى الرغم من احتمال معارضة هؤلاء الرؤساء لسياسة قتيبة في اعتماد الدولة وولائها على الرعايا غير العرب . فانهم بدأوا يقتربون من هؤلاء الرعايا كما هو ظاهر من اتفاق الطرفين على النهوض ضد قتيبة [3] .

وما كان لسياسة الحجاج – كأي سياسة حكم اخرى – ان تمر دون معارضة وكانت بطبيعتها حرية ان تثير المعارضة في كل انحاء الامبراطورية . ولربما كان أول زعيم عارضها جهرة هو يزيد بن المهلب، ويبدو انه استطاع – لعلاقته الوثقى مع ولي العهد سليمان بن عبد الملك – ان يقنعه بوجهة نظره . ونحن نعرف ان يزيد طلب حماية سليمان حين اراد الحجاج معاقبته [4] كما عارض الحجاج زعيم بارز آخر هو عمر بن عبد العزيز الذي كلفته معارضته للحجاج فقدانه ولايته على المدينة [5] .

وبكلمة أخرى فنحن أمام ثلاث شخصيات بارزة كانت على اتفاق وثيق على معارضة سياسة الحجاج ، وكان من مكنة الحجاج ان قضى على اثنين منهما ولكن الوقت لم يتسع له للقضاء على ثالثهما وهو سليمان ، او ان

---

(١) البلاذري – الفتوح ص ٤٢٣ و ٤٢٥ – ٦ وابن الاعثم – الفتوح ج ٢ ص ١٣٣ ب .

(٢) البلاذري – الفتوح ص ٤٢٦ . والطبري ص ١٢٩٠ – ١٣٠٤ . وابن قتيبة – المعارف ص ٢١٢ وابن عبد ربه، ج ١ ص ٨٠ .

(٣) البلاذري – الفتوح ص ٤٢٦ والطبري ١٢٩١ .

(٤) ابن الاعثم – فتوح ج ٢ ص ١٣٢ ب والطبري ١٢١١ – ١٧ .

(٥) الطبري ص ١٢٥٤ .

سليمان كان من القوة بحيث لم يقدر عليه الحجاج ، فالتفت الى الخليفة الوليد يغريه بنقل ولاية العهد من اخيه سليمان الى ابنه وكان هدف الحجاج من ذلك ضمان استمرار سياسته . لكن المنية ادركت الوليد قبل ان يتيسر له اتخاذ هذه الخطوة .

ويروى ان الحجاج اصابه خوف وهلع كبيران حين حمل اليه البريد يوماً ما خبراً عن موت الوليد ولحسن حظ الحجاج فقد كان الخبر كاذباً ، ومن حسن حظه ايضاً انه مات عام ٧١٤/٩٥ قبل وفاة الوليد بعام واحد تقريباً .

وكان قتيبة وهو كما قلنا ابرز تلاميذ الحجاج في طريقه الى الشاش حين اتاه خبر موت الحجاج فغمه ذلك كثيراً وقفل راجعاً الى مرو ترقباً للتطورات السياسية المنتظرة لكن الوليد ترك الامور تجري على ما كانت عليه ايام الحجاج لم يغير فيها شيئاً واقر ولاة الحجاج وعماله على اعمالهم التي كانوا عليها في حياته [١] .

وفي سنة ٧١٥/٩٦ غزا قتيبة مقاطعات جيحون وروى عنه « انه حمل مع الناس عيالهم وانه احرز عياله في سمرقند خوفاً من سليمان » . وانه بعد ان عبر النهر استعمل عليه حرساً ليمنعوا الناس من القفول الى مرو [٢] . ويبدو انه كان يهدف الى اسكان بعض القبائل في مستعمرة عسكرية ينشئها قرب فرغانه . ولما رأى عدم حماس صحبه لهذه الفكرة اقام الحرس على النهر لمنع عودة الناس ومن ثم افساد خطته .

وفي فرغانه اتى قتيبة خبر موت الوليد وتولية سليمان أمرة المؤمنين . ومع ان أمير المؤمنين الجديد سليمان اقر قتيبة على ولايته في خراسان إلا انه احس ان هذا ما هو الا إجراء موقت لا غير وان التغييرآت لا ريب فيه [٣] . ولذلك وفي محاولة اخيرة يائسة لتعديل الامور اعلن قتيبة الثورة ضد سليمان على امل ان يؤيده انصاره ورجال جيشه .

---

(١) الطبري ج ٢ ص ١٢٦٧ – ١٢٧٦ .

(٢) كذا ص ١٢٧٥ – ٦ .

(٣) البلاذري . فتوح ص ٤٢٣ . الطبري ج ١٢٨٦ .

لكن جيشه كان قد انقلب عليه ما عدا حرسه الخاص (الرماة) والذين كانوا قوة صغيرة لذا لقي قتيبة حتفه على يد اتباعه من القبائل العربية وحلفائهم الجدد، الموالي، من اتباع حيان النبطي[1]. ورضيت القبائل العربية ان تولي عليها وكيع بن ابي السود من رؤساء تميم على شرط ان يرضى هو بما يقرره امير المؤمنين الجديد سليمان بحقهم[2]. وكان اول قرار اصدره سليمان اليهم هو الامر بعودة الجيوش الى مرو حيث سرحت حال وصولها هناك[3]. وفي خلال خمس السنوات القادمات المنتهيات بوفاة عمر بن عبد العزيز ظل الحزب المعارض في سدة الحكم وكانت سياسته الخراسانية خلاف سياسة الحجاج على خط مستقيم.

(١) الطبري ١٢٨٦ – ٩٦. وخطاب قتيبة حين أعلن الثورة مذكور في ابن اعثم، الفتوح ج ٢ ص ١٤٩ ب – ١٥١ آ وابن عبد ربه العقد الفريد ج ١٥ ص ١٤٠ والجاحظ البيان والتبيين ج ٢ ص ١٣٢ – ٤.

(٢) ابن الأعثم، فتوح ج ٢ ص ١٥٢ آ. وانظر ايضاً الطبري ج ٢ ص ١٢٨٩.

(٣) البلاذري الفتوح ص ٤٢٣ وابن الأعثم الفتوح ج ٢ ص ١٥٠ آ.

الفصل الخامس

المعارضة في الحكم
أو
عهد سليمان وعمر بن عبد العزيز

١ ـ عهد سليمان : التمهيد لعهد عمر

لم يدرك المؤرخون أهمية عصر سليمان اذ طغى عليه وحجبه عهد خلفه عمر بن عبد العزيز ، في حين ان عهد عمر يعتبر تكملة وامتداداً لعهد سليمان ، أو أنه العهد الذي تبلورت وبلغت فيه القمة السياسة التي وضعت أسسها في عهد سليمان . إلا أن قصر عهدي هذين الخليفتين قد أدى الى عدم رسوخ سياستهما وامتداد جذورها ولذلك فما ان تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة بعد عمر حتى عاد ــ كما كان متوقعاً ومخشياً منه ــ الى السياسة التوسعية الاولى ، سياسة الوليد والحجاج ، وقضى بذلك على كل آثار التغيير السليم الذي حققته سياسة سليمان وعمر .

وقد علمنا من قبل ان الحجاج واتباعه كانوا اكثر المتخوفين من تولي سليمان سدة الحكم لعلمهم علم اليقين انه سوف يغير في السياسة العامة للدولة ، تلك السياسة التي قضوا عشرين عاماً من حياتهم في الدعوة لها والعمل من أجل انجاحها وإرساء قواعدها . وقد حاولوا ان يمنعوا وصول سليمان الى الحكم إلا انهم فشلوا في ذلك ونجح سليمان في الوصول اليها والحصول على البيعة لنفسه اميراً للمؤمنين . وكان من أول أعماله الخروج على وصية أبيه في ان يتولى يزيد بن عبد الملك الخلافة بعد اخويه الوليد وسليمان[1] ، فعين خلافاً لها ،

---

(١) الطبري ص ١٣١٧ .

عمر بن عبد العزيز ولياً للعهد[1] غير آبه للمعارضة العنيفة التي ابداها أعضاء أسرته .

وكانت معارضة عمر لسياسة الحجاج معروفة لدى سليمان ، وكان سليمان يأمل ان يتمم عمر السير على هذه السياسة التي بدأها سليمان نفسه . ولهذا وعلى الرغم من ان عمراً لم يعين في أي منصب رسمي خلال عهد سليمان . إلا أن المعروف أنه كان بمثابة « الوزير » من سليمان[2] .

وقد برز في هذه الفترة رجل هام من رجال القصر كان يعمل خلف الستار طيلة عهدي سليمان وعمر والذي ربما كان هو العامل في استمرارية السياسة في عهديهما . وهذا الرجل هو « رجاء بن حيوه » وكان ذا كلمة ونفوذ ايام سليمان وهو الذي « صنع الملك » لعمر ثم كان من العاملين المقربين الاوفياء له ، وكان رجاء على علم تام بشؤون الدولة كافة ، فقد روى انه كان المسؤول عن بيت المال ايام عبد الملك[3] وربما كان هو الذي ألهم عمراً اصلاحاته المالية .

ان بعض مصادرنا توحي بأن سليمان كان « رجل طعام ونكاح » لا غير . ولا شك في ان خصومه قد دسوا عليه هذه الروايات تشويهاً لسمعته مستغلين في ذلك ما اشتهر عنه من حب للطعام وشهية قوية للأكل[4] لكننا نستطيع ان نصل الى حقيقة أمره من مصادر اخرى حيث تمجد اعماله خلال حكمه وتذكره « بالخير والصلاح ، اذ رفع عن الناس ظلم الحجاج واتباعه واخلى سبيل اهل السجون في البصرة واعاد الغائبين الى أهليهم واحسن الى الناس ثم استخلف فيهم عمر بن عبد العزيز »[5] .

---

(١) الطبري ص ١٣٤١ و ١٣٤٥ .

(٢) الذهبي ج ٤ ص ١٦٨، العيون والحدائق في أخبار الحقائق لمؤلف مجهول . ليدن ١٨٦٩ ص ٢٩ .

(٣) الطبري ١٣٤١ – ١٣٤٥ ، ابن عبد ربه، العقد الفريد ج ٦ ص ٢٤ وج ١٨ ص ٧٤.

(٤) الطبري ص ١٢٧٣ و ١٣٠٩ .

(٥) الطبري ص ١٣٣٧ .

٢ ـ يزيد بن المهلب : والي العراق والمشرق

ما ان تولى سليمان شؤون الحكم حتى بدأ بتغيير الولاة الذين عينهم سلفه بترشيح من الحجاج ، فعين والياً جديداً لمكة وآخر للمدينة ، وعين يزيد بن المهلب والياً على العراق وعين معه صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم لأمر الخراج وكان بصيراً بشؤونه .

وتختلف الروايات في سبب تعيين سليمان صالح بن عبد الرحمن لأمر الخراج ، فتذهب بعضها الى ان يزيد نفسه اقترح تعيينه رغبة منه في التخلص من مشاكل الجباية والخراج وهي بحد ذاتها عويصة معقدة فكيف بها في بلد كالعراق لا يستقر له قرار[١] وتلمح روايات اخرى الى ان السبب في تعيين صالح هو ميل يزيد الواضح الى الكرم والاسراف ، حتى ان يزيد لما احس بقبضة صالح تأخذ عليه حريته في الصرف والعطاء توسل الى سليمان ان ينقله الى ولاية خراسان حيث يستطيع ان يكون اقدر على التصرف بموارد تلك المقاطعة بعيداً عن مراقبة صالح بن عبد الرحمن[٢] . لكن التطورات اللاحقة اضعفت من قوة هذا التعليل ، فان يزيد لم تخفض رتبته وينقل الى خراسان وانما حدث العكس من ذلك اذ اضيفت مقاطعة خراسان الى ولايته وهذا يعني زيادة في مركزه في الدولة[٣] .

والواقع ان سليمان وجد في يزيد « حجاجه » الذي يبغيه في العراق ، وكان قد قرر منذ البداية ان يعينه على العراق وخراسان وان يمنحه كل ما يحتاج اليه من صلاحيات ، ولكنه آثر ان يقصر تعيينه على العراق في اول الامر لان الوضع في خراسان لم يكن واضحاً كل الوضوح ولربما لان سليمان اراد ان يمنح يزيداً من الوقت ما يكفيه ليهيئ نفسه لاعباء خراسان وليرسم لنفسه سياسة في خراسان ، ولذلك فقد قصر تعيينه على ولاية العراق وكان مفهوماً لدى الجميع ان ولاية خراسان آتية اليه في اعقابها .

---

(١) الطبري ١٣٠٦ – ١٣٠٧ .

(٢) الطبري ١٣٠٤ – ١٣١٠ .

(٣) المصدر السابق ص ١٣١٠ والبلاذري فتوح ٤٢٥ .

ولعل سليمان وجد ان احوج ما يحتاجه العراق في ذلك الاوان هو سياسة مالية جديدة تضع حداً لشكاوى اهلية وتذمرهم ، ولهذا فقد ارسل مع واليه يزيد خبيراً مالياً هو صالح بن عبد الرحمن ليقوم بدراسة موضعية لسياسة الحجاج المالية ويقترح الاصلاحات التي يمكن عملها في العراق .

أما في خراسان فكان من الطبيعي ان يؤدي مقتل قتيبة الى الحيرة فيما يجب سلوكه لمعالجة الموقف هناك . ولكن لان القبائل العربية والسكان الايرانيين في خراسان على حد سواء كانوا من المؤيدين لسياسة الخليفة سليمان ، فلم يكن امامه الا ان يقرهم على ما كانوا قد اختاروه لأنفسهم حتّى يتهيأ له الوقت الكافي ليكوّن فكرة واضحة عن الوضع وعن الطريق الواجب سلوكه هناك . ولهذا فقد سارع سليمان وعين عام ٧١٥/٩٦ وكيع بن ابي سود والياً على خراسان إنما للحرب فقط [١] واقر تعيين وكيع لابي مجلز لاحق بن حميد السدوسي للخراج . وكان وكيع – على ما يقول البلاذري – « قد كتب الى ابي مجلز لاحق بن حميد بعهده على مرو فقبله ورضى الناس به » [٢] وكان ابو مجلز رجلاً « مشهوراً بالنزاهة والاستقامة والمعرفة بأحوال خراسان » [٣] وفي القول بأن تعيين أبي مجلز كان موقوفاً على رضى الناس عنه ، دلالة واضحة على انه على الرغم من القبول العام بوكيع والياً على خراسان إلا أن القبائل العربية ما فتئت تحاول الحفاظ على السلطة في أيديها وانها ظلت تعامل وكيع على انه رئيس قبلي وليس على انه وال ذو سلطة شاملة .

وقد بذل وكيع خلال ولايته التي دامت تسع شهور فقط كل جهده وقواه للحفاظ على الامن وإعادة الاستقرار الى ربوع خراسان [٤] ولا شك ان سليمان كان يخشى – كل الخشية – بعث التيار القبلي في خراسان من جديد وكان

---

(١) الطبري ص ١٣٠٥ .

(٢) البلاذري – الفتوح ص ٤٢٤ .

(٣) الطبري ص ١٣٥٤ و ١٣٥٦ .

(٤) كذا ص ١٣٠١ والبلاذري فتوح ٤٢٤ .

قد نصح بألا يدع الامور في يدي زعيم قبلي قد تسول له نفسه يوماً ما الثورة ضد الحكومة المركزية [1] ولهذا فقد قرر سليمان ان يضع حداً حاسماً ونهائياً للنفوذ القبلي في خراسان ، فقرر عام ٧١٦/٩٧ عزل وكيع عن ولاية خراسان وإلحاقها بولاية العراق تحت أُمرة يزيد بن المهلب الذي نقل مركزه الى مرو تاركاً امر العراق الى نواب له في الكوفة والبصرة وواسط [2] وفي هذا الاجراء اكبر دليل على الاهمية الكبرى التي اكتسبتها خراسان في نظام الحكم العربي في هذه المرحلة بالذات .

والاهم من هذا كله ان يزيد لم يكن ليعتمد في حكومته على ولاء العرب او الموالي في خراسان وقد ثبت فشل الاعتماد عليهما ، وانما كان اعتماده على جيش ضخم من جند اهل الشام اصطحبه يزيد معه الى خراسان وتقدر مصادرنا عدده بالستين الف رجل وهو رقم مبالغ فيه ولا شك [3] ولكنه يشير الى ان هذا الجيش السوري كان من القوة ووفرة العدد بحيث يستطيع ان يفرض رأي الحكومة المركزية وهيبتها على العرب وعلى الايرانيين من اهل خراسان على حد سواء ، وان يمد سلطانها الكامل على كل تلك البقاع .

وقد اصطحب يزيد معه الى خراسان بعضاً من جند اهل الكوفة واهل البصرة ايضاً ، إلا أنهم على ما يبدو لم يكونوا على شيء من كثرة العدد [4] ، وبالاضافة الى مقاتلة اهل الكوفة والبصرة وخراسان فاننا نجد ذكراً للمماليك والموالي والمتطوعين في جيش يزيد [5] ولكننا لا نجد في المصادر التي بين ايدينا عدداً معيناً لكل فئة من هذه الفئات الثلاث ، إلا أننا بالمقارنة بين روايتين اوردهما الطبري نستطيع ان نجزم بأن عددها يصل الى العشرين الف شخص [6] وكذلك

---

(١) الطبري ص ١٣٠٩ والبلاذري فتوح ٤٢٤ – ٤٢٥ .

(٢) الطبري ص ١٣١٠ – ١٣١٤ وعيون ص ٢٩ .

(٣) الطبري ص ١٣٢٧ .

(٤) نفس المصدر ١٣١٨ و١٣٢٨ والبلاذري فتوح ٣٣٥ وابن اعثم ج ٢ ص ١٥٨ آ .

(٥) الطبري ص ١٣١٨ .

(٦) الطبري ص ١٣١٨ و١٣٢٧ .

يمكن ان يحملنا وجود حيان النبطي في هذه الحملة على القول بأن الموالي الموجودين فيها هم اتباعه ويتكونون من الايرانيين الذين اعتنقوا الاسلام وسجلوا في الديوان[1] أما المتطوعون فمن المحتمل جداً أنهم كانوا من السكان الايرانيين الذين لم يعتنقوا الاسلام او ممن اسلموا ولم يسجلوا في الديوان ولكنهم هرعوا الى الانضمام الى صفوف المسلمين في هذه الحروب املاً بالمشاركة في الغنائم والاسلاب .

ويصعب علينا فهم المجموعة الاخيرة وهم المماليك ، فهي المرة الاولى التي يطلق فيها لقب « المماليك » على العبيد في مصادرنا . وكان لقب العبيد في جيش قتيبة ينصرف الى المجندين من بلاد ما وراء النهر ، كما واننا نعلم ان الحرس الخاص لقتيبة كان مكوناً من صفوة النبلاء من اهل المنطقة ، وانهم ظلوا مخلصين لسيدهم حتى لقي حتفه في ساحة القتال[2] وربما كان المماليك في جيش يزيد هم بقايا حرس قتيبة بعد ان اصبحوا مجموعة صغيرة غير ذات خطر في الجيش العربي .

وهناك ظاهرة اخرى ذات دلالة في السياسة الجديدة في خراسان وهي الاتجاه الذي اخذته جيوش يزيد في حملاتها . فقد كانت سياسة قتيبة هي التوغل بالجيوش العربية نحو اواسط آسيا مخلفاً وراءه بلاداً عدوة هي جرجان وطبرستان تهددان مؤخرته وطرق مواصلاته مع العراق[3] ، ولهذا فقد خالف يزيد هذه الخطة وقضى اكثر ايام حكمه في خراسان يقود جيوشه في جرجان حيث اصاب بعض النجاح وجعلها تدفع الخراج ، وبعد ان ترك فيها حامية قوامها اربعة آلاف رجل تقدم نحو طبرستان . وهنا ، وعلى الرغم من كثرة عدد جيشه ، – ولربما لصعوبة الارض – فقد لاقى مقاومة عنيفة شجعت اهل جرجان على النهوض ضد الحامية العربية وإبادتها عن آخرها . فاضطر يزيد ان يصالح ملك

---

(١) الطبري ص ١٣٢٩ .

(٢) انظر ص ١٣٦ من هذا الكتاب .

(٣) الطبري ١٣٢٧ .

طبرستان بوساطة حيان النبطي وان يعود الى جرجان حيث احرز نصراً ساحقاً وانتقم لمقتل افراد حاميته اوسع انتقام وحصل على الوفير جداً من الغنائم والاسلاب وقد وصفتها مصادرنا وصفاً مفصلاً [1].

وفي نهاية الحملة استخلف يزيد نائباً له على البلاد وعاد الى خراسان[2]. ولكنه بدلاً من الذهاب الى مرو عاد الى نيسابور[3]، حيث كان يهدف على ما يظهر الى اسكان الجيش السوري هناك. ولا ندري كيف ومتى نبتت هذه الفكرة في رأس يزيد، ولربما دار في ذهنه ان ينشأ في خراسان «واسط» اخرى كالتي انشأها الحجاج للجيش السوري في العراق. او ربما كانت حركته هذه خطة مدروسة غرضها إفهام عرب خراسان بوضوح تام بانهم لم يعودوا مركز القوة في خراسان، وان ممثل الحكومة المركزية مدعوماً بالجيش السوري هو صاحب اليد العليا في البلاد.

اما بالنسبة الى ما وراء النهر فقد عين يزيد ابنه مخلداً ممثلاً له في سمرقند وربما صيره مسؤولاً عن جميع بلاد السغد[4]، وقد روي عنه انه قام بحملة صغيرة في جبال البتام[5].

وكان امتناع يزيد عن الغزو في بلاد ما وراء النهر إشارة لى السياسة الجديدة التي بدأها سليمان والتي سيعلنها من بعده عمر بن عبد العزيز صراحة، والقاضية بوجوب انسحاب العرب انسحاباً كاملاً من كل بلاد ما وراء النهر.

---

(١) الطبري ١٣١٨ — ١٨٣٥ واليعقوبي تاريخ ٢٩ ٣٥٥ والبلاذري فتوح ٣٣٥ — ٣٣٨ رواية الطبري (ص. ١٣٢ — ١٣٢٩) ورواية البلاذري (فتوح ص ٣٣٧ — ٣٣٨) من أبي مخنف والمدائني عن مبالغ هذه الغنائم كلتاهما مربكتان، لان الطبري والبلاذري لا يتفقان على شيء حتى حينما ينقلان من نفس المصدر، وان كانا قد اشارا إلى حجم الغنائم الكبير. واكثر من هذا دلالة ما يقال من أن يزيد بعد ان فرق الاعطيات وخصص الناس فضل لديه ست وعشرون مليون درهم كما كما يروي المدائني أو عشرون مليون درهم من رواية اين اعثم او اربع ملايين حسب رواية مجهولة المصدر اوردها الطبري (ص ١٣٣٤).

(٢) الطبري ص ١٣٥٣ والبلاذري فتوح ٣٣٨.

(٣) اليعقوبي تاريخ ٣٥٥ ابن اعثم — فتوح ص ١٦٥ آ.

(٤) اليعقوبي تاريخ ص ٣٥٦ وابن اعثم فتوح ص ١٥٦ ب والطبري ص ١٣٢٤.

(٥) جيب: فتوح العرب ص ٥٤ والبلاذري ص ٤٢٥.

ومن جهة ثانية فان حملات يزيد في جرجان وطبرستان قد تكون هي الأخرى دليلاً آخر على السياسة الجديدة في وجوب تقوية وتثبيت الفتوحات العربية السابقة قبل القيام بأي فتح آخر في أي اتجاه جديد.

وعلى كل حال، فان وفاة سليمان المفاجئة في اوائل عام ٩٩/٧١٧ لم تتح له المجال الكافي لتطبيق سياسته وتوضيحها كما أتيح ذلك لخلفه عمر بن عبد العزيز الذي كان سليمان قد اختاره بكل عناية وترو.

٣ ــ توزيع أموال خراسان

وصل خبر وفاة الخليفة الى يزيد بن المهلب وهو في نيسابور، فظل هناك ينتظر تعليمات الخليفة الجديد وأوامره [١]. وقد عزل عمر يزيداً من ولاية العراق، وبالتبعية من ولاية خراسان وإعادا النظر في ادارة هذه الولاية الشاسعة الاطراف فقسمها الى ثلاث ولايات مستقلات عن بعضهن البعض، وهن ولايات البصرة والكوفة وخراسان، وعين لكل منها والياً مستقلاً [٢].

ولم يكن هذا ليعني ان عمراً كان يهدف الى شيء من اللامركزية في حكم الامبراطورية، بل على العكس من ذلك فانه سار على سياسة اكثر مركزية من قبل، اذ حصر بيديه كل السلطات وقام بنفسه بمراقبة عماله في مختلف انحاء الامبراطورية.

وقد عاد يزيد بعد عزله الى العراق، فأمر عمر واليه الجديد على البصرة عدي بن ارطاة [٣] ان يقبض على يزيد ويلقي به في السجن، ولا ندري ما حدث للجيش السوري الذي كان قد اصطحبه يزيد معه الى خراسان، ولكننا طالما لم نعد نسمع عن وجودهم في خراسان زمن عمر فمن المحتمل اذن ان يكونوا قد عادوا الى العراق. وهناك ما يدعو الى الاعتقاد بأن عمراً قد امرهم

---

(١) ابن اعثم – فتوح ص ١٦٥ آ.

(٢) الطبري ص ١٣٤٦.

(٣) الطبري ١٣٥٠ وابن اعثم فتوح ص ١٦٧ آ.

بالانسحاب من خراسان وهذا يمكن ان يتصل بعزل يزيد بن المهلب ايضاً. فقد نقل لنا ابن اعثم ان سليمان نفسه كان قد فكر في ارجاع يزيد من خراسان [1]، وتذكر لنا مصادرنا ان يزيد وقد اعتمد في توطيد سيطرته على الجيش السوري في خراسان اعتماداً كبيراً، فانه اهمل رجال القبائل العربية بما فيهم رجال قبيلته الازد. كما انه ابدى نحواً من التحيز والتفضيل تجاه الجيش السوري لا سيما في توزيع الغنائم [2]، ومن الطبيعي ان يؤدي هذا التصرف الى شكوك العرب المقيمين الذين هم في الاصل ضد سلطة الوالي، اي وال، فكيف اذا فرضت عليهم بقوة جند اهل الشام الذين يعتبرونهم غرباء عنهم وعن بلادهم الجديدة خراسان.

وبعد ان عزل يزيد ذهب وفد من خراسان للاعلان عن هذه الشكاوى لدى المسؤولين في البصرة، وكان ذاك بمحضر من يزيد نفسه الذي كان ما يزال هناك في حبس والي البصرة الجديد، وقد اكد هذا الوفد بأصرح عبارة واوضحها معارضته السافرة لجلب جند من اهل الشام الى خراسان، ونفى بشدة حق يزيد في التعسف بالتصرف بما كانوا يعتبرونه حقوقهم واموالهم [3].

اما عمر فقد كانت له مآخذه على سوء تصرف يزيد بأموال خراسان، ولهذا فقد حبس يزيداً على اساس انه لم يسلم الى بيت المال الاموال التي وعد بها سليمان [4] وكان يزيد قد كتب الى سليمان يخبره بفتح جرجان وطبرستان وما أفاء به الله عليهم من الغنائم فكتب يقول «وقد صار عندي من خمس ما افاء الله على المسلمين بعد ان صار الى كل ذي حق حقه من الفيء والغنيمة ست آلاف الف. وانا حامل ذلك الى امير المؤمنين ان شاء الله» [5].

وقد روى لنا المدائني خبر هذه الرسالة كما روى خبرها ابن اعثم ايضاً، لكن

---

(١) ابن اعثم فتوح ج ٢ ص ١٦٢ آ.
(٢) ابن اعثم فتوح ص ١٢٧ آ و ب والطبري ١٣١٣ واليعقوبي تاريخ ٣٥٥.
(٣) ابن اعثم فتوح ص ١٦٧ ب.
(٤) الطبري ص ١٣٣٥. وابن اعثم ص ١٦٧ آ.
(٥) الطبري ج ٢ ص ١٣٣٤ – ٥ وابن اعثم الفتوح ص ١٦١ ب وهو يقدر المبلغ بعشرين مليون.

الأخير زودنا، كعادته، بتفاصيل اوسع واكثر عن طريقة تصرف يزيد بالفيء والغنيمة حيث جمعهما واعتبرهما مالاً واحداً، وكانا من قبل ذلك منفصلين، واعلن انه سيرسل خمس المجموع الى سليمان [1]، ويرى عرب خراسان ان يزيداً قد استحل في عمله هذا ما كانوا يعتبرونه مالهم الخاص. ومنه يتضح ان عمر اقر هذا الترتيب ورضي به، وكل ما في الامر انه امر يزيداً ان يفي بوعده ويأتي الى بيت المال بالمال الذي وعد به.

ومن هذا كله يبدو وكأن هناك خلافاً او صراعاً قد لف عرب خراسان ووالي المقاطعة وأمير المؤمنين نفسه، ويتركز هذا الصراع حول «ما يعود» «ولمن»، أو بكلمة أخرى حول «من» يدعي «ماذا» بالنسبة الى الاموال المجتمعة من الفيء والغنيمة في خراسان.

واذا أردنا ان نجد حلاً لهذه المشكلة حسب احكام القرآن والسنة نجد ان «لوكاجارت» كان محقاً في قوله انه «بالنسبة الى احكام القرآن فقد كان محمد (ص) مطلق الحرية والتصرف بالغنيمة [2] لكن ما كان يصلح للرسول وفي ايامه لا يصلح لخلفائه وخاصة حين اصبحت الفتوح تدر على المسلمين اموالاً متزايدة لم تكن تخطر لهم على بال.

اما النظام الذي وضعه الخليفة عمر بن الخطاب فقد نظر فيه الى العراق خاصة ولم يأخذ بالحسبان الاحوال الحادثة في خراسان حيث استقرت القبائل العربية في ارض غريبة بعيدة عن وطنها وظلت في حال حرب دائم وكانوا في وضع يسمح لهم بالمطالبة فيما يعتقدون انها حقوقهم الصرفة.

ومن جهة ثانية فان الحكومة المركزية اخذت تحاول بالتدريج ان تستأثر لنفسها بأكثر اموال هذه المقاطعة الغنية، وهذا الصراع بين الجانبين انما هو مثل بارز للظروف التي تطور فيها نظام توزيع واردات البلاد المفتوحة حتى وصل الطور الذي شرحه لنا الفقهاء المسلمون.

---

(١) ابن اعثم – فتوح ج ٢ ص ١٥٨ ب و ١٦١ آ. ب.

(٢) ف. لوكركازد الضريبة الاسلامية في العهود الاسلامية – كوبنهاغن ١٩٥٠ ص ٤٢.

ومن حسن الحظ لنا، وبفضل ابن اعثم، فان لدينا مادة وفيرة تساعدنا على تتبع الادوار المختلفة لهذا الصراع حتى وصل هذا الدور الهام خلال ولاية يزيد بن المهلب وخلافة عمر بن عبد العزيز.

وكانت اموال خراسان تأتي من مصدرين اثنين اولهما ما يجمع من غنائم في ساحات القتال، وثانيهما هو الفريضة التي فرضت على مختلف المناطق بمقتضى معاهدات الصلح التي عقدها معهم الفاتحون.

ولا نريد ان نميز اياً من هذين المصدرين باصطلاح خاص خشية اضطراب الامر، اذ يبدو ان الاصطلاحات تختلف باختلاف ادعاءات الاطراف المعنية. فنحن نذكر اول دخول العرب خراسان ان قيس بن الهيثم قائد حامية مرو عام ٦٥٣/٣٢ كان مسؤولاً عن جباية الخراج وارساله الى والي البصرة عبد الله بن عامر [١]. ولم يكن هذا الخراج الا الفريضة نفسها. ولم نسمع آنذاك بأية مشكلة حول توزيع هذه الفريضة أو توزيع غنائم فتوح ولاة البصرة من غزواتهم من خراسان.

وأول مشكلة وصل الينا خبرها في هذا الامر حدثت في ولاية الحكم بن عمرو الغفاري عام ٦٦٧/٧٤ الذي أُرسل الى خراسان على رأس الجيش، ويبدو ان معاوية اراد ان يستفيد من نظام الصوافي الذي طبقه الرسول (ص) لهذا امر الحكم ان يختار ويجنب له كل «صفراء وبيضاء» أي كل الذهب والفضة التي حصل عليها في خراسان وان لا يوزعها على رجاله[٢].

ولكن الحكم الذي لم يكن يشاطر معاوية رأيه هذا والذي كان يرى ان الفريضة انما وضعت وتجمع بفضل وجود الجيش الذي فتح البلاد وفرض فريضة الصلح على اهلها، وعلى ذلك فان حكمها حكم الاسلاب والغنائم المتحصلة

---

(١) الطبري ج ٢ ص ٦٥ وانظر ص ٦٧ من هذا الكتاب.

(٢) ف. لوكاركاد ص ٣٤. ابن سلام ص ٧ و ١١ – ١٢ والجاحظ – الحيوان. ج ١ ص ٣٣٠. وص ٧٤ من هذا الكتاب.

في الحرب ، فهي غنيمة للجيش . وعلى هذا فقد رفض الحكم اوامر معاوية واكتفى بإرسال خمس الاموال فقط اليه وقسم باقيها بين القبائل العربية[1] .

وقد أيدت القبائل العربية طبعاً عمل الحكم هذا وآزرته في موقفه ضد الخليفة وجعلت من عمله سابقة تؤيد حق القبائل العربية في خراسان بأربع اخماس ما يجبي من فرائض واتاوات شأنها شأن الغنيمة في الحرب . ويرسل باقيها ، اي الخمس ، الى امير المؤمنين حقاً شرعياً له في تطبيق حرفي للآية الكريمة :

« واعلموا ان ما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما انزلنا على عبدنا يوم الفرقان .. الآية »[2] . وابقاء منهم على عادة عربية قديمة باعطاء الرؤساء بعضاً من الغنائم[3] وفي هذه الحالة فقد اعتبر عرب خراسان ان معاوية هو رئيسهم الاعلى وهو السلطة التي يحق لها ان تتسلم الخمس كما ورد في الآية القرآنية الكريمة .

ورغم ان معاوية حاول جاهداً ايام عبيد الله بن زياد عام ٥٤/٦٧٤ ان يستخلص لنفسه حصة اكثر من الخمس من اموال خراسان الا ان القبائل العربية هناك أحرزت نصراً جديداً على السلطة المركزية بقيادة اسلم ابن زرعة، فقد استطاعت تعيينه ليراقب اموال المقاطعة فلا تستطيع الحكومة المركزية ان تمد يدها الى شيء من حقوقهم[4] .

وفي خلافة يزيد بن معاوية ، وفي ولاية سلم بن زياد ٦١ — ٦٨١/٦٤ — ٦٨٤ سجلت القبائل العربية في خراسان نصراً آخر فأكدت بصورة واضحة قاطعة حقها في كل ما يجمع من الاموال في خراسان ، فلم يعد يرسل بعد هذا التاريخ الى بيت المال المركزي إلا خمس ما يغنم في ساحات الحروب فقط .

---

(١) الطبري ج ٢ ص ١١٠ وابن اعثم – الفتوح ج ١ ص ١٧٠ آ وابن الاثير الكامل ج ٣ ص ٣٩١ .

(٢) سورة الانفال . الاية ٤١ .

(٣) الجاحظ الحيوان ج ١ ص ٣٣٠ .

(٤) انظر ص ٨٢ من هذا الكتاب.

على ان نصر القبائل هذا لم يكن تاماً كاملاً ، فقد كان عليها ان تقر بأن «العاجلة» حكمها حكم غنيمة الحرب . والعاجلة هي الدفعة الاولى من الفريضة التي تفرضها معاهدات الصلح على مدينة او إمارة ما نتيجة الحرب والقتال . وعلى هذا فقد كان للخليفة خمسها ولكن للسنة الاولى فقط ولم يكن له شيء من دفعات السنوات التاليات .

وكان هذا المبدأ ما زال معمولاً به ايام ولاية قتيبة ، وعلى هذا فعندما عقد معاهدة الصلح مع سمرقند عام ٩٣/٧١٢ (وقد نقل ابن اعثم الينا نصها كاملاً) فقد قبل بعاجلة صلح لتلك السنة قدرها الفا الف، اي مليونا درهم وفريضة سنوية قدرها ٢٠٠ الف درهم في كل سنة تالية . وعلى ذلك فقد ارسل قتيبة خمس المليوني درهم الى بيت المال بعد الحملة مباشرة . ولكن ابن اعثم ، وهو من يتعقب كثيراً ويدقق في رواية الحصص التي تدفع الى بيت المال لم يخبرنا بأية حصة أخرى من هذا المال ارسلت من خراسان الى بيت المال ابتداء من ولاية سلم بن زياد حتى ولاية يزيد بن المهلب . ولفظ الغنائم التي كان يستعمله الحكم بن عمرو للدلالة على كل اموال خراسان سواء ما حصل منها في ساحة الحرب ام أُخذ سلماً اصبح يعني الآن الغنائم الحربية بمعناها الضيق الدقيق وبهذا استثنيت منها الاتاوات السنوية التي تجمع في خراسان والتي اصبحت الآن تحفظ هناك[1] .

وطبيعي ان عطاء المقاتلة ونفقات الحروب كانتا تدفعان من نفس هذه الفريضة وليس لدينا من المعلومات ما يدلنا على كيفية التصرف فيما يتبقى من الاموال — هذا ان تبقى منها شيء — غير ان ما روى لنا من ان المفضل لم يكن له بيت مال حين كان والياً على خراسان[2] قد يشير الى ان فضلة المال كانت تقسم بين افراد القبائل أو بين رؤسائها .

وكانت سياسة يزيد بن المهلب هي محاولة تثبيت حقوق اكثر للحكومة

(١) ابن اعثم — فتوح ج ١ ص ٢٣٢ آ و ج ٢ ص ٩٠ آ فما فوق والبلاذري — الفتوح ص ٤٢١

(٢) انظر ص ١١٨ من هذا الكتاب .

المركزية على اموال خراسان . وكان هذا تحدياً للحقوق المكتسبة الثابتة منذ امد طويل للعرب في خراسان ، وعلاوة على انه انقص الدخل في خراسان نتيجة توزيع جزء كبير منه على الجيش السوري جزاء مشاركته في القتال ، فقد قرر ان يقلل من هذا الدخل بإعطاء الحكومة المركزية حصة اكبر مما كان لها . وهذه الحصة الجديدة هي خمس ما سماه الفيْ ، اي خمس الاموال التي كانت تجمع صلحاً في خراسان . ولذلك فلا عجب اذا ما احتجت القبائل العربية بشدة ضد يزيد أو بالاحرى ضد تعدي الحكومة المركزية على حقوقهم المقررة مما حدا بالخليفة عمر بن عبد العزيز الى التدخل ووضع حد للشكاة .

٤ — عمر بن العزيز السياسي والمسلم

على الرغم من كثرة المادة في مصادرنا عن عهد عمر بن عبد العزيز القصير فاننا لا نجد الا القليل منها فيما يتعلق بخراسان . ففي عام ٩٩/٧١٧ عين عمر الجراح بن عبد الله الحكمي والياً لولاية خراسان المستقلة الآن عن ولاية العراق[١] ومع ان الجراح قد تدرب في مدرسة الحجاج إلا أنه خدم عاملاً ليزيد بن المهلب على واسط[٢] .

ويذكر البلاذرى ان الجراح الحكمي وجه عبد الله بن معمر اليشكري في حملة صغيرة الى بلاد ما وراء النهر انتهت بفشل ذريع[٣] ولكن نفس المصدر سبق ان ذكر ان اليشكري قائد هذه الحملة قتل خلال حملة يزيد بن المهلب في جرجان في وقت سابق، وهذا مما يضفي بعض الشكوك على صحة هذه الرواية[٤]. ولكننا نعرف من المدائني انها كانت حملة صغيرة في الختل وان قائدها رئيس آخر غير الجراح[٥] .

---

(١) الطبري ص ١٣٥٠ واليعقوبي تاريخ ج ٢ ص ٣٦٢ وابن اعثم فتوح ج ٢ ص ١٦٩ ب.

(٢) الطبري ص ١٣١٠ و ١٣٥٤ .

(٣) البلاذري فتوح ص ٤٢٦ وجيب : الفتوح العربية ص ٥٤ .

(٤) البلاذري — فتوح ٣٣٦ — ٣٣٧ .

(٥) الطبري ص ١٣٥٣ .

وعلى كل حال فان المتفق عليه هو عدم وجود حملة كبيرة ايام الجراح بل وأيام عمر كلها ، وعلى العكس فقد قالوا أنه كتب الى ملوك ما وراء النهر يدعوهم الى الاسلام فاسلم بعضهم فعلاً [1] كما ورد في الاخبار ان عمراً امر الجراح ان يدعو السكان الايرانيين الى الاسلام وان يخبرهم ان الجزية او الخراج – حسب رواية البلاذرى – ترفع على من أسلم منهم وان اسمه يسجل في ديوان العطاء ويعامل كبقية المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم من الحقوق والواجبات [2] . ويقول المدائني ان عمر اتخذ هذا الاجراء حين وصلت اليه الشكاوى بأن عشرين الفاً من الموالي « يغزون بلا عطاء ولا رزق وان عدداً مثلهم قد اسلموا من اهل الذمة وما زالوا يؤخذون بالخراج » . وقد اتهم الجراح في نفس الشكوى بالعصبية لبني قومه العرب ضد غيرهم من العناصر في خراسان ، كما اتهم – بوصفه « سيفاً من سيوف الحجاج » – بالظلم والجور [3] .

فاذا اسقطنا عنصر المبالغة في هذه الروايات فان ما يفضل منها يدلنا على وجود عناصر مستاءة ناقمة بين السكان الايرانيين في خراسان . وعلى كل فان عدد من اعتنق الاسلام ، – كما وصلت الينا الروايات – لم يزد حتى ذلك الحين عن الاربعة آلاف رجل [4] مما يدل على ان انتشار الاسلام حتى عام ١٠٠/٧١٨ لم يكن واسع الانتشار في خراسان رغم الوعود المقدمة باعفاء من يعتنق الاسلام من الجزية والخراج .

وقد برهنت الاحداث التالية ان ميزات الجراح قائداً عسكرياً تبز بكثير ميزاته حاكماً ادارياً [5] . وقد كتب هو نفسه يشكو الى الخليفة « ان القوم

---

(١) البلاذري – الفتوح ص ٤٢٦ .

(٢) الطبري ص ١٣٥٤ والبلاذري فتوح ٤٢٦ وابن سعد ج ٥ ص ٢٨٥ .

(٣) الطبري ص ١٣٥٤ .

(٤) ابن سعد ج ٥ ص ٢٨٥ .

(٥) الطبري ص ١٤٥٣ والبلاذري فتوح ص ٢٠٦ .

في خراسان قد ابطرتهم الفتنة ... فليس يكفيهم الا السيف او السوط » لكن عمر منعه من اللجوء الى العنف والقوة[1] .

وقد احس الجراح بضعفه تجاه الرؤساء القبليين فأراد ان يكون لنفسه حزباً خاصاً به عن طريق شراء الناس بالهدايا التي كان يخرج ثمنها في الغالب من اموال الدولة[2] .

هذه العوامل كلها جعلت إقامة الجراح في خراسان امراً غير ممكن وعجلت باستدعاء عمر له بعد سبعة عشر شهراً قضاها في الولاية[3] .

وعملاً بنصيحة ابو مجلز لاحق بن حميد السدوسي ، وكان ذا خبرة ودراية طويلتين بأحوال خراسان ، عين عمر بن عبد العزيز عبد الرحمن بن نعيم الغامدي والياً على خراسان وانما على شؤون الحرب والصلاة فقط وعين معه عبد الرحمن بن عبد الله القشيري [4] على شؤون الخراج وقد استبدل به بعد فترة وجيزة عقبة ابن زرعة الطائي [5] .

وعلى العكس من الجراح الحكمي فقد كان عبد الرحمن الغامدي رجلاً لين الجانب مرناً وهذا هو بالذات السبب الذي من اجله اختاره الخليفة لولاية خراسان دون غيره . ومن الجهة الثانية كان عبد الرحمن القشيري الوالي على الخراج رجلاً قوياً قديراً[6] .

وقد كتب عمر الى واليه الجديد يأمره « باقفال من وراء النهر من المسلمين بذراريهم » وان « لا تغز بالمسلمين فحسبهم الذي فتح الله عليهم » [7] لكن

---

(١) الطبري ص ١٣٥٥ والبلاذري فتوح ص ٤٢٦ .

(٢) البلاذري فتوح ص ٤٢٧ .

(٣) الطبري ص ١٣٥٢ .

(٤) الطبري ص ١٣٥٤ – ١٣٥٦ البلاذري – الفتوح ٤٢٧ واليعقوبي تاريخ ، ص ٣٦٢ .

(٥) الطبري ص ١٣٦٦ .

(٦) كذا ص ١٣٥٦ .

(٧) كذا ص ١٣٦٥ واليعقوبي تاريخ ج ٢ ص ٣٦٢ – ٣٦٣ .

العرب ابوا القفول من وراء النهر بحجة ان مرو لا تسعهم[1]. وبعد هذا بزمن قصير نكث اهل السغد عهدهم مع العرب وان ظلت بخارى كما يبدو مستمرة تحت سلطان العرب[2].

وكتب عمر الى عقبة بن زرعة الطائي الذي ولاه الخراج بعد القشيري، ان «اجمع الخراج واحرزه في غير ظلم، فان كان كفانا لاعطياتهم فسبيل ذلك وان فضل منه شيء بعد اعطاء كل ذي حق حقه فاقسم الفضل في ذوي الحاجة من اهل خراسان وان لم يف الخراج بذلك فاكتب لي حتى احمل اليك الاموال فتوفر أعطياتهم»[3].

وكان الهدف من هذا إزالة عامل من عوامل الشكوى والسخط عند عرب خراسان، وقد احتاج عمر الى سنتين ليقتنع بهذا الرأي وهو ان خراج خراسان يجب ان يقسم على العرب هناك، وما كان لعمر ان يقتنع بهذا الرأي لولا ان ضغط اهل خراسان المستمر ايام الجراح اضطره اخيراً الى الاذعان.

اما عن النقطة الثانية التي اثارت سخط العرب في خراسان وهي وجود الجيش السوري بين ظهرانيهم فقد كانت سياسة عمر – لحسن الحظ – تهدف الى سحب هذا الجيش من جميع انحاء الامبراطورية، ذلك ان عمر ادرك ان ارسال سليمان للجيش السوري الى خراسان، هو في الحقيقة امتداد لسياسة عبد الملك والحجاج في ذلك الجزء من الامبراطورية. ولكن علمنا بمعارضة سليمان لهذه السياسة يجعل من الصعب علينا ان نتصوره كان يقصد الاستمرار على تلك السياسة.

ومهما يكن من امر، فقد وضع عمر وبصورة قاطعة المبدأ القائل بأن الامبراطورية يجب ان تساس من دون الجيش السوري، وفي خراسان بالذات

---

(١) الطبري ص ١٣٦٥.

(٢) الطبري ص ١٤١٨ وجيب: الفتوح العربية ص ٦٠٥٥.

(٣) الطبري ص ١٣٦٦.

لم نجد لهذا الجيش اثراً طيلة خلافة عمر ، كما نجد ان عدده في العراق قد انخفض انخفاضاً كبيراً .

وقد كان عمر – بطبيعة الحال – أموياً عربياً ولكنه كان يعتبر نفسه قائداً مسلماً قبل هذا وذاك . ولم يكن يقصد بطبيعة الحال الى هدم الامبراطورية العربية او القضاء على حكم بني أمية ولكنه كان يريد تغيير الوضع القائم آنذاك الى امبراطورية اسلامية . وقد ادرك ان الحكم العربي الذي اقامه معاوية قد انتهى وبعد صراع عنيف الى سيطرة اهل الشام ايام عبد الملك على مقدرات الامور فيه . وهذا ما كان يمقته العرب بمرارة ويقاومونه بضراوة في كل من العراق وخراسان وهو ان استمر فسيؤدي في النهاية الى انهيار الامبراطورية وزوالها .

وكان عمر يرى ان الطريق لمنع تصدع الامبراطورية وانحلالها السريع لا يكون عن طريق تقوية الجيش السوري وامتداد سيطرته وانما الطريق هو جمع الناس وفي انحاء الامبراطورية كافة حول عقيدة معينة ، توحد آراءهم واهدافهم ، وقد كانت هذه العقيدة ولحسن الحظ موجودة ومعترفاً بها وهي العقيدة الاسلامية : وكل ما يجب عمله هو نشر دعوتها وتطبيق مبادئها على جميع رعايا الامبراطورية دون تمييز او تفضيل في الحقوق والواجبات .

وطبيعي ان الخطوة الاولى في هذا السبيل هو اقناع غير المسلمين من رعايا الامبراطورية باعتناق الاسلام وهذا بالضبط ما دعا عمر الى تنفيذه في بلاد ما وراء النهر وخراسان وفي بقية انحاء الامبراطورية .

وفي امر اصدره عمر الى جميع عماله في جميع انحاء الامبراطورية . ويرى البروفسور جيب انه يحمل كل علائم الأصالة[1] كتب عمر يقول : –

« وعليه فكل من يعتنق الاسلام سواء كان مسيحياً ام يهودياً ام مجوسياً ممن يدفعون الجزية الآن ويساكنون المسلمين في دار الاسلام بعد ان تخلوا عن ديارهم التي كانوا يسكنونها من قبل ، فانه يتمتع بكل الامتيازات

(١) جيب : اصلاحات عمر المالية . ص ١ – ١٦ .

التي يتمتع بها المسلمون ويتحمل ما يتحملون من واجبات وعلى المسلمين ان يسالموه ويعاملوه كواحد منهم »[1].

وقد تجنّب هذا المرسوم – كما لاحظ ذلك البروفسور جيب – لفظ الموالي[2] وما ذلك إلا لان عمر حاول ان يؤكد أن الرعوية في المجتمع الجديد تقوم على اساس الاسلام والتساوي ولا يريدها ان تبقى قائمة على الانتماء ، أو الموالاة الى قبيلة ما . وكان يرى ان استمرار الامبراطورية يقتضي أولاً انصهار جميع القبائل العربية في كيان الامبراطورية ومن ثم انصهار مختلف العناصر والجنسيات الاخرى مع العرب بمجتمع اسلامي موحد .

وفي سبيل تنفيذ هذه السياسة فقد اكد عمر ان العطاء لا يعطى للمقاتلة لمجرد كونهم عرباً وانما يجب ان يعطى لمن يرضون ان يكونوا جنوداً في الجيش المحارب .

وتطبيقاً لهذا فانه منع العطاء عن العرب الذين لا يريدون ان يقاتلوا ولكنه في نفس الوقت امر به ان يدفع للمسلمين من غير العرب الذين دخلوا الجيش جنوداً محاربين[3] كما انه اكد من جديد ان من يعتنق الاسلام لا يدفع من الضرائب إلا مثل ما يدفع منها المسلم العربي الذي في مثل وضعه ومركزه[4] وبكلمة اخرى فان جميع المواطنين – عرباً كانوا ام غير عرب – يجب ان تكون لهم نفس الحقوق والواجبات وان يعاملوا على قدم المساواة في الضرائب والعطاء .

وقد وضع عمر المبادئ العامة لسياسة طويلة الامد ولانحاء الامبراطورية كافة، وكتب بها الى جميع ولاته وعماله في اقاليم الامبراطورية يشرحها لهم ويعلمهم طريقة تطبيقها بالنسبة للظروف السائدة في كل بقعة من بقاع مملكته . لكن

---

(١) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز : القاهرة ١٩٢٧ ص ٩٤ – ٩٥ .

(٢) جيب : اصلاحات عمر المالية ص ٨ .

(٣) ابن عبد الحكم – ص ٩٥ وجيب ، اصلاحات عمر ص ٣ و ٩ .

(٤) جيب : اصلاحات عمر ص ١٦ .

قصر مدة خلافة عمر لم تتح له الوقت الكافي لامتحان مدى نجاح سياسته ولو ان اثارها استمرت تتفاعل بعد وفاته بوقت طويل .

وقد تهيأت في خراسان الظروف المثالية لتطبيق هذه السياسة ، فقد كانت في مرو وفي القرى المجاورة لها جالية عربية كبيرة العدد نسبياً تسكن تلك الانحاء الى جوار الايرانيين ، أبناء البلاد الاصليين . ولم يكن لهذه الجماعات الايرانية اي شكوى من الحكم العربي ، بل انهم مضوا الى اكثر من ذلك فتعاونوا وتآلفوا مع العرب كما مد الاسلام جذوره بينهم فاعتنقه بعضهم . ولهذا فان اي تشجيع بسيط لهذا الاتجاه كان يمكن ان يؤدي الى اتمام الاندماج الكامل بين الجماعتين العربية والايرانية ليكون ذلك مثلاً وقدوة لبقية انحاء خراسان بل ولبقية ارجاء الامبراطورية .

وقد ظن عمر انه يستطيع ان يعيد التجربة نفسها في بلاد السغد مستفيداً بذلك من وجود الجماعة العربية في بخارى والحامية العربية في سمرقند . لكن تجربته هذه لم تحرز إلا نجاحاً ضئيلاً ، ان كان ثمة من نجاح . وعلى العكس من ذلك كان الامر في خراسان ، فقد عمل الخليفة الى إزالة كل شكوى للعرب هناك بل وزاد في مجاراتهم فعين لهم والياً لين العريكة هو عبد الرحمن بن نعيم . اما بالنسبة للسكان الايرانيين فقد اوعز لواليه الجراح ان يدعو الايرانيين الى اعتناق الاسلام وان يعدهم برفع الجزية عن من يعتنقه منهم وبمساواته مساواة تامة بالعرب . فاما اولئك الذين اسلموا وانضموا الى المقاتلة فلم تسقط عنهم الجزية بكافة انواعها فحسب بل واستحقوا فوق ذلك العطاء شأنهم شأن المسلمين . وقد رأينا من قبل ان عمراً وعد ان يحمل الاموال الى خراسان لتوفير الاعطيات الى اصحابها ان لم يكف خراج خراسان لها .

اما الايرانيون الذين اعتنقوا الاسلام ولكنهم لم ينضموا الى الجيش المقاتل فيحتاج وضعهم الى شرح اوفى .

فقد كان المبدأ الذي وضعه عمر هو ان ترفع عنهم الجزية . وان يعاملوا معاملة العرب ، ونعتقد ان العرب الذين قصدهم عمر في هذا الصدد هم

العرب الساكنون في خراسان ، ونحن نعلم من قبل ان في كل مقاطعة نظاماً للضرائب خاصاً بها ويختلف في قليل أو كثير عن نظام الضرائب في المقاطعات الأخرى وخاصة فيما يتعلق بضريبة الارض . وعليه فاذا استطعنا ان نتبين نظام الضرائب فيما يخص العرب وغير العرب في خراسان قبل اصلاحات عمر فاننا نستطيع ان نحدد بالضبط كيف كان يُعامل هؤلاء الايرانيون المسلمون غير الراغبين في القتال تحت ظل النظام الجديد .

ففي ايام الفتح الاولى قام الرؤساء والدهاقين في كل مقاطعة او مدينة في خراسان بالتفاوض مع العرب على شروط الصلح وتوصلوا في النتيجة الى معاهدات للصلح رسمت نوع ومدى العلاقة بين الغالبين والمغلوبين .

وعلى حد علمنا ، فلم يطرأ ، حتى عهد عمر ، ما يغيّر من احكام تلك المعاهدات وكانت كل معاهدة منها قد نصت على مبلغ معين تدفعه المدينة كل سنة الى العرب كأتاوة أو وظيفة او فريضة وبموجب هذه المعاهدات ايضاً ، فقد كان امر جباية هذه الضرائب وجمعها متروكاً للرؤساء المحليين والدهاقنة ، وكانت معاهدة مرو بالذات قد نصت على ان مهمتهم (الدهاقين) قسمة المال « وليس على المسلمين (العرب) إلا قبض ذلك »[1] وكما قال المستر دينيث بحق « ان ما فعله العرب هو خلق مجموعة من المحميات »[2] التي تركت تتدبر شؤونها المالية بنفسها ودون تدخل من الحكام العرب فاستمروا في العمل بالنظام الساساني القديم والذي كانت تفرض بموجبه ضريبة على الارض وعلى التجارة وعلى المهن الأخرى .

وكانت هناك أيضاً ضريبة الرأس ـ تفرض على كل شخص ، فلاحاً كان او من سكنة المدن ، يتراوح عمره بين العشرين والخمسين عاماً ، وكان

---

(١) البلاذري فتوح ص ٤٠٥ .

(٢) دينيث : الجزية في صدر الاسلام ص ١١٨ .

مقدار هذه الضريبة يتراوح حسب ايراد الشخص . وكان النبلاء والمقاتلون ورجال الدين والموظفون المدنيون معفيين منها [1] .

وقد استمر العمل بهذا النظام تحت ظل الحكم العربي واستمر دافع الضريبة الايراني يدفع ضريبة الارض وضريبة الرأس وضريبة التجارة وغيرها من الضرائب، وقد اشرنا من قبل الى شكوى بعض العرب على أمية بن عبد الله (٦٩٧/٧٨) لانه « سلط الدهاقين في الجباية » منهم ، ونرى ان الضريبة المقصودة هنا هي ضريبة الارض التي يجب دفعها على من تملك الارض . ولذا كان على العرب الذين استطاعوا ان يشتروا ويتملكوا الارض في بعض القرى ان يدفعوا عنها الضرائب المستحقة عليها وان يدفعوها للدهاقين لعدم وجود من يقوم بقبضها غيرهم [2] .

وعليه فمن البداية تقررت في خراسان قاعدة عامة وهي ان كل من يملك ارضاً، عربياً كان ام غير عربي، مسلماً كان ام غير مسلم، فعليه ان يدفع عنها الى الدهقان ضريبة معينة يحددها الدهقان نفسه .

ولكن اذا كان العرب قد خضعوا لدفع ضريبة الارض فمن المؤكد انهم لم يدفعوا ضريبة الرأس ، وهنا بالتأكيد انصبت اصلاحات عمر المالية اذ اعلن التساوي بين العرب والمسلمين من غير العرب في خراسان بهذا الخصوص . وعلى هذا فقد اوجب الحكم الجديد على المسلمين غير العرب الذين لم يرغبوا في الالتحاق بالجيش المقاتل وفضلوا عليه الاقامة في اماكنهم والاستمرار في مهنهم وتجاراتهم ، صار حكمهم ان يعفوا من ضريبة الرأس — الجزية — ولكنهم لا يعفون من ضرائب التجارة او الأرض .

وليس لدينا من المعلومات ما يؤكد ان الفريضة قد خفضت بسبب انخفاض الدخل الناتج عن اعفاء من اسلم من الايرانيين من ضريبة الرأس ، ولكن

---

(١) كريستفنس : ايران ص ١١٨ – ١٢٤ و ٣١٥ و ٣٦٢ ودينيث ، المصدر السابق ص ١١٨ .

(٢) انظر ص ٩٦ من هذا الكتاب .

المرء يجب ان يفترض بانه طالما كان عدد الداخلين في الاسلام آنذاك غير كبير ، فلم يكن اعفاؤهم من الضريبة ليؤثر كثيراً على مردودها ، ولهذا فقد ظل الدهاقين يدفعون نفس مقدار الفريضة التي فرضتها معاهدات الصلح رغم ان العرب انفسهم قد خالفوا في الواقع شروط تلك المعاهدات بتدخلهم بتقدير الضريبة وهو عمل صرف من أعمال الدهاقين .

وكما سنرى بعد قليل ، فان هذه السابقة خلقت مشكلة حادة حملت والي خراسان آنذاك ، نصر بن سيار ، الى الاقدام على وضع حد للتعسف في النظام الضرائبي في المقاطعة .

لقد كان عهد عمر نقطة تحول في تاريخ خراسان ، لكن وفاته عام ١٠١/٧٢٠ قد انهت فترة حكم حزب المعارضة ، وبانتهائها بدأت الاحداث في خراسان، بل في الواقع في جميع الامبراطورية — تتوالى وتتخذ منعطفاً حاداً خطراً أدى في النتيجة الى الثورة العباسية .

وكان من اهم ما في ذلك انتصار سياسة عبد الملك — الحجاج وعودتها الى الميدان على يد امير المؤمنين يزيد بن عبد الملك .

الفصل السادس

العودة الى سياسة التوسع والتسلط

١ – ثورة يزيد بن المهلب

ابتدأ عهد يزيد بن عبد الملك ١٠١ – ١٠٥/٧٢٠ – ٧٢٤ بثورة عارمة من العراق قادها آخر الأحياء من زعماء حزب المعارضة وهو يزيد بن المهلب ، وكان يزيد في حبس عمر بن عبد العزيز ارسله اليه الخليفة عمر لانه لم يؤد الى بيت المال شيئاً من ايراد خراسان ولا من غنائم حروبه في جرجان وطبرستان :

وقد رضي يزيد بحكم عمر فظل في محبسه طائعاً حتى اذا علم بدنو اجل امير المؤمنين عمر خرج من محبسه من تلقاء نفسه ونزل الى البصرة ، حيث دخلها دون مقاومة من احد[١] .

وما لبث رجال من القبائل العربية ان التفوا حوله فمالت اليه ربيعة وبكر وتميم وقيس وناس من عسكر اهل الشام في العراق[٢] كما انضمت اليه جماعتان خارجتان احداهما من الخوارج بقيادة السميذع والثانية من المرجئة يقودها رؤبة[٣] .

ومن الجهة الثانية كان والي البصرة عدي بن ابن ارطاة قد جمع حوله جند اهل الشام وانضمت اليه بقايا قبائل اهل البصرة وقد ذكر من بينها الازد بصفة خاصة ، قبيلة يزيد نفسه[٤] .

---

(١) الطبري ج ٢ ص ١٣٥٩ – ٦١ .
(٢) كذا ص ١٣٨٢ – ١٣٨٣ .
(٣) كذا ص ١٣٨٦ .
(٤) كذا ص ١٣٨١ .

وقد اشتد زخم حركة يزيد وعظم امرها حين استطاع يزيد ان يدحر جيش الوالي عدي وان يأسر عدياً نفسه . فأقبلت جموع الناس من كل قبائل الكوفة الى معسكر يزيد ويقال ان اناساً من الثغور اتوا اليه وانضموا الى جيشه[١] .

وقد ادرك امير المؤمنين يزيد بن عبد الملك خطورة الحال فدعا اخاه مسلمة بن عبد الملك القائد الاموي الشهير ، وارسله الى العراق لمحاربة يزيد بن المهلب .

وكانت دعوة ابن المهلب وشعاره هي « ان جهاد اهل الشام اعظم اجراً وثواباً من جهاد الترك والديلم »[٢] وكانت بيعته على « كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى الا تطأ جنود اهل الشام بلادنا ولا بيضتنا ولا تعاد فينا سيرة الحجاج »[٣] .

وهكذا وبعد اربع وعشرين عاماً من ثورة ابن الاشعث نرى يزيد بن المهلب يعيد اثارة نفس القضية ألا وهي وجود جيش اهل الشام في العراق وانما لأسباب مختلفة هذه المرة . اذ لم يكن ابن الاشعث معارضاً لسياسة الحجاج التوسعية ولكنه كان ضد فكرة ارساله وجند العراق الى اقصى بلاد سجستان في حين يظل جند الشام يتنعمون بالبقاء في العراق . في حين ان ثورة ابن المهلب كانت ضد العودة الى جوهر السياسة الامبراطورية التوسعية بما فيها طبعاً استعمال الجيش السوري في العراق وبقاؤه فيه .

وقد ذهبت بعض الروايات الى الزعم ان يزيد اراد بثورته القضاء على حكم بني أمية ونقل الخلافة منهم الى بعض بني هاشم ، كما ذهبت روايات اخرى الى حد تسمية المرشح الهاشمي الجديد[٤] . وتذهب روايات اخرى الى ان يزيد اتخذ لنفسه لقب « القحطاني » وانه رفع الرايات السود[٥] وهذه الاخبار

(١) كذا ص ١٣٩٧ .
(٢) كذا ص ١٣٩١ وابن اعثم – فتوح ج ٢ ص ١٧٢ ب .
(٣) كذا ص ١٣٩٨ .
(٤) العيون ص ٢٢ ، ٢٩ ، ٣٠ .
(٥) الذهبي ج ٤ ص ١٥٠ .

كلها مبالغات خيالية أُضيفت مؤخراً الى ثورة يزيد ولم يقم الدليل على صحتها . فلم يثبت ان يزيد المهلب اراد ابدال الحكم الاموي بل روى عنه بصورة واضحة صريحة انه لم ينقض بيعته ليزيد بن عبد الملك [1] ولكنه ثار ضده حين لم يجد بداً من هذه الثورة . فقد كان سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز يستطيعان ان يعلنا معارضتهما لسياسة الحجاج ويتابعاها بالطرق السلمية وذلك لمشروعية مركزهما وكبير مكانتهما ، ولكن لم يكن امام يزيد ابن المهلب لايقاف هذا المد الطاغي إلا اللجوء الى العنف وحمل السلاح .

وقد حاول فلهوزن ان يصور ثورة يزيد بن المهلب على انها صراع قبلي بين الازد وربيعة ضد قيس وتميم . وهو قول لا سند له في ما بين ايدينا من مصادر . وقوله هذا لا يفضح جهله بالاوضاع العامة في المملكة الاسلامية فحسب ، بل وجهله بهذه المصادر ايضاً [2] .

واهم ظاهرة في تاريخ هذه الفترة كلها هو ما روى عن انضمام فئة من الجيش السوري الى ثورة يزيد في حين نجد ان عرب خراسان ، والازد منهم خاصة ، وهم عشيرة يزيد وقرابته الادنون ، لم ينصروا الثورة ولم ينضموا اليها . وقد حاول يزيد اقناعهم بالانضمام اليه فأرسل اليهم اخاه مدركاً ، ولكن الازد هناك تعاونوا مع بني تميم في صده عن خراسان [3] .

ولم يجد عرب خراسان الذين ارضتهم سياسة عمر في خراسان موجباً للثورة وخاصة وان امير المؤمنين الجديد يزيد اقر لهم — حتى ذلك الحين — الوالي الذي عينه لهم عمر .

وقد التقى يزيد مع مسلمة بن عبد الملك وجيشه السوري في معركة قصيرة يسيرة قتل فيها يزيد نفسه فانهزم جيشه وتفرق اصحابه [4] .

---

(١) العيون ص ١٦ .

(٢) فلهوزن ص ٣١٤ .

(٣) الطبري ج ٢ ص ١٣٩٠ وابن الأثير – الكامل – ج ٥ ص ٥٦ .

(٤) الطبري ج ٢ ص ١٤٠٢ – ٥ .

واراد امير المؤمنين يزيد ان يقضي على كل اثر للمعارضة والثورة فعاد وجمع العراق وخراسان في ولاية واحدة واعطاها لقائده المظفر واخيه مسلمة عام ١٠٢/٧٢٠[١] وكان هدفه ضمان الاستقرار والهدوء في العراق وتنبيه عرب خراسان الى قوة الحكومة المركزية واستعدادها للبطش بهم اذا ما سولت لهم انفسهم الخروج على الحكم الجديد.

وقد ارسل مسلمة ختنه سعيد بن عبد العزيز والملقب سعيد خذينه، وهو أموي ايضاً، عاملاً له على خراسان[٢].

وكانت ولاية سعيد خذينة فاتحة عهد جديد في خراسان دام خمساً وعشرين عاماً تطورت فيه الاوضاع السياسية والاجتماعية في تلك البلاد تطوراً سريعاً عجزت حكومة بني أمية وعمالها عن مواكبة هذا التطور وضبطه، لهذا وجب علينا ان نتوقف هنا قليلاً لنصف الوضع في خراسان في هذه الفترة الحرجة.

٢ - المصالح المتغيرة للعرب والايرانيين في الشرق

على الرغم من وجود مستوطنات عسكرية في بخارى وخوارزم وحاميات عربية في سمرقند وبلخ، واخرى موقتة في بضع محلات اخرى، فقد ظلت واحة مرو هي المقر الرئيسي لزخم القبائل العربية في خراسان ولم تبذل أية محاولة لاسكانهم في مكان آخر في المقاطعة. وقد لاحظنا ان عملية الاندماج بين العرب الفاتحين والايرانيين سكان البلاد المفتوحة قد بدأت منذ ايام عبد الله ابن خازم (٦٤ - ٦٨٣/٧٢ - ٦٩١) ولكنها لم تكن آنذاك على نطاق واسع فلم تؤثر أو تغير في الانماط الاجتماعية في المنطقة.

ولكن سياسة قتيبة وان لم تهدف الى الدمج بين الجماعتين العربية والايرانية، فانها ساعدت على التقريب بينهما، على الاقل في ميدان القتال، وكانت النتيجة كما رأينا، هي تعاونهما ضد قتيبة نفسه. لكن هذا كله لم يوحد هاتين الجماعتين بل ظلتا منفصلتين مستقلتين.

---

(١) كذا ص ١٤١٦ - ١٤١٧.
(٢) كذا ص ٤١٧ - ١٤١٨.

ولم تكن الخطط التي جيء بالعرب بموجبها الى خراسان لتهدف الى اسكانهم واستقرارهم . وانما كانت تهدف أولاً وأخيراً الى تأمين المدد اللازم للجيوش العربية هناك لاستمرار الحروب وتوسيع رقعة دار الاسلام ، مع اتخاذ مرو قاعدة يقضون فيها فصل الشتاء القارص الذي لم يتعود العرب على قسوته في حين يقضون بقية ايام العام في ساحات الحروب . ولهذا فقد ظلوا — عن عمد وتدبير — خارج البنية الاجتماعية للجماعة الايرانية ، وكانوا — كما رأينا من قبل — قد نظموا من قبل قتيبة على اساس قبلي ليؤكد التمييز بين الجماعتين .

أما بالنسبة للسكان الايرانيين فان الفتح العربي لم يغير ايضاً من تركيبهم الاجتماعي شيئاً ذا بال، فلأن مرو كانت كما نعلم جزء من الامبراطورية الساسانية فقد كان النظام الاجتماعي السائد فيها هو نظام الطبقات الساساني الذي تتمتع بموجبه طبقة النبلاء المحليين (الدهاقين) بأوضاع وامتيازات خاصة . ومن الطبيعي ان يسعى هؤلاء الدهاقين للحفاظ على امتيازاتهم وسلطاتهم وإن أدى بهم ذلك الى التخلي عن ولائهم لسلطانهم وملكهم ومجاراة العرب الفاتحين الجدد كما رأينا ذلك بوضوح في امر ماهوية مع يزدجرد الثالث . وقد ظل الدهاقين، في ظل الحكم العربي وبموجب معاهدات الصلح ، متمتعين بما كان لهم من قبل من وضع خاص وامتياز على بقية الطبقات الايرانية . وقد ضمنت معاهدة مرو استمرار النظام القديم خير ضمان .

وقد اعتنق بعض الايرانيين الاسلام ، لكن ذلك كما يبدو ، لم يغير شيئاً في أوضاعهم الاجتماعية ، فهؤلاء وان الحقوا بالعرب كموالي . فانهم لم يندمجوا بالمجتمع العربي اندماجاً كاملاً . وقد استخدمهم العرب جنوداً في حملاتهم وسمح لهم الدهاقين بذلك بل وشجعوهم عليه إما اظهاراً منهم لحسن تعاونهم مع العرب ، او ربما كان هؤلاء الموالي الاوائل من بقية المحاربين الفرس الذين قضى الفتح العربي على مهنتهم الاولى ، وهي الجندية ، ولهذا فان من مصلحة الدهاقين ان يتركوا للعرب معالجة مشكلة هؤلاء الايرانيين فيعيدونهم الى الحرب ، عملهم الاول ، ويتكفلون بأجورهم على شكل الاعطيات . وكان من مصلحة العرب ان

يستفيدوا في جيوشهم من هؤلاء الجنود المدربين. وفي الواقع فقد روت مصادرنا ان قتيبة كثيراً ما عهد الى هؤلاء بالمهمات العسكرية الصعبة(1) .

واذا كان الدهاقين قد فقدوا سيطرتهم على بضعة الآلاف من الموالي فان نفوذهم وسلطتهم على بقية الايرانيين ظلت على ما كانت عليه بعلم من العرب ان لم يكن بتأييد منهم .

وقد ظل هذا النظام الاجتماعي قائماً حتى عهد عمر بن عبد العزيز حيث تعرض ولأول مرة الى تهديد خطير . اذ كان لا بد لسياسة عمر التي كانت تهدف الى صهر المجموعتين العربية والايرانية في مجتمع إسلامي موحد من ان تنتهي بإزالة النظام القديم وامتيازات النبلاء لا في مرو فحسب بل وفي انحاء خراسان كافة . واذا ما اريد لعملية الاندماج او الصهر ان تنجح كامل النجاح فلا يمكن إبقاء العرب خارج التركيب الاجتماعي بل لا بد من ان يكون لهم مكان فيه . واذا ما تم للعرب ذلك فانه لن يغير أسس التركيب الاجتماعي للجماعة الايرانية فحسب بل ويقضي القضاء المبرم على سلطان الدهاقين على رعاياهم الايرانيين .

وقد ادرك الدهاقين انهم اذا ما ارادوا الابقاء على اوضاعهم الحالية ومراكز نفوذهم فيجب عليهم الحفاظ على النظام القديم بكل ثمن ، وهذا بالتبعية يعني الابقاء على العرب في اماكنهم الحالية خارج الكيان الاجتماعي . وكان اسهل سبيل لتحقيق هذا الهدف هو التشجيع والحث على الحروب ودفع العرب اليها واشغالهم بها وابقاؤهم جنداً محاربين يقضون حياتهم في ساحات القتال .

لكن الغالبية من العرب اعتادوا على نمط من الحياة جديد وبدأوا يدركون منافع مراكزهم في خراسان فكانوا ميالين الى الهدوء والاستقرار والبحث عن الحلول السلمية التي تبعدهم عن الحروب وتغنيهم عن خوض المعارك والمعامع وتبقيهم حيث هم في حياة اللين التي ألفوها .

---

(1) كذا ص ١٢٨٠ .

ولم يكن العرب رجال مهن او صناعات فلم يعرف لهم بروز في هذة الميادين، وكان سهلاً على الدهاقين ان يقصوهم عن العمل الزراعي طالما كانت جميع الأراضي بيد الدهاقين انفسهم. وليس لدينا الكثير من الامثلة على تملك العرب لمساحات واسعة من الاراضي في خراسان في هذه الفترة، لهذا لم يبق من ميادين العمل الحر ما يستطيعون فيه استثمار ثرواتهم التي جمعوها من اعطياتهم من الغنائم والفيء الا التجارة. وخاصة في مكان مثل مرو يتوسط بلاد السغد وبقية انحاء الامبراطورية.

وإضافة الى هذا، فقد ظهر بين العرب في خراسان كما سنرى ذلك بعد قليل، تيار قوي يدعو الى عدم الذهاب الى الحروب تحدياً لأوامر الولاة في هذا الخصوص. ولهذا، وفي حين ظل بعض العرب مخلصين لجذورهم البدوية مفضلين الاستمرار في التوسع والفتوح، فان غيرهم اصبحوا الآن اكثر اهتماماً بمختلف ألوان الحياة الاخرى ويحاولون الاستقرار للانتفاع الكامل بالظروف الجديدة.

وفي قصة رواها المدائني تصوير واضح لهذا الاختلاف في اتجاهات العرب في خراسان، بالرغم ان القصة نفسها لا يمكن التسليم بصحتها تسليماً كاملاً فهي – حتى في حالة وضعها – تصور هذا الاختلاف.

قال المدائني ان يزيد بن المهلب انشأ في داره بخراسان حديقة جميلة، فلما اصبح قتيبة والياً استعمل هذه الحديقة حظيرة لإبله. ولما ابدى مرزبان مرو استغرابه من هذا العمل قال له قتيبة: كان ابي اشتربانياً وكان ابو يزيد بستانياً [1]. (والاشترباني سائس الابل).

وكان من الطبيعي للدهاقين ان يأتلفوا مع الجماعة الراغبة في الاستقرار لولا ان هذا الاستقرار سيؤدي الى زيادة اندماج العرب مع الايرانيين وبالتالي الى فقدان الدهاقين سلطانهم على رعيتهم الايرانيين. لهذا وجد الدهاقين ان مصلحتهم تقضي بأن يكونوا مع الحزب التوسعي اي حزب الحرب والفتوح

---

(١) ابن قتيبة – المعارف – ص ٢٨٣.

وان يضعوا ثقلهم في كفة الحكومة المركزية لترجح كفتها وسياستها التوسعية وذلك ليتخلصوا من العرب بدفعهم الى ميادين القتال بحجة التوسع والفتوح بدل ان يتعلموا حياة الدعة والاستقرار في أماكنهم الجديدة .

وكانت بلاد السغد محط انظار العرب دوماً لغناها ولطبيعة مركزها باعتباره ممراً للفتوح العربية في ذلك الاتجاه .

وبسبب انقسام البلاد السياسي وبسبب عدم وصول الامداد المنتظر لهم من الترك والصينيين لم يستطع السغد مقاومة التقدم العربي [1] . ومع ان العرب بقيادة قتيبة كانوا قادرين على تأسيس حكمهم هناك إلا أن أهل بلاد السغد وخاصة اهل سمرقند لم يكونوا قد استسلموا نهائياً ، فقد كانت هناك حركات مقاومة مستمرة وكانت هذه الحركات تسيطر على الوضع في بعض الاحيان .

وقد خُلع طرخون امير سمرقند الذي وافق على دفع الضريبة الى قتيبة ، ونصب خصمه غورك بدلاً عنه [2] ، فلما امر عمر العرب باخلاء بلاد ما وراء النهر خرجت سمرقند عن ولائها ، ولكنها عادت الى الطاعة من دون قتال .

وكما كانت هناك جماعات تدعو الى مقاومة العرب فقد كانت هناك جماعات اخرى تدعو الى التعاون معهم [3] ، وطالما كانت التجارة اهم العوامل في حياة اهل السغد فمن المعقول اذن ان نفترض ان هاتين الجماعتين انما كانت مدفوعة الى رأيها بمصلحتها التجارية . فقد كانت جماعة التعاون تحرص على الوفاق والتعاون مع العرب حتى ولو أدى ذلك الى دفع الاتاوات ، لانهم يرون ان الاهم والانفع هو استمرار تدفق التجارة بين السغد وخراسان مهما كلف ذلك من ثمن .

اما الجماعة المناوئة للعرب فكانت اكثر ما تهتم به هو التجارة مع الشرق، وكان يؤيدها في رأيها هذا ملاك الاراضي الذين كانوا يدعون الى الاستقلال [4].

---

(١) جيب : الفتوح العربية ص ٣٠ – ٣١ .

(٢) جيب : الفتوح العربية ص ٤٢ والطبري ج ٢ ص ١٢٢٦ .

(٣) جيب : الفتوح العربية ص ٤٨ الطبري ج ٢ ص ، ١٣٩ .

(٤) انظر ص ١٧٠ من هذا الكتاب .

وكانت مهمة غورك الصعبة هي حفظ التوازن بين الفريقين وخاصة عندما زادت قوةالجماعة المناوئة بظهور قوة الترك في الشرق .

فقد استطاعت قبائل الترك ، تحت حكم خان سولو (٧١٦ – ٧٣٨) ان تؤكد استقلالها وتجمع حولها الاتراك الغربيين وان تؤسس بمساعدة الصينيين مملكة جديدة في حوض نهر ايلي [١] . وقد التفت اهل السغد الى هذه القوة الجديدة راجين منها المساعدة ضد العرب ، وعلى ذلك فقد كتب على العرب ان يحاربوا الترك باستمرار عشرين عاماً في سبيل الحفاظ على سيطرتهم عبر نهر بلخ.

ولم يكن العرب غافلين عن أهمية التجارة بين الشرق والغرب ، بل جرت محاولات عدة منذ ايام قتيبة لضبط طرق التجارة في اواسط آسيا ، وقد روى ان قتيبة ارسل سفارة الى البلاط الصيني لاغراض سياسية وتجارية على حد سواء [٢] وفي كثرة السفارات العربية الى الصين بعد ذلك دليل على استمرار اهتمام العرب بالتجارة بين الشرق والغرب [٣] لهذا فيجب ان يكون العرب قد ادركوا اهمية الدور الرئيسي الذي يلعبه اهل السغد في مجرى هذه التجارة وبالتالي فهم – اي السغديون – الشركاء الطبيعيون لكل من يطمح في ان يضرب بها بقدح . وكان من المتوقع بعد هذا من هؤلاء العرب المهتمين بالتجارة ان يؤيدوا سياسة الوفاق مع اهل السغد الذين سيكونون شركاءهم في التجارة بين الشرق والغرب .

٣ – سعيد خذينة بين الوفاق والتوسع

ونحاول الآن ان نتتبع خطوط السياسة التي انتهجتها الحكومة الاموية وممثلها في خراسان لتدارك هذه الضغوط الداخلية والخارجية حتى نهاية الحكم الاموي .

---

(١) جيب : الفتوح العربية ص ٥٩ وكذلك جيب « الأثار الصينية عن العرب في اواسط آسيا » مجلة مدرسة الدراسات الشرقية (١٩٢٢) ص ٦١٣ – ٦٢٢ .

(٢) جيب – الفتوح العربية ص ٤٩ – ٥١ . وكذلك جيب « فتح كاشغار ص ٤٦٩ والطبري ج ٢ ص ١٢٨٠ .

(٣) جيب : الأثار الصينية ص ٦١٩ – ٦٢١ .

وفي نفس الوقت نحاول ان نتتبع رد الفعل لمختلف الفئات على هذه السياسة على ضوء مصالح تلك الفئات .

ويبدو ان سعيد بن خذينة لم يخرج كثيراً عن سياسة عمر إلا في حالات قليلة تأثرت فيها قراراته بالضغوط الخارجية التي هددت خططه وآماله .

وبعبارة اخرى ، فلانه كان يريد ان يعطي سياسة عمر فرصة طيبة للاثمار فقد قرر ألا يبدأ أي تغيير من جانبه . واحسن مثل على اتجاهه هذا هو سياسته في الغزو. فهي لم تكن – بالتأكيد – سياسة توسعية ما بل على العكس فقد كان في جانب الدفاع . وعندما ارسلت قوة تركية قوية تحت قيادة كورصول (١٠٢ – ٧٢١) لمساعدة السغد ضد العرب ، فانه اكتفى بطرد الغزاة من السغد ولم يتعقبهم [١] . كما قيل انه وان عبر النهر مرتين لكنه لم يجاوز سمرقند [٢] .

وكانت علاقاته مع السغد في منتهى الوفاق فقد ارسل عاملاً له على السغد شعبة بن ظهير ، ولربما كان قد استشار الدهاقين في تعيينه [٣] ومن المحتمل ان يكون شعبة هذا هو ابن ظهير احد اصدقاء السغد القدامى منذ ايام الحريث بن قطبة . وقد خرج شعبة الى سمرقند في خمس وعشرين رجلاً من اهل بيته على ان ينظم اليه مائتا رجل من بخارى ، ولكنه استطاع ان يعالج الوضع الدقيق هناك [٤] . وفي القتال ضد الترك فان غورك امير سمرقند قد أيد العرب بصورة ظاهرة كما لاحظ ذلك البروفسور جيب [٥] ، كما وان خذينة قد منع النهب والسلب في السغد وعمله هذا مخالفة واضحة لسياسة الولاة لآخرين من قبله [٦] .

لكن الاكثر اهمية والاشد غرابة من كل ما تقدم هو انه بينما كان الوالي

---

(١) الطبري ج ٢ ص ١٤٢١ . ٢٨ والبلاذري ، فتوح ص ٤٢٧ وجيب : الفتوح ص ٦٢ .
(٢) الطبري ج ٢ ص ١٤٣٠ .
(٣) كذا ص ١٤٢٠ – ١٤٢١ .
(٤) كذا ص ١٤١٨ .
(٥) جيب ، الفتوح العربية ص ٦٢ .
(٦) الطبري المصدر السابق ص ١٤٢٨ و ١٤٣٠ .

لعربي يمنع النهب والسبي ، كان حيان النبطي ، الذي كان حاضراً مع خذينة في هذه الحملة الصغيرة في السغد ، كان كما يروى ، متهافتاً على نهب السغد محاولاً جهده في إقناع الوالي على قتالهم ومحقهم [1] . ومن الطبيعي ، ان حيان بصفته ممثلاً لدهاقين مرو ، وهو نفسه من الاشخاص البارزين فيها ، فقد كان من دعاة سياسة الحروب المستمرة وكان يسعى الى احباط كل فرصة تسنح امام العرب لإقامة علاقات تجارية بينهم وبين اهل السغد [2] ولا بد انه ادرك ان استمرار سياسة عمر على يد الوالي الجديد خذينة ستؤدي لا محالة الى هدم طبقته وامتيازاتها ، وبالتالي فقد بذل جهده لاقناع الوالي بتغيير سياسته ، فلما فشل في ذلك لجأ الى الكيد والدس ضد الوالي بين ابناء القبائل العربية مما دفع بالوالي الى القضاء عليه فمات مسموماً [3] .

وبالقضاء على حيان استطاع خذينة ان يسيطر على الدهاقين بعض الوقت ولكنه لم يستطع ذلك مع الرؤساء العرب في خراسان الذين خالفوا سياسته ودعوا الى العودة الى سياسة التوسع لما تدره عليهم من الغنائم والاسلاب .

وبينما كانت هذه الامور تجري في خراسان ، كان الخليفة يزيد بن عبد الملك قد دعا اخاه من العراق وبعث بدلاً عنه عمر بن هبيرة . وكان عمر من تلامذة مدرسة الحجاج .

فما ان تسلم الوالي الجديد عمر ولاية العراق والمشرق حتى جاءه وفد من عرب خراسان بقيادة المجشر بن مزاحم السلمي [4] ، وهو نفسه من رجال الحرب البارزين في خراسان ، يشكون اليه سعيد خذينة [5] .

وكانت سياسة سعيد هذه قد ألبت عليه الجماعتين الرئيسيتين في خراسان

---

(١) كذا ص ١٤٣٠ .

(٢) البلاذري الفتوح ٣٣٧ .

(٣) الطبري ص ١٤٣١ .

(٤) كذا ص ١٥٤٤ .

(٥) كذا ص ١٤٣٦ والبلاذري الفتوح ص ٤٢٧ .

وهما العرب والايرانيون ، وهذا ما يسهل علينا ان نفهم سبب اطلاق خذينة – ومعناها المرأة الضعيفة – لقباً له، ولعل ذلك من فعل العناصر الايرانية المناوئة لاننا نجد بعض العرب تصفه بأنه « كالحسام المهند »(١) .

وعلى كل حال ففي عام ٧٢١/١٠٣ استدعى امير المؤمنين سعيداً ونحاه عن ولاية خراسان ليحل محله الرجل الذي اختاره امير المؤمنين نفسه : سعيد الحرشي .

٤ – سعيد الحرشي ومسلم بن سعيد : تشديد قبضة الحكم المركزي

كان الوالي الجديد سعيد الحرشي قائداً عسكرياً برز قبل مدة في قتال يزيد بن المهلب (٢) فعينه امير المؤمنين يزيد والياً على خراسان وما وراء النهر حتى فرغانه(٣) وقد قدم على مقدمته الى خراسان مجشر بن مزاحم السلمي الذي كان يشكو الى عمر بن هبيرة سياسة خذينة (٤) . وهذه كلها دلائل على تحول هام في السياسة نحو العنف والشدة .

وقد ادرك اهل السغد هذا التحول فارتحل قسم كبير منهم الى فرغانه رغم نصيحة غورك لهم بأن « لا يفعلوا ذلك ويقيموا مكانهم ويرضوا بحكم العرب » ولكنهم هجروا بلادهم قبل وصول الحرشي (٥) .

ومن الغريب انهم لم يهاجروا الى بلاد الترك كما هو المتوقع ، بل هاجروا الى مملكتي خجندة وفرغانه شبه المستقلتين . ومن الغريب ايضاً انهم لم يطلبوا مساعدة الترك الذين لم يظهر لهم اثر ابداً في بلاد ما وراء النهر طيلة ولاية الحرشي تاركين اهل السغد تحت رحمة العرب .

ومن المحتمل ان الترك كانوا يحاولون جمع قوتهم وتهيئتها ولم يكونوا في وضع

---

(١) الطبري ص ١٤٣١ .
(٢) كذا ص ١٤٣٨ .
(٣) ابن اعثم ، الفتوح ج ٢ ص ١٧٨ آ.
(٤) الطبري ص ١٤٣٨ .
(٥) كذا ص ١٤٣٩ – ٤٠ .

من القوة يؤهلهم لملاقاة الجيش العربي القوي ، ومن المحتمل كذلك بأن اهل السغد قد قرروا نقل مركز تجارتهم الى الشرق ليكونوا بعيدين عن العرب وليتجنبوا في نفس الوقت سيطرة الترك عليهم . ويبدو انهم لم يكونوا في شك من قبول ملك فرغانة لهم ، ولكن الواقع انه لم يكن يشعر في قرارة نفسه بقدرته على مخاصمة العرب ، ولهذا فقد ظل يتظاهر بمساعدة السغد في حين كان يخونهم ويتصل بالعرب سراً ويساعدهم ضدهم (١) .

ولم يضيع الحرشي وقتاً طويلاً بعد وصوله الى خراسان بل اعلن عن نيته على غزو ما وراء النهر (٢) . وقد حاول اول الامر اقناع السغد بالرجوع الى ديارهم لكنهم اصروا على رأيهم فزحف عليهم في خجندة يحاول ارجاعهم بالقوة(٣) ، واذ آيس السغد من نصرة ملك فرغانة فقد اضطروا الى طلب الصلح مع العرب (٤) . وقد وضع الحرشي السيف في النبلاء والعامة وكان عددهم بين الثلاثة الى السبعة آلاف نفر ولكنه استثنى التجار منهم وكانوا حوالي الاربعماية فلم يقتل احد منهم (٥) .

ولا بد ان تفسر رغبة الحرشي القوية باعادة تجار السغد الى موطنهم بعدم رغبته ان تفلت تجارة السغد من السيطرة العربية . وعلى كل حال فما ان حلت نهاية هذه الحملة ١٠٣ – ٧٢٢/١٠٤ حتى كان قد صالح جميع اهل السغد واعاد الى العرب حكمهم وسلطانهم على جميع البلاد (٦) .

وفي هذه الحملة وبالاضافة الى الموالي الذين كانوا بقيادة سليمان بن ابي السري ، فاننا نجد ذكراً للمجندين من اهل بخارى وخوارزم وشومان (٧) .

---

(١) جيب : الفتوح العربية ص ٦٢ – ٦٣ .
(٢) الطبري ص ١٤٣٨ .
(٣) كذا ص ١٤٤٠ . البلاذري، فتوح ص ٤٢٧ .
(٤) الطبري ص ١٤٤١ – ١٤٤٣ .
(٥) كذا – ١٤٤٥ .
(٦) كذا ص ١٤٤٨ والبلاذري فتوح ٤٢٧ .
(٧) الطبري ص ١٤٤٧ .

وقد ارسل الحرشي الى الخزينة المركزية خمس ما غنم في ميادين القتال ولكنه ابقى حصة خراسان من هذه الاموال فيها ولم يرسل منها شيئاً للشام او للعراق[1]. وبهذا سار الحرشي على المبدأ القديم المعمول به في خراسان والذي اكده عمر بن عبدالعزيز والذي يقضي بأن تصرف اموال خراسان في خراسان .

ولكن عمر بن هبيرة لم يرضه هذا الترتيب وحاول مراراً ان يقنع الحرشي بأن يرسل له المزيد من اموال خراسان[2] فلما ابى الحرشي ان يسمع كلامه ، عزله عن الولاية عام ١٠٤/٧٢٣ وعين بدله والياً آخر عرف بالنزاهة اي بالطاعة والاذعان لاوامر الحكومة المركزية في ما يخص الاموال[3] .

وكان هذا الوالي الجديد هو مسلم بن سعيد من احفاد اسلم بن زرعة الذي تعرفنا عليه في اول هذا الكتاب زعيماً من زعماء القبائل العربية في خراسان .

وقد بدت الاوضاع عند وصول الوالي الجديد وكأنها تبشر بالخير فما وراء النهر كان هادئاً والترغش لم يصبحوا بعد قوة تهدد العرب ، والسكان الايرانيون متعاونون مع العرب قد زالت عنهم عوامل السخط والاستياء منذ ان قتل حيان النبطي ، كما كانت القبائل العربية بادية الرضا والاطمئنان ، لهذا فقد ظنت الحكومة المركزية ان الوقت قد حان لها لان تشدد قبضتها على خراسان .

ومع ان مسلم نصح عمر بن هبيرة بأن لا يطمع من دخل الامارة بأكثر من الخمس ، وهو ما كان قد فعله الحرشي من قبل ، إلا أن هبيرة لم يقتنع بالنصيحة وامر مسلماً ان ينفذ الاوامر .

وتنفيذ الأوامر ، معناه إكثار حصة الحكومة المركزية وهذا يعني بطبيعة الحال خفض حصص عرب خراسان والاقلال من اعطياتهم .

---

(١) الطبري ١٤٤٨ وابن الأعثم ، الفتوح ج ٢ ص ١٧٨ ب .

(٢) الطبري ص ١٤٥٦ و١٤٥٩ — ٦٠ .

(٣) الطبري ١٤٥٨ وابن اعثم فتوح ج ٢ ص ١٧٩ آ .

وطلب ابن هبيرة كذلك من واليه مسلم بن سعيد ان يسترجع من اشراف العرب كل ما كان لهم من اموال سبق ان قبضوها زيادة عن اعطيات اموالهم [١] مخالفاً في هذا الاجراء المبدأ المقرر منذ أمد طويل بابقاء أموال خراسان فيها ، وكان الطبيعي والمتوقع الا يتقبل العرب هذا التحدي من الحكومة المركزية بسهولة وان يرفضوا امرها الذي ينقص اعطياتهم وينقض حقوقاً لهم اكتسبوها منذ زمن طويل .

لكن الواقع لم يكن كذلك ، فالظاهر ان انشغال غالبية العرب بالحصول على منابع أخرى للايراد كالتجارة والزراعة قد خفف من شدة ردود فعلهم على قرار الحكومة فمر الأمر بيسر لم يكن متوقعاً .

لكن القبائل العربية عمدت الى مواقف سلبية تكشف فيها عن معارضتها لهذا القرار الجديد وعدم رضاها عنها . وكان من ابرز هذه المواقف امتناعها عن الاشتراك في الحملات التي كان يزمعها الوالي الجديد مما اثار الحكومة المركزية وازعجها ، واذ فشل تهديد الوالي في اقناع الناس بالانضمام الى الجيش فقد ارسل اليهم نصر بن سيار ليحمل القبائل على الاشتراك بالقتال قسراً وعنوة [٢] .

وقد أدى استعمال القوة والقسر الى توتر الحال توتراً شديداً في البروقان وهي قرية قرب بلخ لها موقع عسكري ممتاز حملت المسلمين الى ان يقيموا فيها حامية عسكرية لتحمي المنطقة ضد أية حملة مفاجئة يقوم بها الاتراك الذين بدأت قوتهم تنمو وتزداد وبدأ تهديدهم للمراكز الاسلامية يشكل خطراً جدياً ظاهر الوضوح .

وقد برهنت الاحداث التالية على عظيم نفع هذه الحامية في البروقان في حماية مراكز المسلمين وعلى كبير جدواها كضرورة عسكرية املاها واقع الحال .

ولم يكن لافراد حامية البروقان ما يعتمدون عليه في معاشهم الا واردهم من

---

(١) الطبري ص ١٤٦٠ – ١ .

(٢) كذا ١٤٧٧ – ١٤٧٨ .

العطاء كمقاتلين، ولهذا فان أي خفض في اموال خراسان يؤدي الى خفض في العطاء ومن ثم في ايرادهم ويؤثر عليهم بالتالي – وأكثر من سواهم – أسوأ تأثير.

وقد رفضت هذه الحامية الانضمام الى الوالي في القتال احتجاجاً منها على اجراءاته المالية فأرسل عام ١٠٦/٧٢٤ نصر بن سيار إلى بروقان ليجبرها بالقوة على الانضمام الى جيش مسلم، فلما رفضت الحامية ذلك استمر القتال بينها وبين قوات نصر بن سيار.

وتصور المصادر العربية هذا الحادث على انه صدام قبلي بين مضر واليمن في حين انه لم يكن كذلك في جوهره، وان اعطته بعض الظروف العابرة لون الصراع القبلي. وخلاصة هذه الظروف ان حامية البروقان كانت في غالبيتها من الازد وبكر ولكنها لم تكن تخلو من بعض بني تميم الذي حاربوا مع زملائهم ضد نصر بن سيار، ومهما يكن من أمر، فان الاكيد ان قادة الحامية لم يكونوا من بني تميم.

اما قوات نصر فكانت في غالبيتها من بني عشيرته مضر، أي تميم وقيس، ومع بعض المجندين من اهل الصغانيان. وهذا الاختلاف بين طبيعة تركيب القوتين اضفى على الصدام لونه القبلي لكننا اذا حكمنا على هذا الصدام من عدد القتلى من الطرفين وكان بين الـ ١٨ والـ ٣٠ قتيلاً، تبين لنا ان الامر لم يكن على جانب كبير من الخطر (١) كما انه لم يكن ذا اثر بعيد المدى على العلاقات بين الفئتين المتخاصمتين كما ثبت ذلك من تعاونهما بعد اقل من عام واحد ضد سياسة خليفة مسلم في الولاية (٢).

وكان عمر بن هبيرة قد امر مسلم بن سعيد حين ولاه خراسان ان يعين له حاجباً يقدر على كسب ولاء الايرانيين له، وان يولي في كل بلد رجلاً يختاره اهل ذلك البلد (**).

---

(١) كذا ص ١٤٧٣ – ٧ واليعقوبي، تاريخ ج ٢ ص ٣٧٤ والبلاذري فتوح ٤٢٨.

(٢) انظر ص ١٨٣ من هذا الكتاب.

(**) جاء في الطبري: ليكن حاجبك من صالح مواليك فانه لسانك المعبر عنك ... ومر أهل كل بلد ان يختاروا لانفسهم، فاذا اختاروا رجلا فوله. فان كان خيراً كان لك وان شراً كان لهم دونك وكنت معذوراً.

وقد نفذ مسلم هذه الاوامر بكل دقة واخلاص فعين رجلين بارزين لمنصبين خطرين .

وكان اول هذين الرجلين ايرانياً يدعى بهرام سيس اذ عينه مرزباناً على مرو [١] . وكان هذا التعيين هو الأول من نوعه في تاريخ الحكم العربي في خراسان اذ لم يسبق للولاة العرب ان تدخلوا في اختيار الاشخاص وتعيينهم للمراكز البلدية مهما صغرت ، وانما كانوا يتركون للدهاقين – أي طبقة النبلاء من أهل البلاد – تفعل ذلك . ولم يكن هناك من دليل على ان هؤلاء الدهاقين لم يمارسوا حقهم هذا بكل حرية .

وكان الاجراء الوحيد الذي يقدم عليه الولاة العرب هو تعيين ممثلين شخصيين لهم للاشراف على شؤون المناطق المختلفة وبالأخص للاشراف على جمع الضرائب والخراج ثم قبضها .

لذلك فان إقدام مسلم على تعيين بهرام سيس لأعلى وظيفة في الجهاز الاداري المحلي وهو وظيفة المرزبان يعد سابقة خطرة تحمل في طياتها الكثير من المعاني وابرزها انه – المرزبان – وقد عين من قبل الوالي العربي ، فانه سيتولى سلطاته ويحكم الايرانيين باسم هذا الوالي العربي نفسه وهذه خطوة جريئة وهامة في محاولة دمج الادارة المحلية في الكيان الحكومي العربي . علماً ان بهرام بن سيس الذي اختير رائداً لهذه التجربة الخطرة كان امرءاً مقبولاً من السكان الايرانيين أنفسهم بدليل ما نجده في مصادرنا من اصداء شعبيته بينهم [٢] .

ولزيادة التأكد من نجاح هذه التجربة فقد أمر عمر بن هبيرة بانشاء وظيفة جديدة هي وظيفة الحاجب ، وكان الفرس يسمونها « على الخاتم » أو حامل الاختام بالاصطلاح العصري الحديث . وكان يشترط فيمن يعين لهذا المنصب ان يكون على علاقة طيبة بالسكان الايرانيين مما يدل على الدور الهام الذي يلعبه صاحب هذا المنصب في توطيد العلاقة بين الشعبين العربي والايراني .

---

(١) الطبري ص ١٤٨١ .

(٢) كذا ١٦٨٨ .

وكان أول من عين لهذا المنصب توبة بن ابي اسيد وكان نفسه مولى لبني العنبر ، وكان شخصاً معروفاً بالاستقامة والنزاهة والكفاءة فلم يزل يدير منصبه بكفاءة ونجاح حتّى ان اسد بن عبد الله حين جاء والياً على خراسان وخلفاً لمسلم بن سعيد فأقره في منصبه هذا [1] .

---

(١) كذا ١٤٨١ - ١٤٨٢ .

الفصل السابع

خطر الترك

١ – يوم العطش

دأب مسلم بن سعيد في ولايته على خراسان والتي دامت من عام ٧٢٣/١٠٤ الى عام ٧٢٥/١٠٦ على غزو بلاد ما وراء النهر كل عام . وقد تكللت حملتاه الأوليان بالنجاح الباهر لكن حملته الثالثة والأخيرة منيت بفشل ذريع ونكسة كبيرة ، وقد عرفت هذه الموقعة في المصادر العربية بمعركة يوم العطش وكانت عام ٧٢٤/١٠٦ ، وفيها التقى العرب ولأول مرة بجيش الترقش(**) بكامل عدته وعدده وكانت النتيجة في غير صالح العرب ،ومع ان بقايا الجيش العربي قد استطاعت التقهقر الى سمرقند إلا أن فداحة التجربة لم تشجع العرب على إعادة المحاولة ثانية .

« وكانت هذه المعركة » كما يقول البروفسور جيب « آخر معركة توسعية خاضها العرب فيما وراء النهر خلال الخمسة عشر سنة التالية ، ولكن الاهم من هذا بكثير هو الضربة التي اصابت سمعة العرب وكرامتهم في الصميم فتغيرت على اثرها الأدوار وانعكست فصار العرب في حال الدفاع وظلوا يتراجعون عن كل شبر تقريباً فيما وراء النهر »[1] .

وبعد وفاة يزيد بن عبد الملك في عام ٧٢٤/١٠٥ تولى الحكم اخوه هشام بن عبد الملك فعين خالد بن عبد الله القسري والياً على العراق واستعمل خالد

(**) تستعمل الفاظ الترقش، بالقاف او الغين او الكاف، كما تستعمل لفظتا الترك والاتراك للاشارة الى الاقوام التركية القادمة من الشرق .

(١) جيب : الفتوح ص ٦٦ .

اخاه اسد بن عبد الله اميراً على خراسان[1] فقدمها ووصل سمرقند ومسلم بن سعيد غاز في فرغانه غزوته الأخيرة غير الموفقة وكان كل ما استطاع اسد ان يعمله هو ان يعهد بقيادة الجيش الى رجل صاحب تجربة وباع هو عبد الرحمن بن نعيم ليؤمن انسحاب الجيش[2] .

ومن الجدير بالذكر هنا ان الموالي والمجندين من سمرقند شاركوا في هذه الحملة الى جانب العرب في حين ان بعضاً من اهل السغد وقوات شاش وفرغانه حاربوا العرب الى جانب الترقش[3] .

وما دمنا في صدد تتبع تطور الاحوال في خراسان في نفس هذه الفترة فيجب ان ندرك كل الادراك ان اندحار العرب في هذه المعركة لم يكن ضربة قاصمة لهيبة العرب وسمعتهم فحسب ، بل كان ضربة قاصمة ايضاً لوضع العرب في المنطقة عامة . ولا بد ان العرب انفسهم قد ادركوا واحسوا — بعد هذه المعركة — بجسامة الخطر التركي الذي يهدد حكمهم وبقاءهم في المشرق ، لذلك أصبح العمل على اتقاء هذا الخطر وإزالته هو حجر الزاوية في السياسة العربية في خراسان وظل كذلك حتى سقوط الترقش واختفائهم من المسرح السياسي والعسكري .

ومع ان الترك قد تغلغلوا في بلاد السغد في ولاية اسد (١٠٦ — ١٠٩/٧٢٤ — ٧٢٧) وظهروا امام سمرقند إلا أن الجبهة العربية ظلت على العموم هادئة . وقد استعمل اسد عاملاً له على سمرقند هو الحسن بن ابي العمرطه الكندي ، وقفل هو راجعاً الى مرو . ويبدو ان الحسن كان على علاقات طيبة مع السغد وهو على كل حال لم يعمل شيئاً ذا بال وقد كان موضع فخره انه استطاع حفظ السيطرة العربية في بلاد السغد دون ان يطلب أي مساعدة من المقر العام في خراسان[4] .

---

(١) الطبري ج ٢ ص ١٤٧٨ — ١٤٨٠ .

(٢) كذا ص ١٤٨٤ — ١٤٨٥ .

(٣) كذا ص ١٤٧٨ — ١٤٧٩ .

(٤) كذا ص ١٤٨٥ — البلاذري فتوح ص ٤٢٨ .

وفي مرو استمر اسد بن عبد الله على تنفيذ السياسة التي اتبعها سلفه وهي دمج الادارة المحلية بالكيان الحكومي العربي ، ولهذا الغرض فقد أقر توبة على وظيفته كما كان ايام مسلم حاجباً له «على الخاتم»[1] وعلى الارجح فان بهرام سيس ظل ايضاً مكانه مرزباناً على مرو.

٢ - اسد بن عبد الله القسري

محاولة فاشلة للتحالف مع الهياطلة ضد الترغش

ومن ثم حول أسد نشاطه الى ميدان غير متوقع تماماً. ففي خلال ولايته دأب على غزو المناطق الجبلية الوعرة في مناطق الغرشستان وغور[2]. فقد روي انه غزا الختل ١٠٨/٧٢٦ ولكن حين استعان اميرها بالترك تركها اسد وعاد الاغارة على جبال الغور.

وكما انه لا يمكن القول ان الحصول على الغنائم كان هو الغرض الدافع الى هذه الحملات. وكذلك فليس في مصادرنا ما يدل أو يشير الى ان هذه المنطقة كانت مصدر قلق أو متاعب للعرب أو كانت بها علائم من التمرد أو عدم الاستقرار. فقد كانت الامارات الهيطلية تحت سيطرة العرب تماماً وذلك منذ ايام قتيبة ، ولم يقم أسد بأي عمل ضدهم خلال حملاته هذه عليهم ، لهذا يجب علينا ان نتجه وجهة اخرى للتفتيش عن الأسباب الكامنة وراء حملة أسد في هذه المنطقة.

اننا نعلم ان اسد حين قدم خراسان لم يصطحب معه جيشاً من اهل العراق أو أهل الشام ، وهناك من الأدلة ما يؤيد ان عرب خراسان قد تباطؤوا في الالتحاق بحملته ضد الترقش وهو اتجاه بدا واضحاً منذ أيام سلفه مسلم واستمر حتى ايامه[3].

---

(١) الطبري ص ١٤٨٢.

(٢) الطبري ص ١٤٨٨ و ١٤٩٢ - ١١٩٣ والبلاذري فتوح ص ٤٢٨ وجيب - الفتوح العربية ص ٦٨.

(٣) الطبري ص ١٤٨٢.

ولم يكن المجندون من اهل وراء النهر ممن يعتمد عليهم كثيراً في حرب اعداء العرب وهم من ينظر اليهم سكان البلاد لخلاصهم من نير الفتح العربي ولهذا فكر اسد في خطة اثبتت الاحداث بعدئذ جدواها وهي ان يقيم تحالفاً بين العرب وبين الهياطلة وهم الاعداء التقليديون للترك .

وطالما لم يكن العرب ، وخاصة في الاوضاع السائدة آنذاك ، بالحليف الجذاب ضد عدو صامد كالترك ، كان لا بد لأسد من القيام بمناورة لاظهار قوته في مناطق الهياطلة فغزا واخضع القبائل الرحالة في جبال غرشستان والغور الذين اعتادوا الهجوم على السكان الهياطلة المستقرين حول هرات ، وفي هذا العمل ما يفسر سر الصداقة الحميمة بين اسد وخراسان دهقان هرات [١] .

وزيادة منه في محاولة التقرب من الهياطلة فقد قرر اسد نقل عاصمته من مرو الى بلخ فنقل اولاً من كان في البروقان من الجند الى بلخ واقطعهم مساكن فيها [٢] ويحتمل ان يكون هذا العمل قد اثار حفيظة سكان بلخ القليلين ويحتمل ان يكون هذا السبب الذي من اجله لقبوا اسداً بالزاغ [٣] أي الغراب الأسود .

ومهما يكن واقع الحال فقد استمر اسد في تنفيذ خطته وامر ان يعاد بناء المدينة [٤] ، ومع انه لم ينقل اليها رسمياً إلا بعد عشر سنوات من هذا التاريخ الا ان نيته على الانتقال كانت من الوضوح على جانب كبير .

إلا أن التحالف المنشود بين اسد والهياطلة لم يتحقق في ذلك الوقت لسببين اثنين : أولهما ان الهياطلة كانوا على ما يظهر غير متحمسين لاعلان العداء جهرة ضد الترك ، ما دام العرب – حلفاء المستقبل – في وضع ضعيف كالذي هم فيه .

---

(١) كذا ص ١٦٣٥ – ١٣٦ .

(٢) كذا ص ١٤٩٠ .

(٣) كذا ص ١٥٠٠ .

(٤) كذا ص ١٤٩٠ .

والسبب الثاني لفشل هذا الحلف المقترح هو معارضة بعض عرب خراسان انفسهم له، فلربما ادركت القبائل العربية - بتحريض من دهاقنة مرو - ما يترتب على انتقال العاصمة الى بلخ من انتقال لمركز السلطة والتجارة من مرو وما يستتبع ذلك من تقليص نفوذهم وضياع مركزهم الذي يمارسونه تحت هذا النظام .

وقد روي لنا ان نصر بن سيار وخصومه في البروقان قد اتحدوا معاً في معارضتهم لسياسة اسد وذهبوا في ذلك الى حد التآمر عليه مما دعا اسد الى سلوك طريق من العنف والقسوة غير مألوف وايقاع اشد ضروب الاذى والاهانة في حق هؤلاء الزعماء العرب البارزين في خراسان عقاباً لهم على معارضتهم له[1] وقد بعث بهم الى اخيه خالد في العراق ثم الى امير المؤمنين هشام في الشام، فلما وصلوا اليهما تيقنا ان ثمن التحالف مع الهياطلة سيكون خسارة خراسان نفسها ولذلك فقد استدعيا اسداً الى بغداد فقفل اليها ومعه بعض دهاقين خراسان [2] ولا يمكن ان يكون هؤلاء إلا بعض أمراء الهياطلة من انصار التحالف مع العرب .

٣ - الاشرس السلمي : قائد ناجح ووال ضعيف

بعد ان فشلت خطة اسد في التحالف مع الهياطلة لرد الترك الزاحفين فقد توجب على هشام ان يبحث لنفسه عن خطة اخرى يتقي بها مغبة الخطر التركي الزاحف .

وكان من الواضح انه غير راغب في إرسال جيش من العراق الى خراسان لان ذلك يزيد نار البغضاء اشتعالاً، ومع هذا فقد كان من الضرورة بمكان كبير إرسال مدد عسكري الى خراسان ليمكن جيشها من الوقوف في وجه الترقش ، لذلك لم يبق لهشام من خيار إلا أن يبعث الى خراسان بعضاً من الجيش السوري .

---

(١) كذا ص ١٤٩٨ والبلاذري فتوح ص ٤٢٨ .
(٢) كذا ص ١٥٠١ .

وليس في مصادرنا نص واضح بهذا الخصوص ، لكن ابن اعثم هو المصدر الوحيد الذي ذكر ان الوالي الجديد « اشرس » ، قد قدم خراسان عام ٧٢٧/١٠٩ على رأس جيش [١] .

وأكثر من هذا فان المدائني حين يروي اخبار رحلة الجنيد في عام ٧٣٠/١١٢ يؤكد وجود جيش من اهل الشام فيها مع الجيش العربي في خراسان [٢] ونحن نعلم ان الجنيد لم يقد الى خراسان جيشاً سورياً .

وكذلك فان اختيار الاشرس نفسه والياً على خراسان دلالة اخرى على ان الجيش السوري قد ارسل الى خراسان ذلك لان الاشرس نفسه كان قائداً بارزاً من قواد ذلك الجيش [٣] .

واستناداً الى الدور الذي لعبه جيش اهل الشام في حملات الجنيد ، نستطيع ان نحكم ان هذا الجيش لم يكن بالكثير العدد [٤] ولكنه كان من الكثرة والقوة بحيث يستطيع ان يساعد الوالي على اقناع القبائل العربية للانضمام الى الحملة ضد الترقش ولعل هشام تعمد عدم إرسال جيش سوري كبير ليتجنب إثارة مشاعر القبائل العربية في خراسان ونقمتها كما حدث ايام يزيد بن المهلب.

وكانت الطريقة الاخرى لاقناع القبائل العربية للالتحاق بالجيش هو القضاء على اسباب شكواها التي بدأت منذ عهد مسلم بن سعيد (١٠٤ — ١٠٦/ ٧٢٣ — ٧٢٥) ، وهذه الاسباب هي اقتطاع جزء من دخل خراسان وارساله الى الحكومة المركزية . وقد رغب هشام ان يكشف لعرب خراسان عن نيته في الاقلاع عن هذه الخطة حين جعل خراسان ولاية مستقلة تحت ادارة الأشرس الذي استمر يعمل تحت رقابة خالد القسري امير العراق [٥] .

---

(١) ابن اعثم فتوح ج ٢ ص ٢٠٢ ب .

(٢) الطبري ص ١٥٢٧ و ١٥٣٣ و ١٥٣٩ .

(٣) ابن الأعثم فتوح ج ٢ ص ١٢٠٢ .

(٤) الطبري ج ٢ ص ١٢٣٣ و ١٥٣٩ .

(٥) الطبري ص ١٥٠٤ .

وقد استقبل اشرس في خراسان خير استقبال وفرح الناس به وبالتدبير الذي صحب قدومه ، « وكان اشرس رجلاً فاضلاً خيراً وكانوا يسمونه الكامل لفضله عندهم »[١] ولكنه بعد ان اقام بخراسان قليلاً اخذ العرب والايرانيون في خراسان يلقبونه جغراً والجغر كلمة فارسية معناها الضفدع[٢] .

ويروي المدائني ان اشرس كان يتدخل في « صغير الامور وكبيرها بنفسه »[٣] فاذا سلمنا بفضل الاشرس وطيبته ، فهو – ككل الرجال العسكريين – لا خبرة له بالامور السياسية وبالتالي فليس من الضروري ان يكون والياً ناجحاً وخاصة في مقاطعة مثل خراسان بمشاكلها المعقدة ومتاعبها الشائكة . ولا شك ان تدخله في جميع الشؤون صغيرها وكبيرها قد زاد في تعقيد الامور السخط والاستياء بين العرب والايرانيين على حد سواء .

وقد وصف يحيي بن حضين رئيس بني بكر في خراسان اشرس بانه « خائن قومه »[٤] ولعل تفسير ذلك ان اشرس في اندفاعه لتجنيد الايرانيين قد اضطر الى محالفة بعض دهاقين خراسان الذين وجدوا فيه من ناحيتهم الرجل الذي يساعدهم على دفع القبائل الى ميادين القتال . وفي الواقع ان مقاتل بن حيان النبطي كان بين مستشاري اشرس[٥] .

واخبرنا المدائني ان اشرس كان اول وال في خراسان « اتخذ الرابطة » واستعمل على الرابطة عبد الملك بن دثار الباهلي[٦] من رؤساء العرب المرموقين في خراسان .

والرابطة حامية من الفرسان تعسكر على الحدود ولكن مصادرنا لا علماً بالمكان الذي رابطت فيه هذه الرابطة ولا بالذي كانت تفعله هناك .

---

(١) كذا ص ١٥٠٤ .
(٢) كذا ص ١٥٠٥ .
(٣) كذا ص ١٥٠٤ .
(٤) كذا ص ١٥٠٥ .
(٥) كذا ص ١٥٠٤ – ١٥٠٥ .
(٦) كذا ص ١٥٠٤ .

ومن الصعب ان نظن انهم كانوا في ما وراء النهر ضد الترقش خاصة واننا لم نسمع عنهم شيئاً ابداً خلال حملة اشرس. ولكن من الممكن انهم كانوا في مقاطعة جوزجان لحماية الجناح الشرقي من خراسان ضد اي هجوم محتمل من الترك عن طريق الختل، وخاصة حينما كان اشرس مشغولاً في غزوته في بلاد السغد.

وكانت المهمة الاساسية لاشرس ان يتقي الخطر التركي لذا كان عليه أولاً ان يؤمن مركزه مع السغد، والطريقة التي لجأ اليها اشرس لتحقيق هذا الغرض تبرر بما فيه الكفاية اطلاق لقب «الضفدع» عليه.

لقد فكر اولاً في اللجوء الى الطرق السلمية لتحقيق غرضه لذلك فقد دعى اهل السغد لاعتناق الاسلام مقابل ان ترفع عنهم «الجزية»، فاجابت الدعوة اعداد غفيرة دخلت الاسلام، ولكنه وبتحريض من اهل السغد انفسهم وجد ان كثرة الاقبال على الاسلام سيؤدي الى نقص خطير في الايرادات وبالتالي فلا يمكن جمع فريضة الصلح، لذلك عاد فنكث وعده وعاد الى اخذ «الخراج» ممن اسلموا [١].

وفي محاولة للمستر دينيت لشرح الاوضاع الناجمة عن رفع «الجزية» في خراسان توصل الى «ان الترتيبات المالية في كل من خراسان وبلاد ما وراء النهر كانت متشابهة فيما يخص الفريضة التي يدفعها البلدان الى العرب»، لكن المستر دينيت لم يدرك ان هذا هو الشبه الوحيد بين هذين البلدين [٢]، وكان خطأوه هو افتراضه بأن نظام الضرائب في ما وراء النهر هو نفسه نظام الضرائب الساساني في خراسان، ورغم عدم توفر المعلومات الكافية لدينا عن نظام الضرائب في بلاد ما وراء النهر فليس هناك ما يدعو للافتراض بأن النظام الساساني كان هو المطبق هناك. واذا كان التركيب الاجتماعي للامبراطورية الساسانية قد سمح بوضع ضريبة الرأس على بعض الطبقات فان

---

(١) كذا ص ١٥٠٧ – ١٥٠٨.

(٢) دينيث ص ١٢١.

التركيب الاجتماعي خارج المملكة الساسانية ، وخاصة في إمارات السغد ، لم يكن يسمح بمثل هذه الضريبة ، وعلى هذا وفي جميع الاحتمالات فقد كان على سكان تلك الامارات ان يدفعوا ضريبة الارض أو ضريبة التجارة الى أمرائهم ، وهذه هي الضرائب التي اعفوا منها حين اعتنقوا الاسلام حسب ما وعدهم به اشرس .

اما النقاش الذي قدمه دينيت ليبرر فيه نظريته وهي ان اشرس رفع ضريبة الرأس ، « الجزية » ، عن من اسلم على اساس تعريف كلمتي الجزية والخراج في رواية الطبري لهذه الاحداث ، فان هذه النظرية لا يمكن الاخذ بها لان هاتين الكلمتين تأتيان في رواية الطبري نفسها لتدلان على نفس المعنى ، ولان الواقع ان التفرقة بين هاتين الكلمتين لم تكن قد تطورت بعد الى معنى واضح محدد لكل منهما[1] .

وقد اصدر اشرس اوامره هذه بناء على نصيحة مضللة من ابي الصيداء صالح بن طريف نائبه لجباية الخراج في بلاد السغد ، وهو — اي ابو الصيداء — نفسه من الموالي وكان على علاقة طيبة بالسغد وكان يعتز كثيراً بهذا الامتياز الذي قدمه لأهل السغد الى حد انه ثار وتمرد حين غير اشرس رايه واعاد « الجزية » على من اعتنق الاسلام .

وكان اشرس قد ادرك خطأه حين وجد ان النظام الجديد لا يمكن ان يعمل به في السغد بنفس الطريقة التي يعمل بها في مرو ، وحين استمع الى شكاوى دهاقين السغد ضد هذا الترتيب الجديد الذي كان معناه في نظرهم القضاء التام على كل ايراد المنطقة ، اذ لم يبق هناك من يدفع الضرائب ، عاد وبطريقته العسكرية القاطعة فأمر بأخذ الضرائب ممن كانوا يأخذونه منهم كما كان الامر من قبل ، بصرف النظر عن مركز الشخص أو ديانته ، لكن هذا العمل أغاظ قسماً كبيراً من اهل السغد كما اغاظ معهم بعض العرب الذين رأوا في عمل الوالي نقضاً للعهود مع اهل السغد الذين يريدون للعرب معهم علاقات

---

(١) دينيث ص ١٢٢ — ١٢٣ .

افضل . وعلى هذا وذاك فقد خرج من سمرقند سبعة آلاف رجل[1] وانضم لنصرتهم بعض العرب الناقمين ولجأوا الى المقاومة المسلحة لكن سرعان ما قمعت حركتهم . إلا أن المشكلة الخطرة الآن هي ان السغد طلبوا نصرة الترك لهم ضد العرب لذلك فقد فوجئ اشرس بظهور الخاقان وجيوشه امامه في بلاد السغد عام ١١١/٧٢٩[2] .

وقد انتهت الحرب بين العرب وخاقان الترك لصالح الاخير ، واضطرب وضع العرب جداً[3] فلما علم هشام بما آل اليه امر خراسان ادرك انه بعث لها بالرجل الخطأ فعزل اشرس عن الولاية وولاها قائداً آخر من قواد جند أهل الشام هو الجنيد بن عبد الرحمن المرى الذي اسرع الى خراسان وبرفقته خمسماية رجل من رجال قبيلته[4] .

٤ ــ الجنيد المري : معركة الشعب

توجه الجنيد الى ساحة الحرب رأساً وقد وصل اليها بعد صعاب ومشاق واجهته بسبب قوة الترك وكثرة عددهم ، وهناك تسلم قيادة المعركة من الجنيد في عام ١١١ ــ ١١٢/٧٣٠ . وقد استطاع ان يغير ميزان المعركة الى صالح العرب وان يحقق النصر على الترك في زرمان على بعد سبعة فراسخ من سمرقند[5]. وبهذا خلصت بلاد السغد للعرب ورجع الجنيد الى مرو بعد ان ترك في سمرقند قوة كبيرة تقدر بـ ١١ الف رجل[6] .

وبطبيعة الحال فقد سر الجنيد بهذا النصر فهيأ في العام التالي ١١٢ ــ ١١٣/ ٧٣١ جيشاً كبيراً زحف به الى ارض الهياطلة حيث عسكر قرب النهر وبعث عساكره تغزو في مختلف الاتجاهات .

---

(١) الطبري ص ١٥٠٨ ــ ٩ والبلاذري فتوح ص ٤٢٨ .

(٢) الطبري ص ١٥١٠ .

(٣) كذا ص ١٥١٢ ــ ٢٥ ، وجيب ، الفتوح العربية ص ٧٠ ــ ٧٢ .

(٤) الطبري ص ١٥٢٧ ــ ٣٣ والذهبي ج ٢ ص ٢٣٩ .

(٥) الطبري ص ١٥٢٨ وجيب : الفتوح ص ٧٢ ــ ٧٣ .

(٦) الطبري ص ١٥٤٠ ــ ٤٦ .

وقد ارسل قوة عسكرية قوامها ١٨ الف رجل الى إمارة طخارستان حيث قمعت ثورة هناك ، وليست لدينا معلومات وافية عن مغاز اخرى رغم ان إحداها كانت تتألف من ١٠ آلاف رجل ، ويبدو انهم ارسلوا الى مكان ما بين الطالقان وهرات في جبال الغور وغورشستان في المكان الذي حارب به اسد بن عبد الله اثناء ولايته[١] .

وفي خلال هذه الغزوة رأى الجنيد ان يقوي مركز العرب ويستأصل كل محاولة لثورة السكان ضده قد يشجع عليها ظهور الجيش التركي .

وخلافاً لتوقعات الجنيد فقد ظهر الترك ثانية امام سمرقند ، ولذلك فقد اوقف كل العمليات جنوب النهر واسرع الى نجدة سمرقند حيث كانت الحامية العسكرية فيها في مأزق خطر خاصة حين مال غورك – امير سمرقند – الى جانب الترك وانضم جبغويه طخارستان الى عسكر الخاقان ايضاً .

ورغم ان حامية سمرقند قد أبيدت عن آخرها ، وان معركة الشِعْب بين العرب والترك لم تكن نصراً خالصاً للعرب ، إلا أن الجنيد استطاع الابقاء على سمرقند بيد العرب واستطاع ان يجبر الترك – بعد عدة معارك حامية – على الانسحاب تاركين ارض السغد بيد العرب ثانية . وقد اكتفى الجنيد بهذه النتائج وقفل الى مرو[٢] .

وكان جيش الجنيد في هذه الغزوة مكوناً من القبائل العربية الموجودة في خراسان وهناك اشارات الى وجود بعض جند اهل الشام معه ولكنهم على ما يبدو لم يكونوا بذي عدد كبير . وكان مشاة الجيش الفاً وستماية رجل فقط وكلهم من موالي خراسان فقط وكانوا بقيادة عبد الله بن ابي عبد الله مولى سليم الذي كانت مشورته للجنيد في هذه الغزوة ذات نفع كبير [٣] .

وهناك إشارة ايضاً الى « الف من المسلمين من اهل سمرقند » كانوا ضمن

---

(١) كذا ص ١٥٣٢ والبلاذري فتوح ص ٤٢٩ .

(٢) جيب الفتوح العربية ص ٧٣ – ٧٦ ، الطبري ص ١٥٣٢ و ١٥٥٢ .

(٣) الطبري ص ١٥٣٨ . ٥٢ .

الحامية هناك »[1] . اما « العبيد » الذين صاحبوا الجيش العربي فقد وعدهم الجنيد بالحرية لحسن بلائهم في الحرب الى جانب العرب[2] .

وفي طريق العودة الى مرو التحقت بالجنيد في الصغانيان امدادات عسكرية من العراق تقدر بعشرة آلاف رجل من اهل الكوفة ومثلها من اهل البصرة[3] .

---

(١) كذا ص ١٥٤٦ .
(٢) كذا ص ١٥٤٣ و ١٥٥٣ .
(٣) كذا ص ١٥٥٢ .

الفصل الثامن

تنظيمات هشام

١ – اهل التقادم في خراسان (*)

من الغريب ان الجنيد لم يقم في السنتين المتبقيتين من ولايته بأية غزوة جديدة رغم الامداد الكبير الذي وصل اليه من البصرة والكوفة اثناء قفوله الى مرو ، وقد جاء في الاخبار ان قد « اصاب الناس سنة ٧٣٣/١١٥ قحط شديد ومجاعة في خراسان » وربما كان ذلك في مرو فقط ولكنه على كل حال لم يكن السبب لإيقاف العمليات العسكرية لانها سبق ان توقفت قبل التاريخ هذا بعام[1] .

وفي مصادرنا فجوة مستغربة في حوادث هاتين السنتين ، فرغم انها تروي لنا قصة ثورة قام بها الحارث بن سريج عام ٧٣٤/١١٦ وتنقل لنا عن وجود قبائل عربية في غير مرو ، وليس في بلخ وحدها فحسب ، بل وفي مقاطعة جوزجان وفي مرو الروذ، ولا بد ان انتقال العرب إلى هذين البلدين الأخيرين قد حدث خلال السنتين الاخيرتين من حكم الجنيد على وجه التقريب .

ويبدو وكأن تنظيمات ادارية قد حدثت في خراسان خلال هذين العامين كان هدفها المساعدة على معالجة الاوضاع القائمة والامور الحادثة وخاصة ما يتعلق منها بوضع القبائل العربية في خراسان .

وكان العاملان الجديدان المؤثران في الوضع الجديد في خراسان هما أولاً

(*) اهل التقادم – تعني هنا العرب المستقرين الأوائل في مرو .

(١) الطبري ج ٢ ص ١٥٦٣ .

وصول العشرين الف جندي من اهل العراق الى خراسان وثانيهما الامر الذي انفذه هشام الى الجنيد مع هذه الامدادات والقاضي بتجنيد ١٥ الف رجل. ومن المهم هنا ان نلاحظ بدقة نص رسالة هشام اذ قال « فافرض فلا غاية لك في الفريضة لخمسة عشر الفاً »[١].

أما عن المدد القادم من البصرة والكوفة فيذهب البروفسور جيب الى انه ارسل الى سمرقند. ويبدو من ظاهر الحال ان رواية المدائني تؤيد الى حد ما صحة هذا الرأي[٢] ولكننا لو أخذنا خبراً آخر من نفس الرواية واضفناه الى الجزء الأول من الخبر نفسه لاتضح لنا جلياً ان هذا المدد العسكري قد أرسل الى مدينة مرو وليس إلى سمرقند[٣]. فمما يؤيد رأينا في ذهاب هذا الجيش الى مرو وعدم ذهابه الى سمرقند الاخبار القائلة ان غالبية جيش اسد بن عبد الله ضد الحارث بن سريج في مرو في عام ٧٣٥/١١٧ كانت من جيش اهل العراق، في حين لم نجد في المصادر ما يشير الى انسحاب هذا الجيش من سمرقند الى مرو لو كان قد ذهب أولاً الى سمرقند[٤].

وأكثر من هذا فان الظروف التي استعادت فيها سمرقند استقلالها حينئذ تدل على ان حاميتها كانت قليلة العدد ولا يمكن ان يبلغ تعدادها العشرين الف رجل[٥].

وإذ ظل جيش أهل الكوفة جماعة متميزة بذاتها فإن العشرة آلاف رجل من اهل البصرة قد اندمجوا – بعد وصولهم، على اكثر الاحتمالات – في اخماس خراسان لذلك لم نعد نسمع لهم ذكراً كجماعة مستقلة.

والعامل الثاني الجديد في تقرير الوضع في خراسان هو امر امير المؤمنين

---

(١) كذا ص ١٥٤٥.

(٢) جيب: الفتوحات العربية ص ٧٥ والطبري ص ١٥٥٢ – ٣.

(٣) الطبري ص ١٥٥٤.

(٤) كذا ص ١٥٨٢.

(٥) جيب المصدر السابق ص ٧٩.

هشام الى واليه الجنيد لتجنيد ١٥ الف رجل وهو امر يحتاج الى مزيد من الشرح والبيان مما سنحاوله فيما يلي :

يقول ابن اعثم ان عدد المسلمين كافة في خراسان لم يكن يتجاوز ٤٣ الف رجل[١] حين بدأ الجنيد أول غزواته عام ١١٢ – ٧٣١/١١٣ وقبل هجوم الترك المفاجئ على سمرقند . وطبيعي ان يظن المرء ان هذا العدد يعكس ما كان مسجلاً في الديوان ، ولا موجب للشك في صحة هذا الرقم طالما يبدو معقولاً .

ويخبرنا المدائني ان الموالي في جيش الجنيد كانوا في ذلك العام ١٦٠٠ رجل فقط ، بالاضافة الى الف رجل من مسلمي سمرقند ممن يمكن ان يكونوا ضمن الرقم الذي ذكره ابن اعثم[٢] .

فاذا اخذنا بنظر الاعتبار ان عشرة آلاف رجل عربي على الاقل قد أُبيدوا في هجوم الترك المفاجئ على حامية سمرقند ، فان ذلك يعني ان العرب المسجلين في الديوان كانوا ثلاثين الفاً فقط[٣] وقت ان اصدر هشام امره بتجنيد خمسة عشر الف رجل . وعلى الرغم من احتمال وجود عدد من العرب ممن لم يسجلوا في الديوان فان العدد ثلاثين الفاً الف يمثل اكثرية العرب الموجودين في خراسان .

وكان هشام يعلم كل العلم بتقاعس العرب عن الانضمام الى الغزوات ضد الترك حتى انهم كانوا يحملون على الالتحاق بالجيش الغازي عنوة وقسراً .

ونحن نعلم ايضاً ان هشام كان حازماً ودقيقاً حول ضرورة اشتراك اهل الديوان في جميع الغزوات[٤] ولهذه الاعتبارات جميعها يصعب علينا الاعتقاد بأن هشام اراد من امره تجنيد خمسة عشر الف عربي آخر من الموجودين في خراسان العازفين عن القتال ، كما انه من الاصعب ان نعتقد انه قصد تجنيد هذا العدد من الموالي طالما لم يكن عدد من اعتنق الاسلام من اهل خراسان

---

(١) ابن اعثم الفتوح ج ٢ ص ٢٠٤ آ .

(٢) انظر ما تقدم ص ١٨٩ من هذا الكتاب .

(٣) الطبري ص ١٥٤١ .

(٤) كذا ص ١٧٣١ – ٢ .

عالياً بحيث يسمح باختيار هذا العدد منهم ، وخاصة اذا علمنا ان جميع الموالي في جيش الجنيد لم يكن ليتجاوز الـ ١٦٠٠ رجل عدداً .

ولهذا واذا نظرنا ملياً في نص الامر الذي اصدره هشام نستنتج ان هشاماً لم يكن يأمر بتجنيد رجال جدد كما يبدو من ظاهر امره وانما كان على العكس من ذلك يحدد عدد المجندين بحيث لا يزيدون عن الخمسة عشر الف . اذ انه يقول : « فأفرض فلا غاية لك في الفريضة لخمسة عشر الفاً » أي فجند الى حد الخمسة عشر الف اذ لا فائدة لك فيما زاد عن ذلك .

وبكلمة اخرى فان هشام الذي ادرك حق الادراك عزوف غالبية القبائل العربية في خراسان عن الانضمام الى الغزوات ، قد امر واليه ان يسقط هؤلاء من الديوان في نفس الوقت الذي كان يبعث اليه بالمدد الجديد من اهل الكوفة واهل البصرة ممن كانوا اكثر رغبة واندفاعاً للاشتراك في الغزو والقتال من العرب المقيمين في خراسان .

وهكذا فالحقيقة ان هشام كان يحاول ادخال تغيير جذري في وضع العرب في خراسان بعد ان اتضح له عقم كل محاولة من جانبه لمنع عملية الاندماج التي بدأت تضرب بجذورها بين هؤلاء العرب الساكنين خراسان فجعلتهم غير اهل للاعتماد عليهم في تنفيذ أية سياسة توسعية بل وحتى في الدفاع عن الأراضي المحتلة ضد الهجمات الخارجية ، ولذلك قرر ان يخضع لحركة الاندماج هذه وان يكتفي بتجنيد خمسة عشر الفاً من هؤلاء فقط وتسجيلهم في الجيش والديوان ، وبهذا يسمح لهذا العدد فقط أو ما يقاربه بالاستقرار في خراسان على ان يملأ الفراغ الناشئ عن استقرار هؤلاء « العرب المستقرين » بعشرين الفاً من اهل الكوفة والبصرة ممن لم يعرفوا حركة الاندماج بعد .

وكانت مشكلة اندماج القبائل العربية في خراسان في الكيان الامبراطوري العربي للامبراطورية الاموية قد خفت حدتها لتدع المجال لمشكلة اندماج العرب في خراسان مع ابناء البلاد الايرانيين لتحتل مكان الصدارة .

وكانت القبائل العربية ، قبل تنظيمات هشام ، قد ظلت حيثما استقرت

خارج الهيكل الاجتماعي لمرو واقتصر ايرادها على نصيبها من العطاء . ولكنهم بالنسبة للتنظيم الجديد فقد انقسموا الى قسمين متميزين : المقاتلون والمستقرون . وعلى حين ظل المقاتلون يعيشون خارج الكيان الاجتماعي لمرو فقد وجد المستقرون لهم مكاناً داخل ذلك الكيان ، الامر الذي لم يُرضِ – بطبيعة الحال – دهاقين مرو الذي لا يرضون بأي « وضع اجتماعي خاص » يمنح الى هؤلاء المستقرين مما قد يهدد الامتيازات الوافرة التي يتمتع بها الدهاقين انفسهم في ظل النظام الاجتماعي الراهن .

ان اتمام هذه التنظيمات وبكل هدوء ، ودون ضجة ومن غير ان تثير ثائرة احد من الناس او الجماعات لهو دلالة واضحة على انها وضعت ونفذت بكل كفاءة وبشكل مرضٍ للجميع ، وكانت السابقة التي وضعت ايام أُمية بن عبد الله (٦٩٧/٧٨) باخضاع بعض العرب الى سيطرة الدهاقين من حيث جمع الضرائب قد امتدت لتغطي الوضع الجديد[١] . وعلى هذا فقد اندمج المستقرون بالكيان الاجتماعي بنفس الوضع الذي كان يخضع له المسلمون الجدد من اهل ايران ، فكلهم يخضعون لسلطة دهاقين مرو ، وقد ادى تعسف الدهاقين في استعمال سلطتهم الى تدخل نصر بن سيار ضدهم عام ٧٣٩/١٢١ ايام ولايته على خراسان .

وعملاً بتنظيمات هشام فقد كان المقاتلة ، او الجيش العربي في خراسان ، مكوناً من ١٥ الف رجل من افراد القبائل العربية ومن موالي خراسان وعشرين الف رجل من قبائل اهل الكوفة واهل البصرة الذين وصلوا حديثاً مدداً للجنيد ، بالاضافة الى وحدات قليلة من جند اهل الشام . وعندما توفي الجنيد عام ٧٣٤/١١٦ كانت غالبية هذه الجيوش تعسكر خارج مرو ، فكان منها في بلخ حوالي العشرة آلاف نفر بقيادة نصر بن سيار . ولعلنا ان نستدل من وجود احد ابناء عم الجنيد في مركز مرموق في بلخ على ان جيش اهل الشام يكوّن قسماً من جيش بلخ هذا قد يبلغ تعداده الألفين والخمسمائة نفر . اما بقية

---

(١) انظر ص ٩٦ من هذا الكتاب .

الجيش فقد كان مؤلفاً من افراد القبائل العربية بقيادة بطل المقاتلة نصر بن سيار [1] .

وكانت هناك حاميات عربية على معابر نهر بلخ الثلاثة ، فكانت الحامية الاولى عند الترمذ بقيادة سنان الاعرابي السلمي ، والثانية عند زم بقيادة الهيثم الشيباني والثالثة في آمل بقيادة خالد بن عبيد الله الهجري [2] . وكان في حامية الترمذ بعض من جند أهل الشام [3] وكان في النخوذ في مقاطعة جوزجان جيش لا يقل عدده عن اربعة آلاف نفر بقيادة الحارث بن سريج التميمي . وكان قوام هذا الجيش من الازد وبني تميم في خراسان [4] . وأخيراً فقد كانت في مرو الروذ حامية صغيرة بقيادة عبد الله بن عمرو المازني [5] .

ومن هذا يبدو وكأن هشام وان سمح لبعض القبائل العربية بالسكن والاستقرار في مرو إلا أنه في الوقت نفسه قد خطط لوقف المزيد من انسحاب القبائل العربية في خراسان من الجيش هناك ، كما وخطط في نفس الوقت لكسر طوق السيطرة التي فرضتها تلك القبائل على مرو . ولذا فقد عسكر القادمون الجدد من اهل الكوفة والبصرة في مرو بالقرب من الوالي ليكونوا جيشه الدائم وليحلوا محل جند أهل الشام ، اما بقية القبائل العربية المسجلة في الديوان فقد نقلت الى محلات جديدة خارج مرو يستطيعون منها الدفاع عن خراسان نفسها ضد أي هجوم خارجي وخاصة من جهة الترغش .

ونستدل من الروايات القائلة ان افراد هذه القبائل قد اصطحبوا معهم عائلاتهم الى هذه الاماكن الجديدة على ان الاجراء لم يكن عابراً أو موقتاً وانما كان يقصد به الى الاقامة الدائمة والاستقرار المديد [6] ، وما وجود بعض عناصر من

---

(١) الطبري ص ١٥٦٦ — ٧ .
(٢) كذا ص ١٥٨٢ و ١٥٨٣ و ١٥٨٥ .
(٣) كذا ص ١٥٨٣ .
(٤) كذا ص ١٥٦٩ — ٧٠ .
(٥) كذا ص ١٥٨٠ .
(٦) كذا ص ١٥٨٩ .

جند أهل الشام في هذه الاماكن الجديدة إلا لتأمين وجود عناصر موثوق بها ولا يشك في ولائها للحكومة المركزية تؤيد وجود الوالي وحكمه في هذه المواقع العسكرية الهامة .

٢ ـ ثورة الحارث بن سريج

اختلفت ردود فعل القبائل العربية في خراسان تجاه هذه الخطة الجديدة وتراوحت بين التأييد الكامل ، في حالة واحدة فقط الى التمرد والعصيان في حالات عدة . فلم تر هذه القبائل ان من الانصاف ان تكافئهم الحكومة جزاء اخلاصهم لها وتضحياتهم في سبيلها باخراجهم من مرو التي اعتمروها موطناً لهم منذ أن وطأت اقدام العرب ارض خراسان ، وبنقلهم الى اماكن اخرى لم يألفوها ، في عمل هو في الحقيقة بمثابة النفي والابعاد وانزال القصاص بهم ، اذ ان خروجهم من مرو سوف لا يحرمهم من المكاسب الوافرة التي حصلوا عليها نتيجة إقامتهم الطويلة في هذه المدينة فحسب ، بل وسينقل هذه المكاسب لتكون من نصيب القادمين الجدد الذين لم يتمرسوا في الصراع الطويل من اجل نيل تلك المكاسب ، او للمقيمين الذين لم يشتركوا يوماً ما في حرب او قتال ، بل ولم يؤبه لهم فلم يسجلوا في الديوان . وعلى هذا وذاك فان هذا التحول المفاجئ من حياة نصف الاستقرار التي عرفوها في مرو الى حياة الحرب الصرفة في الاماكن الجديدة هو خسارة ولا شك لافراد تلك القبائل .

وقد حصل اول تمرد ضد هذه السياسة اثر وفاة الجنيد عام ١١٦/٧٣٤ ، فقد خرج الاربعة آلاف رجل المعسكرون في النخوذ من ارض جوزجان في اقصى البلاد وثاروا بقيادة الحارث بن سريج وزحفوا نحو بلخ حيث وجدوا مقاومة ضئيلة من نصر بن سيار وجيشه المكون من عشرة آلاف رجل [1] ، ومع ان جيش بلخ لم ينضم الى الحارث فانه لم يمل ايضاً الى جانب جيش مرو حين هاجمه الحارث .

وأكثر من هذا ، فان والي خراسان الجديد عاصم بن عبد الله الهلالي ، لم

---

(١) كذا ص ١٥٦٦ ـ ٧ .

يستدع جيش بلخ هذا لمساعدته ضد الحارث رغم ما لمساعداته – ان تمت – من قيمة استراتيجية هامة اذ تضع جيش الثوار بين نارين .

ولما رأى أمراء الهياطلة في جوزجان والفارياب والطالقان انتشار الثورة بين صفوف العرب انفسهم ، وبعد ان ايقنوا من حياد الجيش في بلخ ، انضموا الى صفوف الحارث بجيوشهم ، ولعلهم رأوها فرصة سانحة لتحرير بلادهم من نير العرب أو ربما لتشكيل إمارة عربية في مرو تكون تحت سيطرتهم . وكذلك انضمت حامية مرو الروذ الى قوات الثورة التي بلغت الآن زهاء الستين الف رجل فزحف بها الحارث نحو الهدف الرئيسي : مرو (١) .

وقد ادرك الوالي الجديد عاصم ، الصعوبة والخطر الكامنين في استعمال جيش مرو لقتال اخوانهم اتباع الحارث ، ولهذا فما ان علم بالثورة في النخوذ حتى وجه الى الحارث وفداً من الرؤساء العرب في مرو يصحبهم مقاتل بن حيان النبطي ليفاوضوا الحارث في حل سلمي (٢) . لكن الحارث لم يكن مستعداً للتفاوض ، ربما لانه كان يعلم ان الوالي عاصم لن يستطيع ان يغير في الوضع شيئاً إلا برضى هشام وامره .

ولما تقدم الحارث بقواته الثائرة نحو مرو ، بلغ عاصماً ان بعضاً من اهل مرو ، ربما كانوا من ابناء القبائل التي تتبع الحارث ، يميلون الى الحارث ولا يرغبون بقتاله(٣) لذا لم ير عاصم بدا من الانسحاب نحو نيسابور حيث سأل هشاماً ان يبعث اليه بعشرة آلاف نفر من جيش اهل الشام لمنازلة الحارث وصده .

وفي هذه المرحلة صار وجود الامراء الهياطلة مع الحارث عبئاً عليه ومضرة له ، اذ ما ان علم الرفاق العرب في مرو بوجود هؤلاء الهياطلة والاجانب في جيش اخوانهم الثوار حتى ادركوا انهم ليسوا مدعوين لقتال اخوان لهم من العرب وانما هم مدعون لصد ما هو بالاساس غزو اجنبي ، لهذا اجتمع

---

(١) كذا ص ١٥٦٩ .
(٢) كذا ص ١٥٦٦ .
(٣) كذا ص ١٥٦٨ .

زعماؤهم حول عاصم ووعدوه بالنصر والايد ضد الحارث [١] . ويستطيع المرء بسهولة تامة ان يتوقع انضمام السكان الايرانيين الى جيش الوالي تحسباً من خطر غزو الهياطلة لبلادهم ، ويبدو ان النشاط الذي ابداه مقاتل بن حيان النبطي في هذه المرحلة قد ادى بدهاقين مرو ان يضعوا ثقلهم الى جانب الوالي الذي حاول ان يستثير حماسة جيشه فأمر بتوزيع الاموال على افراده [٢] .

وقد فاجأ الهياطلة واذهلهم في أول معركة يخوضونها ان يروا البعض من اتباع الحارث بن الازد وتميم (بلغوا الالفين من الازد وحدهم) قد نبذوا قائدهم وانضموا الى رفاقهم في جيش الوالي وحينئذ ادرك الهياطلة ان الامر قد ينتهي بهم الى محاربة العرب كافة فآثروا الانسحاب من المعركة والعودة الى بلادهم بعد ان خابت آمالهم وتقوضت خططهم [٣] .

وكان من نتيجة كل هذا ان انخفض جيش الحارث الى ثلاثة آلاف نفر فقط مما اضطره الى الترحيب بالصلح الذي تقدم به عاصم . وكان عاصم من جانبه قد آثر الصلح لانه رأى ان انسحاب الهياطلة من القتال سيجعل جيشه وجهاً لوجه مع اخوتهم وابناء عمومتهم في جيش الحارث مما يثبط هممهم ويقلل من حماسهم للقتال ، ولهذا تصالح الطرفان واقتنع الحارث بالعودة الى النخوذ [٤] .

لكن هذا السلم لم يدم طويلاً ، فقد عاد الحارث الى الثورة في السنة التالية ٧٣٥/١١٧ وشجعه على ذلك انتشار التمرد في آمل وزم معاً وانشغال الوالي عاصم بأمرهما ، فهاجمه في مرو [٥] ولم يكن عاصم قادراً على اقناع سكان مرو بمحاربة الحارث ثانية فاضطر هو الى اللجوء الى قرية بأعلى مرو ومعه الف رجل من جند اهل الشام لعلهم كانوا كل ما يستطيع جمعه من قوة [٦] .

---

(١) كذا ص ١٥٦٩ .

(٢) كذا ص ١٥٦٦ و ١٥٧١ .

(٣) كذا ص ١٥٧٠ .

(٤) كذا ص ١٥٧٢ .

(٥) كذا ص ١٥٧٦ .

(٦) كذا ص ١٥٧٩ .

ومن الجهة الثانية فقد كان الحارث نفسه في قلة من اتباعه ، وقيل انه لم يكن معه هذه المرة إلا اهل مرو الروذ فقط [1] وعلى كل حال فقد استطاع عاصم ان يدحر الحارث واصحابه في ميدان القتال فقفلوا فارين الى مرو الروذ .

وتجاه الصعاب الكثيرة التي واجهها عاصم – وهو من قواد جند اهل الشام[1] – في الحصول على تعاون اهل مرو معه ، سواء منهم المستقرون القدامى ام القادمون الجدد ضد القبائل الثائرة بقيادة الحارث بن سريج فقد كتب الى هشام « ان خراسان لا تصلح إلا أن تضم الى صاحب العراق » [3] واذ ادرك هشام حرج موقف واليه فقد استجاب الى نصحه وضم خراسان الى خالد بن عبد الله القسري صاحب العراق وأمره ان يرسل اخاه اسداً والياً – للمرة الثانية – على خراسان : هذه المقاطعة المضطربة[4] .

ويروي المدائني في نقله اخبار المعركة بين عاصم والحارث انه لما بلغ عاصماً قرب وصول اسد بن عبد الله اليه « صالح الحارث وكتب بينه وبينه كتاباً بالصلح » وقد ختم على الكتاب بعض الرؤساء ، وابى يحي بن حضين وهو رأس بكر بن وائل ، ان يختم وقال : « هذا خلع لامير المؤمنين »[5] .

ولان المدائني لم يوضح مصدر روايته فمن الصعب القول ان القصد منها تعظيم دور هذا الرئيس القبلي بالذات . ولكننا اذا اخذنا هذه الرواية على علاتها ونظرنا الى القتال الذي استمر بعدها بين الحارث وعاصم فاننا لا نجد مجالاً لاحتمال الصلح بينهما . على ان هنالك اخباراً اخرى تؤيد ان يحيى ابن حضين قد لعب في احداث هذه الايام دوراً ما بحيث اصبحت الحرب بعده بين عاصم والحارث مجرد مناوشات خفيفة خارج مرو لم يتدخل بها السكان ، وقد يكون تفسير هذه الروايات هو ان يحيى استطاع ان يستميل اليه قسم

---

(١) كذا ص ١٥٨٠ .
(٢) كذا ص ١٥٧٣ – ٤ .
(٣) اليعقوبي – التاريخ ج ٢ ص ٣٩٤ – ٥ و ٤٠٤ – ٥ .
(٤) الطبري ص ١٥٧٣ .
(٥) كذا ص ١٥٧٦ – ٧ .

من اتباع الحارث وكانت غالبيتهم من آل بكر [1] وكان الازد وتميم قد تركوا الحارث في المعركة السابقة وانضموا الى رفاقهم ابناء القبائل في مرو ولذا وبعد تدخل يحيى في الامر فقد اقتصر جيش الحارث على التميميين من اهل مرو الروذ فقط.

ان نصيحة عاصم لهشام ، وهي بمثابة الاستقالة من العمل ، ثم اختياره الانسحاب الى قرية خارج مرو ومعه جند اهل الشام فقط ليدلان على رغبة عاصم في تجنب المزيد من الانقسام والتمزق بين العرب في مرو . ولهذا فلما جاء اسد الى مرو عام ١١٧/٧٣٥ كان الحارث قد انسحب الى مرو الروذ ولم تعد امام الوالي الجديد مشاكل شائكة في مرو نفسها .

٣ — اسد بن عبد الله القسري ينتقل الى بلخ

على الرغم من ان اسداً لم يصطحب معه جيشاً فانه كان على استعداد لاستئناف القتال ضد الثوار فور وصوله . وكانت القوات الوحيدة المتيسرة بين يديه هي جيش مرو وكان مؤلفاً في اغلبه من اهل البصرة واهل الكوفة اللذين وصلوا مؤخراً مضافاً اليهم عدد لا يتجاوز الالف من جند اهل الشام ، ويعود الفضل الى اسد نفسه وعلاقاته الشخصية مع رؤساء القبائل العربية من اهل البصرة والكوفة في اقناع هؤلاء باستئناف القتال .

وقد قسم اسد جيشه قسمين رئيسيين : اولهما جيش اهل الكوفة ومعه بعض من جند اهل الشام بقيادة عبد الرحمن بن نعيم ، وهو نفسه الرجل الذي قاد الجيش من الكوفة الى خراسان ، وارسل هذا القسم الى مرو الروذ لملاقاة الحارث الآخذ مركزه بالضعف نتيجة انفضاض اتباعه عنه [2] .

وليس لدينا خبر عن حدوث اية معركة بين هذين الجيشين ولعل الحارث احس بعجزه عن منازلة جيش الوالي فآثر الهرب الى ما وراء النهر .

---

(١) كذا ص ١٥٧٢ .

(٢) كذا ص ١٥٨٢ .

ومن المهم ان نلاحظ اننا لم نعد نجد بعد هذا التاريخ في مصادرنا ذكراً لجيش اهل الكوفة هذا غير خبر عابر جاء بعد حين يقول ان المقدام بن عبد الرحمن بن نعيم « ومقاتلته » كانوا حامية في جوزجان [1] ويبدو ان قبائل اهل الكوفة توغلت في مقاطعة جوزجان دون مقاومة تذكر وانهم ظلوا هناك كحامية ، وقد ظلت غالبيتهم في عاصمة المقاطعة تحت قيادة المقدام الذي عين عاملاً لها ، وتفرق الباقون في المسالح – اي النقاط العسكرية – في جزة وشبرقان [2] .

اما القسم الثاني من جيش مرو ، فقد كانت غالبيته من اهل البصرة القادمين حديثاً وقد ضم اليهم الوالي بعضاً من افراد القبائل العربية الموجودة في خراسان من قبل . وقد سار اسد نفسه [3] بهذا القسم من جيشه نحو آمل لملاقاة الثوار فيها . لكن الثوار لم يستطيعوا المقاومة طويلاً فاستسلموا لأسد الذي تقبل منهم الطاعة وتركهم في آمل بعد ان ترك عليهم عاملاً من قبله [4] .

ومن آمل زحف اسد بجيشه نحو بلخ ولكن بلغه وهو في الطريق اليها عودة جيشها الى الطاعة . ومع هذا فقد تابع سيره اليها حيث استعد للعبور الى الترمذ [5] ، وكان الحارث قد فر من مرو الروذ وظهر امام قلعة الترمذ مصحوباً بملوك الختل والنسف وجبغويه طخارستان . ومع ان الحارث كان قادراً على منع اسد من عبور النهر فإن حامية الترمذ استطاعت دحر الحارث وخاصة بعد اختلافه مع ملك الختل [6] وانتهى الأمر بأن عاد أسد الى بلخ في حين انسحب الحارث الى طخارستان .

ومن بلخ زحف اسد ثانية ضد آخر معقل للعصاة في زم ، فما ان وصل

---

(١) كذا ص ١٦٠٩ .
(٢) كذا ص ١٦٠٤ و ١٦١٣ .
(٣) كذا ص ١٥٨٢ .
(٤) كذا ص ١٥٨٢ – ٣ .
(٥) كذا ص ١٥٨٣ .
(٦) كذا ص ١٥٨٣ – ٥ .

اليها حتّى اسرع الثائرون بالاستسلام لأسد فتقبل منهم الطاعة ووزع عليهم اعطياتهم مضاعفة وضمهم الى جيشه [1].

ويرى البروفسور جيب ان الهدف الرئيسي لأسد في هذه الحملة هو استرداد سمرقند الى حوزة العرب، وكانت قد استغلت انشغال العرب بالقلاقل في خراسان فاعلنت استقلالها. ولهذا فقد زحف من زَم قاصداً سمرقند ولكنه لم يوفق الى احتلالها « فارتفع الى ورغسر، وماء سمرقند منها، فسكر الوادي وصرفه عن سمرقند » ثم قفل راجعاً من سمرقند الى بلخ [2].

وفي العام التالي ١١٨/٧٣٦ نفذ اسد ما كان قد خطط له في ولايته الاولى على خراسان وهو نقل العاصمة من مرو الى بلخ [3]. وكانت بلخ قد أعيد بنيانها واصبحت مدينة حامية وصارت تفضل مرو وما تعج به من مشاكل واحزاب ومصالح متباينة متضاربة. كما ان بلخ لم تكن قد تأثرت بعد بحركة الاندماج بين الجماعتين العربية والايرانية كما حدث ذلك في مرو عدا عن هذا فان السكان الايرانيين فيها كانوا ذوي عدد قليل وليس لهم التأثير الذي لامثالهم في مرو. وفوق هذا وذاك فان بلخ تمتاز على مرو بموقعها القريب من جبهات القتال المتوقعة ومن الهياطلة الذين اراد اسد ان يستفيد منهم في حربه ضد الترغش.

ومهما تكن الاسباب التي تبرر لأسد عمله هذا فلا شك ان دهاقين مرو قد كرهوا ان ينقل مركز الولاية من جوارهم، ولكنهم، — ودون شك أيضاً — قد عادوا فأيدوا أية سياسة تدفع بالعرب الى الانهماك في الحروب وتشغلهم بها خاصة اذا اتاح لهم ذلك انفرادهم لوحدهم بأمر مدينتهم وحريتهم في التعامل مع رعاياهم من العرب وغير العرب على حد سواء دون رقابة او اشراف من الوالي العربي في مرو.

وعلى كل فلم تكن النقلة الى بلخ بالامر اليسير وقد نفذت فعلاً قبل ان

---

(١) كذا ص ١٥٨٣.

(٢) كذا ص ١٥٨٥ – ٦ وجيب الفتوح العربية ص ٧٨ – ٨٠.

(٣) الطبري ص ١٥٩١.

يعلن عنها . وكما رأينا فان اسداً لما سار من مرو ضد الثوار لم يترك في الواقع شيئاً من الجيش في مرو ، وليس في مصادرنا ما يشير الى عودة هذا الجيش أو بعضه الى مرو مدة ولاية اسد على خراسان ، بل على العكس فان فيها ما يدل على ان كل الجيوش التي استطاع اسد ان يجمعها ظلت قرب بلخ ، ما عدا حاميات الترمذ وآمل فقد تركتا في مكانيهما كما أُقيمت مسلحة جديدة في خلم على مسيرة يومين شرقي بلخ [١] .

وقد توزع اهل الكوفة على المسالح[٢] الثلاث في جوزجان، فكان في بلخ عشرة آلاف جندي من قبل واكثرهم من القبائل العربية في خراسان ، فلما بنيت من جديد واستقر فيها اسد ، اصطحب معه اليها فرقة اخرى من مرو كان اغلبها من جند اهل البصرة الجدد ، وكذلك الامر مع مسلحة زم . وقد امر اسد ببناء قرى جديدة حول بلخ ليسكن فيها ما تبقى من هذه الجيوش بعد ان بعث بقسم منها الى خلم [٣] .

ومن المهم ان نلاحظ ان اسداً حاول فصل جيش بلخ عن بقية جيوش خراسان ، فقد كانت القبائل التي تؤلف هذا الجيش والتي كانت بقيادة نصر بن سيار ، هي اكبر مجموعة قبلية انضمت الى الديوان تحت تنظيمات هشام الجديدة . وهم يمثلون « الأساطين القديمة » للحزب التوسعي العربي في تلك المقاطعة ، وقد عزلهم اسد في مدينة بلخ وكان يتجنب الاستعانة بهم حين يحتاج الى الرجال في حملاته [٤] .

ونحن نذكر ان نصر بن سيار عارض اسداً في ولايته الاولى على خراسان ، فسجنه اسد واهانه ، فلما جاء اسد خراسان ثانية استمرت ريبته من نوايا نصر وخاصة بعد موقفه وجماعته في بلخ من حركة الحارث [٥] .

---

(١) الطبري ص ١٦٠٤ .

(٢) الطبري ص ١٩٥١ ، والمصانع تعني القرى . انظر لسان العرب وانظر الطبري ١٦٠٢ .

(٣) وقد استضاعت هذه الحامية ان ترد هجوماً قام به الجيش التركي بكامله . انظر الطبري ص ١٦٠٤ .

(٤) الطبري ص ١٦٠٥ .

(٥) كذا ص ١٥٨٤ — ٥ .

وعلى الضد من نصر ، نلتقي بشخصية جديدة لأحد القادمين في جيش اهل البصرة بدأت تبرز وتكبر حتى ليبدو صاحبها وكأنه الساعد الايمن للوالي اسد ثم سيقدر له بعد زمن ان يلعب دوراً هاماً في الثورة العباسية، ذلكم هو جديع بن علي الكرماني من رؤساء الازد البارزين .

وأول ما نسمع عن جديع اميراً للحملة التي بعث بها اسد عام ٧٣٦/١١٨ ضد فلول اصحاب الحارث الذين كانوا قد احتلوا قلعة التبرشكان في بدخشان ، وكانت هذه الحملة تتألف من ستة آلاف نفر كان ألفان وخمسماية منهم من جيش أهل الشام الذي كان جزءاً من جيش بلخ . ولم تثبت القلعة امام حملة جديع القاسية العنيفة فاستسلمت له [١] .

٤ - اسد القسري والهياطلة يقضون على الخطر التركي

كان من الطبيعي لأسد ، بعد ان قطع دابر التمرد في خراسان ان يزحف على سمرقند ليقهر المدينة الثائرة ، لكن الواقع انه خلال ولايته لم يقم بأية محاولة جديدة على هذه الجبهة بعد فشل محاولته عام ٧٣٥/١١٧ . ولكنه التفت بدلاً عن ذلك الى الختل ، كما فعل في ولايته الاولى ، واستطاع في عام ٧٣٧/١١٩ ان يتغلغل بجيشه في تلك المنطقة [٢] . وقد استنجد ملك الختل بخاقان الترك الذي اسرع لملاقاة اسد في الختل . وحين أعلم ملك الختل اسداً بقدوم خاقان الترك اسرع اسد بالتقهقر وأمر « بالأثقال والمشيخة » ان تقدم، ووضع عليها حراساً من العرب ومعهم جماعة من اهل الصغانيان [٣] وقد تبعهم اسد وجيشه الا أن الترك هاجموه مرتين واوقعوا به خسائر فادحة وسبق الخاقان اسداً الى الاثقال فاستطاع ان يحوز عليها ، وقد اسرع اسد فانقذ الحراس ولكن صغان خدا واكثر اهل صغانيان قتلوا في هذه المعركة وانسحب

---

(١) كذا ص ١٥٨٩ - ٥٩١ وابن الكلبي انساب معد واليمن الكبير ، مخطوط في المتحف البريطاني رقم ا. د. د ٢٢٣٧٦ ص ٦٧ آ .

(٢) الطبري ص ١٥٩٣ .

(٣) كذا ص ١٥٩٤ - ٦ .

الخاقان الى إمارة طخارستان حيث التحق به الحارث بن سريج ، وقد قفل اسد الى بلخ وعسكر خارجها، ولكنه حين حل الشتاء عاد هو فدخل المدينة وفرق جيشه في القرى المجاورة لها [1] .

ولكن الخاقان استغل فصل الشتاء ونصيحة الحارث بن سريج فقرر ان يفاجئ اسداً بغارة قوية .

وقد استدعى الخاقان قوات من السغد وإمارات طخارستان لتشاركه القتال . والعدد الذي اورده الطبري عن عدد الجيوش التي جهزها الخاقان في حملته هذه يدل على مقدار انحسار النفوذ العربي في ما وراء النهر وحوض السيحون وقيام نفوذ الترك مكانه. فقد روى لنا انه بالاضافة الى الخاقان وجيشه التركي، و الى الحارث واتباعه فقد كان هناك ايضاً أمير اشروسنة وملك السغد وصاحب الشاش وصاحب الختل وجبغويه ، ولا شك – طبعاً – في ان هذا الجرد مبالغ فيه ولا سيما من حيث حضور الامراء انفسهم، والواقع ان هذه الرواية تناقض في بعض اجزائها رواية اخرى في نفس المصدر، ولكن مما لا شك فيه ابداً ان جيوشاً كبيرة العدد من بعض هذه الامارات ان لم يكن كلها قد اشتركت فعلاً في القتال [2] .

وقد هاجم جيش الخاقان المكون من ٣٠ الف رجل خلم ، ولكن الحامية العربية دافعت عنها وردت الهجوم خاسراً ، فاستأنف المهاجمون زحفهم نحو جوزجان حيث احتلوا عاصمتها بعد القضاء طبعاً على الحامية العربية في المدينة وعلى جيش هياطلة جوزجان نفسها ، وقد عسكر الخاقان في جوزجان حيث بدأ يبعث منها المغازي الى كل الجهات .

وما ان علم اسد بحملة الترك حتى اسرع في الاستعداد ، فأمر بالنيران ان ترفع على مدينة بلخ اشارة للقبائل المقيمة في الرساتيق والدساكر حول بلخ

(١) كذا ص ١٥٩٤ – ١٦٠٣ وجيب : الفتوح العربية ص ٨١ – ٣ .

(٢) جيب : المصدر السابق ص ٨٣ .

ليتجمعوا فيها [1] فاجتمع لدى اسد من هذه القبائل سبعة آلاف رجل علاوة على جند اهل الشام الموجودين في جيش بلخ .

وحيث ان جيش بلخ يبلغ اكثر من سبعة آلاف نفر فلا بد ان اسداً لم يستدع بعضاً منه ويؤيد ذلك رواية تقول ان اسداً استخلف على بلخ جديع بن علي الكرماني وأمره « ألا يدع احداً يخرج من مدينتها حتى وان ضرب الترك باب المدينة » وترك مع الكرماني عدداً من رؤوس القبائل العربية البارزين وكان ابرزهم ولا شك هو نصر بن سيار . ولكن اسداً اضطر بعد قليل بسبب حاجته للرجال ان يأذن لهم بالخروج والانضمام الى جيشه [2] الذي تضاعف ، ولا شك ، عدده بهم .

وكذلك ازدادت قوته وهو يتقدم نحو جوزجان بانضمام الحامية العربية في جوزجان بقيادة المقدام بن عبد الرحمن اليه ومعهم جيش جوزجان من الهياطلة [3] وبهذا العدد الضخم باغت اسد الخاقان قرب خريستان ولم يكن معه إلا اربعة آلاف رجل فقط . وقد نزلت بالخاقان في هذه المعركة هزيمة بالغة تبدد على أثرها جيشه « وذهب الترك في الارض عباديد لا يلوون على احد ، والناس تتبعهم وتقتل منهم من يقدرون عليه » . واستطاع الخاقان والحارث ان يفرا الى ارض جبغويه في حين انصرف اسد قافلاً الى بلخ ومنها اخذ يوجه الكرماني في السرايا ليصيبوا فلول جيش الترك [4] .

ريؤكد جيب « ان معركة خريستان لم تكن نقطة تحول في مستقبل العرب في اواسط آسيا فحسب ، بل وكانت ايضاً نقطة البداية في سقوط قوة الترك وزوالها والتي كانت مرتبطة بشخص سولو وبطولاته . وقد رأى أمراء طخارستان وما وراء النهر ان من الاوفق لهم ان يعاملوه بالتجلة والاحترام عند عودته الى نواكث ، لكن السخط الذي كان يشيعه الصينيون بين رعاياه انفجر فجأة

---

(١) الطبري ص ١٦٠٣ .
(٢) كذا ص ١٦٠٥ .
(٣) كذا ص ١٦٠٩ .
(٤) كذا ص ١٩٠٦ — ١٢ .

ونجم عنه اغتيال سولو على يد بغاطرخان، (كورصول الترقشي) فتبددت مملكته وانهارت وتفرق الترقش جماعات للنهب والسلب فيما بينهم »[1].

ويبدو انه بينما كان اسد مشغولاً في حرب الترقش، استطاع بدرخان، الذي كان اميراً في باميان، ان يقيم نفسه ملكاً على الختل. فلما هزم اسد الترقش ارسل حملة الى هذا الامير المغتصب فأعاد سيطرة العرب على الختل[2]. وبعد هذا بقليل وفي سنة ١٢٠/٧٣٨ مات اسد في بلخ[3].

ولا شك في اننا كنا نكون اقدر على تقييم سياسته لو امتدت به الحياة امداً أطول بعد قضائه على خطر الترغش. ولا شك ان الختل كانت الميدان الذي اختاره لحركاته، فمن المحتمل انه كان يريد ان يغري الترقش بجبهة جديدة، حيث يستطيع الانتفاع من صداقته للهياطلة على الوجه الاكمل. كما انه من المحتمل ان كان يحاول السيطرة على طريق آخر للتجارة من الشرق الى الغرب يمر بالختل عبر جبال البتم البامرز. فان وجود « الاثقال » في حملته في الختل عام ١١٩/٧٣٧ يبدو غريباً بالنسبة الى جيش عربي، ففي حين ان غنائم الحرب، التي كانت في اكثرها من الغنم والماشية، قد تركت مع الجيش الرئيسي[4] قدمت هذه « الاثقال » الثمينة امام الجيش في حراسة شديدة ويشار اليها دوما « بالاموال »، وكانت ذات اهمية بالغة بالنسبة الى اسد ورجاله والى صغان خدا والى الخاقان نفسه[5]. ولا يمكن ان تكون هذه الاموال غنائم حرب، كما لا يمكن ان تكون مجرد امتعة للجيش واحماله كما يذهب الى ذلك البروفسور جيب، فهذه « الاثقال » الثمينة كانت في الواقع كما نعتقد طروداً تجارية أُرسلت الى الشرق عن طريق الختل[6]. وهذا الافتراض مقروناً

---

(١) جيب : المصدر السابق ص ٨٣ – ٤ .

(٢) الطبري ص ١٦٢٩ – ٣٠ .

(٣) كذا ص ١٦٣٥ و ١٦٣٨ .

(٤) كذا ص ١٥٩٣ و ١٥٩٦ – ٧ .

(٥) كذا ص ١٥٩٩ .

(٦) ورد في لسان العرب لابن منظور ان لكلمة « اثقال » معنيين : الاول وهو الذي اخذ به جيب، وهو جمع « ثقل » ومعناه امتعة المسافر واحماله، والثاني وهو الذي أخذ نابه فهو جمع «ثقل» وهو الحمل الثقيل . وتعني هنا الاشياء النفيسة كالكنوز واحمال الذهب والفضة .

باهتمام اللاجئين من اهل السغد والذين كانوا ضمن جيش الخاقان ، وكذلك اهتمام ملك السغد وأمراء ما وراء النهر بالتجارة بين الشرق والغرب ، تفسران تعطش الخاقان واتباعه على افساد خطة اسد وللامساك بهذه «الأثقال» والتي اذا ما أتيح لها ان تمر بطريقها المرسوم فانها سوف تهدد احتكارهم لطرق التجارة الرئيسية .

٥ ـ نصر بن سيار والعودة الى مرو

بعد اربعة شهور من وفاة اسد بن عبد الله عين هشام نصراً بن سيار والياً على خراسان وجعله تحت اشراف والي العراق [١] وبعبارة اخرى فقد اصبحت خراسان ولاية مستقلة مرة اخرى ، وقد حدثت تطورات كثيرة في العراق ايضاً منذ وفاة اسد ، فان اخاه خالد القسري عزل من ولاية العراق بعد ان تولاها خمسة عشرة عاماً متصلة ، وكان هشام قد ذعر من بوادر الاضطراب وعدم الاستقرار في العراق والتي تمثلت بظهور الخوارج وثوراتهم المتكررة في عام ٧٣٧/١١٩ فقرر عزل خالد وتعيين يوسف بن عمر والياً على العراق بأمل ان يعالج الوضع المضطرب في هذا القطر القلق [٢] .

وكانت الشهور الاربعة الممتدة بين وفاة اسد وتولية نصر ، من ربيع الاول الى رجب من عام ١٢٠ هـ او من مارت الى تموز من عام ٧٣٩ م، شهوراً صعبة الفهم في خراسان . اذ يروي المدائني ان اسداً استخلف على خراسان جعفر بن حنظلة البهراني وهو من قواد جند الشام ، وقد ظل في الولاية حتى وصل عهد نصر بن سيار [٣] . في حين يؤكد الطبري في رواية اخرى ان والي العراق الجديد يوسف بن عمر حين قدم العراق بعد شهرين من وفاة اسد ولّى على خراسان جديع بن علي الكرماني وعزل جعفر بن حنظلة [٤] على ان المدائني

---

(١) الطبري ص ١٦٣٨ و ١٦٦٣ .
(٢) الطبري ص ١٦١٩ – ٢٩ و ١٦٣٣ – ٤ .
(٣) كذا ص ١٦٠٩ .
(٤) كذا ص ١٦٦٠ – ١ .

نفسه يعترف ان الكرماني شغل منصب الولاية في مرو في فترة ما خلال هذه الشهور الاربعة [1].

ومع اننا لا نملك إلا معلومات ضئيلة عن الاحداث في خراسان خلال هذه الفترة إلا أننا نستطيع ان نستدل من اشارة عابرة اوردها اليعقوبي على وجود بعض بوادر القلق وعدم الاستقرار التي اخافت هشاماً وحملته على ان يستشير خبيراً بشؤون خراسان عمن يعينه والياً لخراسان وان يقرر في النهاية تعيين نصر ابن سيار والياً لها [2] وكان قد اختاره — كما يستدل من روايات الطبري العديدة — من بين اسماء كثيرة عرضت عليه [3] وكان اصحاب تلك الاسماء كافة — باستثناء جديع بن علي الكرماني — من المقربين الى نصر والمؤمنين بنفس آرائه.

ولا يجب ان نحمل على محمل الجد الرواية التي اوردها الطبري والتي تذهب الى ان نصراً كان «قليل العشيرة» في خراسان، لان وقائع الحال تنقض هذا القول، ذلك لاننا نعلم تمام العلم ان نصراً كان زعيم جماعة كبيرة في خراسان، كما وان هذه الروايات نفسها تذكر على انه رئيس مضر في خراسان وهي حقيقة ادركها هشام ولا شك عند الاختيار [4].

وقد حدث في خراسان تبدل هام آخر خلال هذه الشهور الاربعة وفي اول أيام نصر، وذلك هو العودة الى مرو عاصمة للحكم العربي في البلاد. واذا كان الانتقال الى بلخ له دوافعه السياسية فان العودة منها الى مرو لها اثارها السياسية ايضاً، ذلك ان نصراً — كما مر بنا ذلك من قبل — لا ينتسب الى «المدرسة السياسية» التي يتزعمها اسد، كما وان قوته تستمد من قطاعات خاصة اهمها المقاتلة العرب في خراسان. ويبدو لنا ان نوعاً من الصراع

---

(١) كذا ص ١٦٥٨ — ٩.

(٢) اليعقوبي — تاريخ ج ٢ ص ٣٩٢.

(٣) كذا ص ١٦٦١.

(٤) الطبري ص ١٥٦٩ — ٦٣.

من اجل السيطرة قد نشب في خراسان بين هاتين المدرستين بعد وفاة أسد ، فكان على الجانب الاول ، رجال القبائل العربية القدامى في خراسان وعلى رأسهم نصر بن سيار ، وعلى الجانب الآخر الوافدون الجدد وعلى رأسهم جديع بن علي الكرماني معاون أسد وقائده . على ان الصراع ظل سياسياً ولم يتحول الى قتال بين الطرفين كما سيحدث ذلك بعد ست سنين بين هذين الطرفين نفسهما .

ولا شك ان ارادة هشام بتعيين نصر قد حسمت النزاع بما يعني تفضيل كفة احد الجانبين على الآخر ، ولربما كان دافع هشام الى اختيـار نصر وجماعته اعتقاده ان هذه الجماعة هي الاقوى نفوذاً في خراسان ولذلك فانه قادر بواسطتها ان ينفذ السياسة الاموية في خراسان ، او لربما كان دافعه الى هذا الاختيار خشيته من قيام ثورة جديدة كثورة الحارث بن سريج يقودها هذه المرة نصر بن سيار نفسه . ومما هو جدير بالانتباه ان جعفر بن حنظلة – اثناء فترة ولايته القصيرة – عرض على نصر بن سيار ان يوليه بخارى ولكن نصراً ابى ذلك ولربما لانه كان يتوقع ما هو اكبر من ذلك وهي ولاية خراسان نفسها [١] .

ويبدو ان اول عمل قام به نصر بعد استلامه مقاليد الولاية هو إعادة العاصمة الى مرو . وهو امر تعتبره مصادرنا العربية امراً مسلماً به ، فاذا كان اسد قد نشد النصرة لحكمه خارج مرو ، فان نصراً يعلم حق العلم ان مرو نفسها مكان نصرته ومركز قوته . ثم اقدم على إعادة النظام القديم حيث يستطيع هو ومقاتلته ان يتمتعوا بامتيازاتهم كحكام على خراسان ، لذا فقد ولى انصاره واصدقاءه اكبر المناصب في المقاطعة كما ولى رجالاً ارتبطت من قديم الزمن اسماؤهم مع نصر شؤون الادارة في مختلف انحاء الولاية وعلى هذا نرى ان نصراً استعمل مسلم بن عبد الرحمن الباهلي على بلخ وزياد بن عبد الرحمن القشيري على ابرشهر (نيسابور) وقطن بن قتيبة على السغد (اي على مسلحتي بخارى وكش) [٢] .

---

(١) الطبري ص ١٦٦١ .

(٢) الطبري ص ١٦٦٤ وجيب ، الفتوح العربية ص ٨٩ .

وقد خلق نصر مناصب جديدة هي وظائف نواب العامل ووزعهم في كل انحاء الولاية ، وفي ولاية نصر نسمع للمرة الاولى عن عمال محليين لمدن مثل سرخس ونيسابور وأبيورد[1] .

وقد اصطحب هؤلاء العمال معهم الى وظائفهم الجديدة المنتشرة في انحاء الولاية كافة ، بعضاً من المقاتلة من افراد عشائرهم[2] ولم تكن هذه محاولة لاسكان تلك القبائل في تلك الاماكن بقدر ما كانت محاولة لتوطيد سلطة الحكومة وفرض هيبتها في تلك المحلات وبواسطة العرب انفسهم ، وبقدر ما كانت ايضاً مكافأة من نصر لاصدقائه وانصاره الذين لا يعني تعيينهم في هذه المراكز مجرد السلطة والجاه فقط وانما يعني دخلاً محترماً ايضاً .

وكما اصطفى نصر اصدقاءه لهذه المناصب فقد حرم منها خصومه ومعارضيه فلم نجد ذكراً لرجل مثل الكرماني قد شغل وظيفة ما تحت حكم نصر ، بل نشاهد العكس من هذا تماماً فنرى نصراً يحاول التقليل من قيمة هؤلاء الرؤساء في عيون بني قومهم كما فعل مع الكرماني اذ اقصاه عن رئاسة الازد ولم يرجعه اليها إلا بعد ان فشل خلفه فشلاً ذريعاً[3] .

٦ – نصر بن سيار والاصلاح المالي

واقدم نصر على خطوة اخرى ارضت فئة كبيرة من الجماعة العربية في مرو وتلك هي الاصلاحات المالية الشهيرة التي قام بها عام ٧٣٩/١٢١ والتي هدفت في الحقيقة الى إزالة شكاوى العرب المقيمين في مرو من جور النظام الضرائبي المفروض عليهم من دهاقين مرو . ومن المهم ان نلاحظ ان نصراً اشار الى هؤلاء الناس الذين اراد اصلاح اوضاعهم وإزالة شكواهم على انهم « المسلمون » وهو اصطلاح يشمل العرب المقيمين والايرانيين المحليين الذين اعتنقوا الاسلام ، ومن الطريف ايضاً ان نلاحظ ان عدد هؤلاء المسلمين ، وقد قدرتهم الروايات بزهاء الثلاثين الف نفر – يكاد يساوي عدد افراد هاتين الجماعتين في مرو .

---

(١) الطبري ص ١٩٥٠ .
(٢) نفس المصدر ص ١٩٢٩ .
(٣) نفس المصدر ص ١٨٥٩ .

وقد لاحظ نصر ان الدهاقين كانوا يستعملون سلطتهم في وضع الضرائب وجمعها لصالح جماعتهم من الايرانيين الذين احتفظوا بديانتهم على حساب الايرانيين الذين اسلموا فيخففون عن المشركين من رعاياهم ويثقلون على المسلمين الذين كانت تزداد اعباؤهم الضرائبية دون ما وجه حق ولا انصاف. لذا استعمل نصر منصوراً بن عمر بن ابي الخرقاء، مراقباً عاماً لشؤون الخراج ومنحه سلطة واسعة لمراقبة توزيع الضرائب «فأي رجل من المسلمين كان يؤخذ منه جزية من رأسه او ثقل عليه في خراجه وخفف مثل ذلك عن المشركين فيرفع ذلك الى منصور يحوله عن المسلم الى المشرك»، وقد قام منصور بمهمته خير قيام «وقد صنف الخراج حتى اوضعه مواضعه ثم وظف الوظيفة التي اجرى عليها الصلح» [1].

ومع ان دينيت لم يفهم الوضع في مرو حق فهمه، فقد كان مصيباً في قوله «ان نصراً كان مصلحاً ولم يكن مبتدعاً، فهو لم يخلق نظاماً جديداً ولم ينشئ امتيازات جديدة، كما لم يغير في الادارة المالية تغييراً جذرياً، وكل الذي فعله هو رفع الغبن الموجود في النظام القديم» [2] وقد غدى الآن واضحاً ان نصر قد استثنى تصرف الدهاقين نحو العرب المقيمين فلم يغير في اوضاعهم وسلطتهم بالنظام الاجتماعي شيئاً وانما اكتفى بتعيين ضابط عليهم فقط.

ولان نصر، بخلاف الولاة السابقين لم يكن يخشى خطر الترك فقد صارت مهمته في إعادة السلطة العربية الى ما وراء النهر اسهل. فبين عامي ١٢٠/٧٣٨ وعلى أكثر الاحتمال ١٢٣/٧٤١ قاد حملة عبر بها نهر سيحون دون ان يلقى مقاومة تذكر من أمراء ما وراء النهر الذين لم يكن لهم اي امل في اي مساعدة خارجية، وبناء على تعليمات من يوسف بن عمر فقد تقدم نصر حتى الشاش حيث كان يلتجئ الحارث بن سريج، ومع ان نصر كان معه عشرون الفاً من مجندي السغد إضافة الى جيشه الخاص فلم يكن في قدرته ان ينال ظفراً حاسماً ضد الشاش [3] وكل الذي استطاع ان يحققه هو ان يصالح ملكها

---

(١) الطبري ص ١٦٨٨ – ٨٩.

(٢) دينيت : ص ١٢١.

(٣) الطبري ص ١٦٩٥.

على ان يخرج الحارث من بلده فاخرجه الى فارياب . وقبل عودته الى مرو غزا نصر فرغانه وكانت هذه آخر نشاطه العسكري [1] . فقد أدى سقوط الترك الى عودة السغد الذين ظلوا الآن بلا نصير فمنحهم نصر شروطاً كريمة – بسبب حاجته الى خبراتهم التجارية – وليس تقديراً منه لقدراتهم العسكرية كما تذهب الى ذلك مصادرنا [2] .

٧ – وفاة هشام والصراع اللاحق في خراسان

ومع ان نصر قد نال ثقة هشام الكاملة ، فان يوسف بن محمد والي العراق لم يكن يشارك سيده رأيه بنصر ، لربما لان يوسف كان اكثر احساساً بصراع القوى الدائر في خراسان بين حزب نصر والوافدين الجدد . وقد اشتد هذا الصراع بميل جند اهل الشام في خراسان الى خصوم نصر ، ومن ثم استعمالهم نفوذهم لدى هشام للإيقاع به[3] وقد حاول يوسف ايضاً ان يقنع هشام بعزل نصر لاسبابه الخاصة به لكن هشام ، الذي كان كما يبدو مؤيداً لسياسة نصر في خراسان استمر في تأييده ولم يسمع لاحد كلاماً عنه [4] .

ولكن مصاعب نصر ابتدأت بعد وفاة هشام عام (١٢٥/٧٤٣)، ومع ان امير المؤمنين الجديد الوليد بن يزيد قد اقره في ولايته على خراسان وزاد فأعطاه مطلق الحرية هناك ، إلا أن يوسف سرعان ما استطاع اقناع الوليد بوجهة نظره فضمت خراسان الى ولاية العراق[5] وقد خشي يوسف ان يعلن نصر الثورة لو عزل من منصبه لذلك فقد دعاه الى القدوم الى العراق فقط ، لكن نصراً تردد في إطاعة امر يوسف واطال استعداداته للسفر حتى استطاع ان يتخلص من ذلك نهائياً حين جاءه خبر مقتل الوليد بن يزيد عام ١٢٦/٧٤٤ [6]

---

(١) جيب ، الفتوح الاسلامية ص ٨٩ – ٩٢ . الطبري ص ١٦٨٨ – ٩٥ .

(٢) الطبري ص ١٧١٩ – ٢٣ .

(٣) كذا ص ١٧١٨ – ٢١ .

(٤) كذا ص ١٧٦٤ .

(٥) كذا ص ١٨٤٧ .

(٦) كذا ص ١٨٦٥ – ٨ .

وكان هذا عذراً واضحاً لنصر للعودة الى منصبه والبقاء في خراسان ولكنه كان في الوقت نفسه انذاراً خطيراً بانقسام بيت أمية وبقرب زوال الملك عنهم. ولم يكن مقتل الوليد الثاني حادثاً فردياً ليمكن غض النظر عنه ، بل كان في الحقيقة والواقع نتيجة طبيعية لتسلسل الاحداث في السنوات المضطربة الأخيرة من حكم هشام.

فمما لا شك فيه ان هشام كان حاكماً مقتدراً وكذلك كان واليه على العراق والمشرق خالد القسري الذي ادار الامور في تلك الانحاء خلال خمسة عشر عاماً بكل اقتدار ونجاح. ومع هذا ففي سنة ٧٣٨/١٢٠ عُزل خالد دون ما سبب واضح ، وقد يقال — وهو الحق — بوجود تمرد طفيف للخوارج في العراق عام ٧٣٧/١١٩ ولكن هذا لوحده لا يصلح مبرراً كافياً لاسقاط خالد ، بل لا بد ان هشام كان تحت ضغط شديد ، وهو كما اثبتت ذلك الحوادث التالية، لم يكن إلا ضغط اجناد الشام، عماد حكم بني أمية.

وطيلة حكم هشام كانت الاخطار الخارجية ذات طبيعة جادة ، فتغلغل الترك في المشرق وهجمات الخزر القاسية في ارمينيا وثورة البربر الواسعة في شمال افريقيا، كانت كلها اخطاراً جسيمة حالّة على العرب في تلك المناطق. ولم يكن يتوقع من الجيش السوري ان يحفظ الامبراطورية وان يصد كل هذه الاخطار في وقت واحد. وقد استطاع اسد ، شقيق خالد ، في المشرق ان يقيم نوعاً من التحالف بين العرب والهياطلة ضد الترقش ، في حين استطاع جيش أهل الشام في ارمينيا في اول الامر وتحت قيادة مسلمة ان يتحرك ضد الخزر ولكنه عاد لينسحب تدريجياً الى ان حل محله جيش آخر جديد جمعه مروان بن محمد من القبائل العربية في الجزيرة (العراق) وارمينيا واذربيجان [1] ، وارسل كل ما تيسر من جند أهل الشام الى شمال افريقيا لقمع ثورة البربر هناك وقد اصبحت الحاجة لأجناد الشام كبيرة جداً حتى كانوا هم انفسهم اول من ادرك ضرورة ايجاد قوة عسكرية اخرى في الامبراطورية، وبالطبع فان جند أهل الشام كان ما زال مرابطاً في العراق ولم تكن العشائر العراقية مسلحة آنذاك.

---

(١) ابن الاثير – الكامل ج ٥ ص ١٣٢.

وقد اشتهر خالد القسري والي العراق باعماله في استصلاح الاراضي واصلاح الزراعة [٦] ولهذا فقد كان في حاجة لليد العاملة لذلك كان من المتوقع منه ان يعارض اية خطة ترمي الى إعادة تجنيد اهل العراق ثانية لان ذلك يؤدي دون شك الى فشل سياسته في نشر السلام في المنطقة . ولكن هشام الذي كان قد اذن لمروان بن محمد في ان يعيد تجنيد عرب الجزيرة والمناطق المجاورة، كان مضطراً ان يفعل الشيء نفسه في العراق . وهذا ما عارض فيه خالد وكانت النتيجة تنحيته (١٢٠/٧٣٨) .

وقد واجه الوالي الجديد في العراق يوسف بن عمر ثورة شيعية قوية بقيادة زيد بن علي في العراق نفسه . ورغم القضاء على الثورة فان علائم الاضطراب وعدم الاستقرار ظلت تسود العراق وامتدت شمالاً الى الجزيرة .

وكان هشام في العام السابق على وفاته قد بعث الى شمال افريقيا جيشاً يقدر باثني عشر الف نفر من اهل الشام لمواجهة ثورة البربر الآخذة بالاتساع هناك[٢] .

وتصف مصادرنا الوليد بن يزيد خليفة هشام بانه رجل متعة ومجون لا يصلح للحكم . وهذه الاتهامات يجب الا تؤخذ جدياً ، طالما ان هناك روايات مناقضة لها في نفس المصادر [٣] كما ويجب ان تفهم هذه الاخبار على انها طريقة الرواة في تأكيد نقاط الضعف في بعض القادة ، وكانت نقطة الضعف عند الوليد بن يزيد انه لم يفهم الاثار المترتبة على الاعباء الضخمة الموضوعة على القوة المحدودة لأجناد الشام، فقد ظن انه يستطيع ان يضمن ولاءهم اذا ما زاد اعطياتهم [٤] وهي طريقة طالما لجأ اليها الحكام العرب لضمان ولاء جيوشهم لهم ولكن الغريب ان قادة أجناد الشام نظموا انقلاباً ناجحاً ضده [٥] فانتهى

---

(١) البلاذري ، انساب . مخطوطة استانبول ص ٥٩٧ — ٨ وج ٢ ص ٢٩٤ — ٢٩٧ .

(٢) ابن عذاري . البيان المغرب . ص ٥٤ والطبري ص ١٧١٦ .

(٣) البلاذري انساب ج ٢ ص ٣١٠ — ٣١٨ . الطبري ص ١٧٤١ و ١٧٥٤ .

(٤) الطبري ص ١٨٢٥ .

(٥) كذا ص ١٧٧٨ والبلاذري . انساب ج ، ص ٣٢٧ .

عهده قبل ان يتم عاماً واحداً من حكمه، وهكذا قتل أمير المؤمنين وهو نفسه رئيس بني أمية بيد اخلص رعيتهم لهم وهم اجناد أهل الشام. وكانت هذه بالفعل نهاية الحكم الاموي اذ انهار قوام سلطانهم بعد ان فقدوا تأييد جندهم لهم.

اما يزيد بن الوليد وهو من اختاره قادة أجناد الشام ليخلف الوليد بن يزيد فقد انقص في عطاء الجند الزيادة التي زادها لهم الوليد[1] ومما له دلالة خاصة انه عين منصور بن جمهور الكلبي رئيس المتآمرين ضد الوليد والياً له على العراق والمشرق.

وكانت مهمة منصور على ما يبدو إعادة تجنيد مقاتلة اهل العراق ودمجهم مع جند أهل الشام المرابط في العراق. ولم تمض إلا ثلاثة اشهر حتى اتضح للعيان ان هذه السياسة مرفوضة من اهل العراق، فعزل منصور من الولاية ليحل محله وال آخر ليس من قادة أجناد الشام وان يكن له اسم ذو جاذبية ورنين هو عبد الله بن عمر بن عبد العزيز[2] وكان هذا الاسم في العراق يعني العودة الى احياء سياسة ابيه عمر، اي إنهاء تسلط جند أهل الشام في العراق. وقد عمد الوالي الجديد الى إعادة بناء جيش العراق الذي اقترح ان يدمج فيه جند اهل الشام الموجودون بالعراق وقد عين منصور بن جمهور الكلبي قائداً من قادة هذا الجيش الجديد[3].

ولسوء الحظ فقد توفي يزيد بن الوليد بغتة في اخريات عام ١٢٦/٧٤٤ بعد حكم لم يدم اكثر من ستة شهور. وقد خلفه اخوه ابراهيم لمدة اربعة اشهر إلا أن بيعته لم تتم.

وبسبب انتشار الحزبية السياسية بين جند أهل الشام وتردي الاوضاع العامة وانتشار الفوضى الكاملة، ولان مروان بن محمد كان قائد القوة الوحيدة الباقية التي تستطيع إعادة الأمور إلى نصابها في الامبراطورية، لهذا فقد زحف على

---

(١) الطبري ص ١٨٢٥.

(٢) كذا ص ١٨٣٦ والبلاذري انساب ج، ص ١٧٠ - ١٧١ و ٣٦٤.

(٣) الطبري ص ١٨٨٣ و ٩٨ و ١٩٠٢.

رأس جيشه من الجزيرة وقدم الى دمشق وخلع ابراهيم ونادى بنفسه اميراً للمؤمنين (١) .

وكان منصور بن جمهور خلال حكمه القصير للعراق والمشرق قد عين اخاه منظوراً والياً على المشرق ومع ان منظوراً لم يصل خراسان قط ، فان انباء تعيينه احدثت رجة كبيرة هناك وخاصة لدى خصوم نصر . ولكن نصراً ـ احساساً منه بما لديه من تأييد كامل في خراسان ـ فقد رفض الاعتراف بمنظور (٢)، ومع هـذا فقد اقدم على اتخاذ بعض الاجراءات تحسباً للطوارئ واهم هذه الاجراءات امره بحبس جديع الكرماني الذي كان قد نحي زمن ذاك من رئاسة الازد (٣) كما انتقل نصر من مرو الى قصر له في قرية ماجان في جوار مرو ، وربما فعل ذلك لان انصاره كانوا متوزعين في مختلف اطراف الولاية (٤) وقد حاول ان يكسب الى جانبه روؤساء الازد وربيعة في خراسان فعين رجالاً مثل يعقوب بن يحيى بن حضين عمالاً له في انحاء خراسان (٥) وزيادة في الاحتياط فقد امر نصراً بالاحتفاظ بما يوجد من الأموال في بيت المال واعطى المقاتلة جزءاً من أعطياتهم وذلك عن طريق توزيع الحبوب والأطعمة عليهم ، ولما طالبوه بالباقي أمر بالتوقف عن التوزيع كلية ، وربما كان المقصود بهذا الاجراء خصوم نصر الذين قد اغاظهم هذا العمل ولا شك (٦) .

وفي اقل من شهر استطاع الكرماني ان يهرب من سجنه في قلعة مرو الى قرية تدعى نوش حيث التحق به زهاء الثلاثة آلاف رجل من الازد جلهم من بني عشيرته معن (٧) . كما انضم اليه عدد لم يحدد من « اهل التقادم » ،

---

(١) كذا ص ١٨٧٠ – ٧٩ ، والبلاذري . انساب ج ، ص ٣٤٨ .

(٢) الطبري ١٨٣٦ و ١٨٤٥ – ٧ .

(٣) الطبري ص ١٨٥٩ – ٦٠ .

(٤) كذا ص ١٧٦٧ و ١٨٤٦ و ١٩١٩ .

(٥) كذا ص ١٨٤٧ .

(٦) كذا ص ١٨٥٥ – ٥٦ .

(٧) كذا ص ١٨٦١ – ٢ .

اي من بعدت إقامتهم في البلاد [1]. فما ان بلغ الخبر نصراً حتى استعد لقتال الكرماني ، لكن الأخير وقد ادرك على ما يظهر عجزه عن ملاقاة جيش نصر سعى الى الصلح مع نصر وتم عقد الصلح بين الطرفين دون قتال وتعهد نصر ان « يدفع للناس بعض اعطياتهم » [2]. لكن هذا الصلح لم يدم إلا شهراً وبعض الشهر لان الوضع تغير وبصورة سريعة الى صالح نصر .

ذلك ان الخليفة يزيد بن الوليد ادرك ان تعيين منصور بن جمهور والياً على العراق والمشرق قد ادى الى كثير من المتاعب والاستياء لا في العراق فحسب وانما في خراسان ايضاً ، ولهذا قرر عزله وتولية عبد الله بن عمر بن عبد العزيز مكانه على العراق وخراسان . وقد سارع عبد الله فأقر نصر بن سيار على عمله في خراسان [3] وكان هذا انتصاراً لا شك فيه لنصر وحزبه رد عليه الكرماني واتباعه في الحال بالعودة الى السلاح واستئناف الثورة .

وبعد مفاوضات متعثرة بين نصر والكرماني ، وافق الكرماني على الانسحاب من المدينة والذهاب مع اصحابه الى قرية ماسرجسان [4] ، حيث انضمت اليه هناك اعداد جديدة من الوافدين الجدد نذكر منهم على وجه الخصوص بعضاً من ربيعة بقيادة يحيى بن نعيم [5] وبعضاً من كنده [6] وآخرين من مضر [7] وما يحتمل ان يكون القسم الاكبر من جند اهل الشام [8]. ومن الملاحظ انه على الرغم من وجود بعض من القبائل المضرية في جيش الكرماني فقد كانوا يدعون « اليمانية » في حين كان نصر واتباعه يدعون « مضراً » [9]

---

(١) الطبري ١٨٦٢ ، ويعرف هؤلاء بـ « اهل السقادم » ، او كما ورد في مكان آخر في الطبري (ص ١٩٥٤) وفي الكامل لابن الاثير (ج ٥ ص ٢٧٣) « اهل التقادم » وهو الاصح وهو ما اخذنا به هنا ويقصد بهم العرب الاوائل المستقرون في مرو .

(٢) كذا ص ١٨٦٣ – ٤ .

(٣) كذا ص ١٨٥٤ و ١٨٥٥ .

(٤) كذا ص ١٨٦٤ – ٦ و ١٩٢٥ .

(٥) كذا ص ١٩٢٥ – ٣٢ و ١٩٩٢ .

(٦) كذا ١٩٣٢ .

(٧) كذا ١٩٣٥ .

(٨) كذا ١٥٩٠ – ١٩٢٦ .

(٩) كذا ص ١٩٢٧ و اليعقوبي تاريخ ج ، ص ٣٩٩ .

ولما وجد الطبري بين اتباع نصر نفراً من ربيعة اطلق عليهم « النزارية » وهو اسم مناسب يشمل ربيعة ومضر [1]. ولكن المدائني وقد ادرك صعوبة التفرقة القبلية بين جيشي الطرفين فقد اكتفى بتسمية كل فريق باسم رئيسه فاطلق عليهم اتباع نصر او اتباع الكرماني .

وعلى كل حال فان نصر لم يستطع ان يجمع عدداً من الناس كافياً لمحاربة الكرماني الذي اخذ يزداد مع الايام قوة وعدداً . واكثر من هذا فان وفاة امير المؤمنين يزيد ، وعدم وجود سلطة معترف بها لتقره في مركزه من جديد قد احرجا نصراً واضعفا مركزه اذ انه يعني انه لم يعد الوالي الشرعي لخراسان وهذا – بلا شك – قد اضعف موقفه بصورة عامة، وتجاه كثير من انصاره على وجه الخصوص .

وهذه الحقيقة ، مضافاً اليها ظهور الحارث بن سريج مجدداً وبغتة كان لهما اعمق الاثر على اتباع نصر ، بل وفي الواقع على سير الاحداث في خراسان .

وكان يزيد قد أمن الحارث بمشورة من نصر بن سيار الذي ظن ان الحارث قد يساعده على تقوية مركزه بين القبائل العربية في خراسان ضد الكرماني واتباعه [2] ، فوصل الحارث الى مرو في جمادى الآخرة من عام ١٢٧ هـ (مارس عام ٧٥٤م) في الوقت الذي كانت الحروب الاهلية تستعر في قلب الامبراطورية والثورات تكتسح كل شبر من املاك العرب [3] .

وكان نصر ما يزال في السلطة إلا أنه لم يكن مستطيعاً السيطرة على الاحوال في خراسان ، وحين تولى يزيد بن عمر بن هبيرة ولاية العراق والمشرق من قبل امير المؤمنين الجديد مروان بن محمد فانه اقر او بالاحرى عين من جديد نصر بن سيار والياً على خراسان فبايع نصر بالخلافة الى مروان [4] وهذا كما يبدو لم يكن رأي عامة اتباع نصر .

---

(١) الطبري ص ١٨٥٥ و ١٩٢١ .

(٢) الطبري ص ١٨٦٧ – ٨ .

(٣) فلهاوزن ص ٣٧٠ – ٩٦ .

(٤) الطبري ص ١٩١٧ .

وفي الواقع فان خلافة مروان بن محمد ظلت موضع الخلاف في اكثر انحاء الامبراطورية، ولم يكن الحارث بالرجل الذي تفوته مثل هذه الامور، او الذي تفلت منه هذه الفرصة السانحة لتأييد زعامته بين القبائل العربية في خراسان، لذلك فقد سارع الى التخلي عن بيعة مروان (١) فانحاز اليه في الحال ثلاثة آلاف رجل من اتباع نصر (٢)، واستطاع، بواسطة داعيته جهم بن صفوان ان يحصل على تأييد اوسع لقضيته (٣) ولم يظهر الحارث هذه المرة ثائراً متمرداً وانما ظهر زعيماً هدفه وحدة الجماعة العربية، وفي نفس الوقت فانه كان ضد الظلم، اي انه يريد ان يدافع عن كل ما يعتقده القبليون انها حقوقهم المشروعة(٤) وبهذا فقد اصبح الحارث في الواقع اكثر خطراً على على نصر من الكرماني (٥) وقد اراد نصر ان يتجنب القتال مع الحارث ولكنه اضطر اليه آخر الامر بعد ان استنفذ كل الوسائل السلمية للوصول الى اتفاق معه.

وقد استطاع نصر ان يلحق اول الامر بقوات الحارث الهزيمة، وذلك في جمادى الآخرة عام ١٢٨ هـ / مارس ٧٤٦ م، لكن الكرماني استغل الظروف ودخل القتال الى جانب الحارث (٦) ولم يبق بعد هذا امام نصر من خيار إلا الانسحاب لا من ساحة القتال فحسب بل ومن مرو نفسها ايضاً (٧) فلجأ الى نيسابور ودخل الحارث وجديع مرو منتصرين.

لكن اتفاق هذين الاثنين لم يدمْ إلا أياماً معدودة، فاضطر الحارث تحت ضغط اصحابه ان يستأنف القتال ضد الكرماني الذي ربح نصراً حاسماً في هذه المعركة وان انتهت بمقتل الحارث نفسه فيها، وبذا اصبح الكرماني وحده سيد الموقف في مرو (٨).

---

(١) كذا ص ١٩١٧ – ١٨.
(٢) كذا ص ١٨٩٠ و ١٩٢٠.
(٣) كذا ص ١٩١٨.
(٤) كذا ص ١٨٨٩ – ٩٠ و ١٩١٩.
(٥) كذا ص ١٩١٩ و ١٩٢٨ – ٢٩.
(٦) كذا ص ١٩٢٢ – ٨.
(٧) كذا ص ١٩٢٩.
(٨) كذا ص ١٩٣٠ – ٣٤.

لكن نصراً لم يدع الكرماني يقطف ثمار نصره ويهنأ به فظل يرسل اليه في عام ٧٤٧١/٢٩ من نيسابور حملة بعد اخرى ضد مرو ، فلما استطاع الكرماني واتباعه رد هذه الحملات جميعها سار نصر بنفسه مع جيشه نحو مرو .

وهنا تقابل الخصمان اللدودان وعسكر كل منهما تجاه الآخر واستمر القتال بين جيشيهما بكل شراسة واستماتة [١] ولكن ما فاجأ الطرفين واذهلهما في هذه اللحظة الحاسمة هو ظهور طرف ثالث في النزاع لم يكن في الحسبان ذلكم هو ابو مسلم الخراساني واتباعه .

---

(١) كذا ص ١٩٧٠ – ٧٢ .

الفصل التاسع

الثورة

١ ــ طبيعة الدعوة

يقدم لنا مؤرخو الملل والنحل صورة مربكة عن المذاهب الاسلامية المتعددة وعلاقات بعضها ببعض وتشابك بعضها مع البعض الآخر ، فهم يصورون المذاهب على انها الاقسام الدينية الكبرى ، ثم يشعبون هذه المذاهب الى فرق والفرق الى طوائف والطائفة الى ملل والملة الى طرق والطريقة الى نحل ، ثم يضعون لكل من هذه الأقسام والشعب آراء دينية وفلسفية واضحة ، ثم يحاولون الربط بين هذه المذاهب وأقسامها وشعبها بشبكة متقنة من الآراء والافكار.

وفي حين ذكرت بعض هذه الفرق باسمائها فقط دون معلومات مفصلة عنها ، فان بعضها الآخر قتلت بحثاً ودراسة ، ومع هذا فان الدراسات الحديثة تشك وتتساءل عن حقيقة وجود بعضها ، فهذا المستر و. م. وات قد انتهى مؤخراً الى القول انه « على الرغم من كثرة الاشارات في كتب الملل والنحل الى فرقة الجهمية ، فان هذه الفرقة لم توجد اصلاً ... فالمعلومات المحددة عن بعض الاشخاص الذين يُعرف الشيء القليل عن تاريخهم لهو اوثق واغلى من الاوصاف العامة للطوائف »[١] .

وفي الواقع ان علماء الكلام قد غيروا الكثير من وصف اهل الملل لتاريخ الملل الأول في نفس الطريقة التي غيرت فيها الممارسات المعاصرة للكثير من

---

(١) و. م. واط : الاتجاهات السياسية عند المعتزلة : مجلة الجمعية الاسيوية الملكية ١٩٦٣ ص ٤١ — ٢ .

اجتهاد الفقهاء في تاريخ صدر الاسلام . وعلى رأي اهل الملل والنحل فان الباحثين العصريين يصنّفون الهاشمية على انها فرقة من الغلاة ، وفي هذا يقول برنارد لويس : —

« كان العباسيون الذين خلفوا الامويين يعرفون بالهاشمية ، واستناداً الى المؤرخين المتأخرين فان هذا الاسم يشير الى هاشم وهو الجد الاعلى للعباس بن عبد المطلب وعلي بن ابي طالب والرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد اتخذ اساساً للادعاء بالوراثة المستندة الى القرآن من الرسول (ص) . لكن الواقع ان هذا الاسم كانت له اهمية خاصة اخرى فهو يشرح بكل وضوح الاصل الحقيقي للحزب العباسي . ففي خلال حكم بني أمية فان عدداً كبيراً من الفرق الشيعية والفرق المناصرة للشيعة ، التي نمت وازدهرت في مختلف انحاء الامبراطورية وخاصة في القسم الجنوبي من العراق ، يمكن تقسيمها بصورة عامة الى قسمين رئيسيين ، الاول وهم الذين يتبعون اولاد فاطمة ، وهم على العموم معتدلون وينحصر اختلافهم عن الخط العام بتأييدهم على أسس مشروعة المطالب السياسية لابناء علي بن ابي طالب رضي الله عنه . وبرز القسم الثاني لأول مرة في ثورة المختار الذي خرج عام ٦٦/٦٨٥ يدعو الى ولد آخر من اولاد علي بن ابي طالب — من غير ولد فاطمة — هو محمد بن الحنفية، وهو الذي ظلت مختلف الفرق المتطرفة تتبنى مطالبه ومطالب خلفائه وترفع شعاراتهم وتدعو اليها خلال فترة الستين او السبعين عاماً التالية، مستمدة سندها في هذا من طبقة الموالي الساخطين، والتي لم يكتمل إسلامها بعد والذين ضمنوا عقيدتهم وتعاليمهم الكثير من الافكار والآراء التي نقلوها من شعائر دياناتهم السابقة . وقد انقسم اتباع محمد بن الحنفيه بعد موته في عام ٨١/٧٠٠ الى ثلاثة أقسام رئيسية تبعت احداها ابنه عبد الله أبا هاشم وعرفت بالهاشمية ، وحين مات ابو هاشم دون عقب في عام ٩٨/٧١٦ تشتت اتباعه ثانية الى عدة جماعات ادعت احداها ان ابا هاشم اوصى بالامامة من بعده الى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس وذلك حين حضرته الوفاة في دار علي بن عبد الله (ابي محمد) في الحميمة من ارض فلسطين ، وهذه الجماعة ظلت تدعى الهاشمية وتدعى ايضاً الراوندية »[1] .

---

(١) ب . لويس : العباسيون : دائرة المعارف الاسلامية . ليدن ١٩٥٤ .

وفي دراسة حديثة ذهب المستشرق الفرنسي كلود كاهين الى تفسير جديد للفظ « الغالية » فقد ذهب الى القول ان محتوى هذا اللفظ لا يدع شكاً في ان « الغالية » هم الغلاة المتطرفون الذين يبالغون في تعظيم شخصية ما حتى درجة التقديس ويضفون عليها صفات إلهية »[1] . وهذا القول يجرنا الى جوهر الخلافات بين الفرق الشيعية المختلفة . وعلى المرء ان يترك جانباً نظريات كتاب الفرق والنحل وان يحاول ان يتفهم الاطوار الاولى التي تظهر فيها الحاجة الى مثل هذه الشخصية ذات المزايا فوق البشرية .

ولا ريب ان هذه الشخصية الخارقة هي الامام . وفكرة الامام كقائد للمسلمين هي بالتأكيد فكرة شيعية ، ومع اتفاق جميع الفرق الشيعية حول فكرة الامامة نفسها فانها تختلف فيما بينها حول مدى سلطة الامامة وكيفية حصوله على هذه السلطات وطريق ممارسته لها وكيفية اختياره للإمام ليمارس سلطاته هذه .

وتتفق الفرق الشيعية كافة على ان مصدر سلطات الامام وصفاته هو «العلم» . فالمفروض في الامام ان يحيط ، عن طريق الوحي والالهام او الوراثة ، إحاطة تامة بالعلوم الالهية ، وبمعرفته بهذه العلوم يستطيع الامام ان يحل مشاكل الأمة الاسلامية ، وعلى ذلك فان الفرق الشيعية تحتاج الامام ليكون اميراً للمؤمنين ، أي أنهم يريدون للأمة الاسلامية قائداً له السلطتان الزمنية والدينية معاً .

وقد يساعدنا الالمام بوصف مختصر لتطور فكرة « إمارة المؤمنين » وواجباتها على توضيح نقط الخلاف التي ينطوي عليها الصراع الكبير الذي دار حول هذا الموضوع .

فأبو بكر الصديق ، وهو أول من ولي شؤون المسلمين بعد وفاة الرسول (ص) لم يكن أميراً للمؤمنين « وانما كان خليفة رسول الله (*) وقد

---

(١) سي . كاهن : وجهة نظر حول الثورة العباسية . المجلة التاريخية ١٩٦٣ ص ٣٠٩ .

(*) قال ابن خلدون : واما تسميته خليفة فلكونه يخلف النبي في أمته . فيقال خليفة باطلاق . وخليفة رسول الله . واختلف في تسميته خليفة الله فاجازه بعضهم من الخلافة العامة التي للادميين في قوله تعالى « اني جاعل على الارض خليفة » وقوله « وجعلكم خلائف » ، ومنع الجمهور منه لان معنى الآية ليس عليه . وقد نهى عنه ابو بكر لما دعي به وقال انا لست خليفة الله ولكني خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولان الاستخلاف هو في حق الغائب ، أما الحاضر فلا « المقدمة الفصل ٦ ، ص ١٥٩ .

اختير ليجمع كلمة المسلمين حوله وليحمي حوزة الدين الذي جاء به محمد (ص) . ومن الواضح ان احداً لم يسبق أبا بكر الى هذا المنصب فلم يكن لديه سوابق يعتمد عليها ويهتدي بها ، كما ان من الواضح ايضاً ان ابا بكر لم يكن يستطيع ولا يقدر ان يحوز على كل السلطات التي كانت للنبي محمد (ص) . وساعد على غموض الموقف اختلاف الناس في معنى كلمة « خليفة » ، فقد اختلف المفسرون في معناها دون الوصول الى نتيجة اكيدة ، وما زال الجدل حول معنى هذه الكلمة قائماً بين الباحثين الحديثين ودون نتيجة ايضاً ، فهذا المستر وات مثلاً ينتهي الى ان المعنى الأول لكلمة « خليفة » هو ان يلي شخص شخصاً آخر ويحل محله في امر ما[1] ، وطبيعي ان هذا المعنى لم يكن واضحاً تماماً عند ابي بكر ، واذ لم يكن احد من اهل المدينة يعرف واجبات هذا المنصب بالضبط وما يفرضه المنصب على صاحبه من التزامات وقد جر هذا الغموض الى تأكيد الحد الادنى من السلطة وفي نفس الوقت ترك الباب مفتوحاً لاجتهادات وتوسعات أخرى .

واذ نجحت تجربة الحكم خلال العامين الاولين من عهد ابي بكر فقد تقرر السير بها قدماً، ولهذا، فقد استخلف ابو بكر عمراً من بعده دون اية معارضة من احد . وقد اتخذ عمر لنفسه او خلعت عليه الجماعة لقب « امير المؤمنين » وهو مايعني آمرهم أو قائدهم . ولكن هذا الفهم لهذا اللقب مغلوط لانه يتضمن سلطات وامتيازات لم تكن لعمر ، ولكلمة امير عدة معان ولا يصح الركون الى هذا المعنى فقط وتجاهل المعاني الأخر ، فالامير تعني الملك والرئيس والوالي والحاكم وقائد العميان والبعل والجار والناصح والمشير ، وهذا المعنى الاخير هو الذي يهمنا في هذا الصدد (**) . فقد كان لقب امير المؤمنين يعني في اول الامر مشاور . وبالفعل فان المؤرخ اليوناني تيوفانز سماه « المشاور الاول »[2].

---

(١) ف . م . واط . الفكر الاسلامي فسياسي ١٩٦٨ ص ٣٢ .

(**) « ... وقيل في الحديث اميري من الملائكة جبريل . أي صاحب امري، وكل من فرغت الى مشاورته ومؤامرته فهو اميرك... » لسان العرب تحت كلمة امر .

(٢) فلهوزن ص ١٣٨ .

وعلى هذا فقد اختير عمر مشاوراً للجماعة المسلمة دون اية سلطة قيادية ولم تكن التقاليد القبلية تمنح الرئيس سلطة واسعة في الحرب والسلم. وكان هذا امراً مفهوماً لدى عمر ولدى الجماعة الاسلامية ورغم ان اسم المنصب قد تغير مراراً إلا ان صلاحيات الوظيفة ظلت كما كانت في حدود الحد الادنى، لكن عمر استفاد من شخصيته القوية في توسيع صلاحياته لكنه مع هذا ظل يراقب نفسه بكل حذر وعناية خشية ان يتعدى حدود ما رسم له.

ولم يبدأ الاشكال إلا حين أدى اتساع الامبراطورية السريع الى ظهور مشاكل سياسية واقتصادية لم تكن في الحسبان. وكانت هذه المشاكل من التعقيد والتشابك بحيث يتعذر حلها ضمن الاطار العام للنظام الاقتصادي السياسي السائد.

فالبلاد المفتوحة حديثاً ظلت في الواقع ذات استقلال ذاتي وبدأت افواج القبائل العربية تتدفق اليها لتستقر في الحاميات العسكرية العربية المنشأة في مدنها حديثاً. وكانت هذه الهجرة الواسعة غير المنظمة اكثر نتائج الفتح العربي خطراً وأهمية وان لم يقدرها، بعد، حق قدرها، دارسو التاريخ الاسلامي.

فلا غرابة بعد هذا ان تبرز للوجود بعد وفاة عمر مشكلة مستقبل النظام بأجمعه. ولذا لم يشأ عمر ان يستخلف بعده شخصاً معيناً ولو شاء ذلك لكان بامكانه ان يختار خلفه من بين كبار الصحابة والبارزين في المسلمين. ولكنه فضل ان يختار جماعة الشورى لتقرر النظر في اختيار الخلف. وحتى لو اقتصرت مهمتهم على تسمية المرشح الجديد فيجب ان يكون اختيارهم مبنياً على فحص دقيق لسياسة كل من المرشحين ودراسة شاملة لكل اوجه الوضع، وهذا ما اثبتته الاحداث التالية. فبعد مفاوضات ومساومات استقر الترشيح على اثنين فقط هما علي وعثمان، ولم يرضَ علي ان يقبل الترشيح على أن يتبع سياسة الشيخين، اي ان تكون سلطته في الحكم محدودة وانما سأل حرية العمل حسب اجتهاده «ولكن على جهدي من ذلك وطاقتي» وذلك ليستطيع ان يواجه متطلبات الظروف المتغيرة المستجدة، لكن عثمان قبل الترشيح على ان

« يتبع ما اتبع الشيخان ابو بكر وعمر »[1] ففاز بالمنصب وخسره علي فكانت النتيجة الاتيان بأمير جديد للمؤمنين محدود السلطة وحرية التصرف في مجتمع يتهدده الاضطراب والقلق وفي ظروف تضطرم فيها تيارات التحول العميق .

وقد أدت هذه النتيجة بدورها الى استمرار تردي الاوضاع في البلدان المفتوحة حديثاً ، وكان ابرز ما يتمثل ذلك في مدينة الكوفة حيث استأثرت بموارد البلد طبقة واحدة هي طبقة الفاتحين الاوائل الذين كانوا يدعون « الاشراف » فكان عطاء الواحد منهم ثلاثة آلاف درهم في مقابل ثلثمائة درهم لغيرهم من الوافدين اللاحقين ، وامتد هذا التباين الواضح في توزيع المغانم بين الوافدين الأوائل — او اهل التقادم ، وهم الفاتحون الفعليون — وبين الوافدين اللاحقين الى جميع البلدان التي يسيطر عليها الكوفيون .

وقد تمسك الاشراف بامتيازاتهم وعارضوا بشدة أية محاولة من الوافدين الجدد للتساوي معهم في العطاء ، وكانت ردة الفعل لهذا انتشار السخط والنقمة بين هؤلاء الوافدين الجديد وإلحاحهم المستمر بوجوب التساوي مما خلق حالة من التوتر والانشقاق في صفوف العرب في هذه البلدان .

وقد فقدت العشيرة ، وهي الوحدة الاجتماعية في الجماعة العربية اهميتها الاجتماعية . فطالما كان تدفق العرب الى البلاد المفتوحة اعتباطا ، ودون ضابط ، فقد نشأت في تلك المدن تكتلات عشائرية تضم افراداً من عشائر متقاربة وأخرى غير متقاربة، وقد ادى وجود هذه التكتلات الى النزاع الحاد حول زعامتها . وفي نفس الوقت ظهرت قيادات اسلامية جديدة تحاول ان تستقطب الناس وتنافس الارستقراطية العربية القديمة كما حدث في حالة الاشعث بن قيس الكندي في الكوفة .

وسرعان ما ادرك عثمان عجزه عن الوفاء بوعده وحاجته الى المزيد من السلطة الدينية والزمنية ليستطيع ان ينهض بالمهام الموكولة اليه ويعالج المشاكل المتكاثرة أمامه . ولم يكن عثمان بالحاكم الضعيف بل على العكس من هذا فقد كان

---

(١) البلاذري : انساب ج ٥ ص ٤١ — ٤٢ ، الطبري ج ١ ص ٢٧٩٣ — ٤ .

يحاول ان يكون قوياً ، وقد ابتدأ سلسلة من المغازي في شمال افريقيا ومثلها في ايران . وعين أمراء اشداء لقيادة هذه الحملات . فلم يكن احلال اخيه في الرضاعة ابن ابي السرح محل عامر بن العاص مجرد عمل من اعمال المحسوبية والتعصب لذوي القربى بل كان له دلالة اعمق من ذلك وابعد ، فقد تعمد عثمان تنحية والٍ صلب الرأي حر الذهن والتفكير ليحل محله آخر من اقاربه يستطيع ان يثق به وان يعتمد على طاعته وولائه .

وقد كان عثمان يحاول ان يؤكد سيطرته على الولايات ذات الحكم الذاتي عن طريق تعيين رجاله ولاة وعمالاً عليها ، وعلى هذه الشاكلة يمكننا ان نجد التفسير لكثير من أعماله الأخرى التي شكت منها بعض الفئات الاسلامية فنجد ان عثمان كان يهدف من ورائها الى تقوية سلطاته وتشديد قبضته كأمير للمؤمنين . وكان أعنف معارضيه في سياسته هذه رجال القبائل العربية في مختلف الولايات الجديدة الذين خرجوا عليه في النهاية وقتلوه .

وقد جزع أهل المدينة للتطور غير المتوقع للاحداث ، وظلوا بعد مقتل عثمان خمسة ايام وهم لا يجدون من يرضى بتولي مسؤولية الحكم ويقبل ان يكون أمير المؤمنين الجديد(1)، وأخيراً اضطر علي تحت ضغط الاحداث السائدة الى قبول الحكم في أسوأ ظروف ممكنة . فالانفجار المتوقع منذ زمن طويل قد حدث فعلاً ، وانقسمت الجماعة الاسلامية على نفسها اسوأ انقسام واعمقه وكان على علي ان يقبل الحكومة على هذه الجماعة المنقسمة . ويضاف الى ذلك ان قريش لم تكن تثق بعلي كثيراً رغم كونه قرشياً من أبناء مكة ، لانها ترى ان ظروف نشأته في بيت محمد (ص) قد قللت من اهتمامه بالمصالح المكية . وكان طلحة والزبير هما زعيمي المعارضة المكية لعلي ولكنهما فشلا في الحصول على تأييد واسع لقضيتهما ضده .

وكانت قوة علي تستند على ائتلاف جماعات متعددة كانت ترجو ان تؤثر عليه لتحقيق مصالحها الخاصة . فقد اصبح علي بطل قضية الانصار من اهل

---

(1) الطبري ج ١ ص ٣٠٧٣ .

المدينة ، وخاصة حينما بدأ هؤلاء يشعرون بالاهمال من بعد وفاة رسول الله (ص) وقد وقف اهل المدينة مع علي حتى اللحظة الاخيرة رغم انهم ما كانوا ولم يصبحوا من الشيعة .

وكانت الكوفة بجميع طبقاتها مع علي ايضاً ، يستوي في ذلك الفاتحون الاوائل أم الوافدون اللاحقون، فاما المؤسسون الاوائل ذوو المصالح الثابتة فكانوا يظنون ان علياً سوف يقف الى جانبهم ويعكس تيار المساواة في توزيع الغنائم الذي بدأ يهدد مصالحهم ايام عثمان . وكان القادمون اللاحقون من انصار علي ايضاً وكان سر نصرتهم له املهم ان يساعدهم في رفع الحيف بتعديل طريقة توزيع الغنائم تعديلاً جوهرياً يحقق مساواتهم مع زملائهم المؤسسين الاوائل .

وقد اشتهر عن علي انه كان يجتهد برأيه، او كما قال هو «جهده وطاقته»، لمجابهة التطورات الجديدة في المجتمع الاسلامي وما تحمله من مشاكل ، اي انه كان يدع للجديد ان يأخذ مكانه ما دام يرى انه حق . وكان هذا الاسلوب في الحكم على جانب كبير من الخطورة ، لان اصحاب المصالح الثابتة يعارضون — بطبيعة الحال — أي تغيير ينال من مصالحم ، واكثر من هذا فقد اخذوا يحاولون إضفاء الصفة الدينية والشرعية على مبررات موقفهم ومطالبهم ، لذلك فان احوج ما تحتاج اليه الجماعة الاسلامية في هذا الظرف لتعيد اليها وحدتها وتماسكها هو رجل مثل علي يعد بالتغيير ويفسح له ويستطيع بثقة ولباقة ان يفسر آيات الذكر الحكيم حول توزيع الفيء والغنيمة لمصلحة الوافدين واللاحقين .

لكن سرعان ما ادرك علي صعوبة التوفيق بين مختلف المصالح وبالتالي إرضاء جميع الفئات في الكوفة . فقد كانت مصالح الفئات المختلفة على اقصى درجة من التناقض والتباين بحيث يؤدي إرضاء أية فئة منها الى اغضاب الفئات الأخرى .

وكان الخوارج أول من خرج على علي من انصاره وعارضوه بقوة وعنف لانهم رأوا في نظرته للامور وشرحه للنصوص خطراً يهدد مصالحهم.

وليس صحيحاً ما يقال ان دافع الخوارج الى موقفهم العنيف الحازم ضد علي كان إحساسهم بعدم الاستقرار بسبب الاضطراب الاجتماعي الكبير الذي عم الجماعة الاسلامية نتيجة الفتوح الاسلامية، كما لم يكن دافعهم اليه مجرد الاحتجاج العام ضد النظام اللاشخصي، اي الموضوعي الصرف الذي لا يقيم وزناً للاشخاص، ولو ان هذه المعارضة كلفتهم أمنهم وحياتهم [1]. ان ما كان يريده الخوارج هو تطبيق حكم الله اي حكم القرآن كما يفسرونه هم لا كما يفسره الآخرون فهم يريدون ان يكون امير المؤمنين مجرد اسم لا سلطة له ابداً.

وفي حين خرج الخوارج على علي وانفصلوا عنه، فان القادمين اللاحقين الى الكوفة الذين املوا ان ينصفهم التغيير الذي يزمعه علي، استمروا في تأييده وصاروا شيعته واصبح بالنسبة اليهم الخليفة – الامام الذي يستعمل «علمه» بالعلوم الالهية لاصلاح الاوضاع. وبهذا اصبح «العلم» او المعرفة عند الامام حجر الزاوية في الاعتقاد الشيعي، وترك للاجيال الشيعية القادمة ان تتجادل فيما بينها عن طبيعة هذا العلم وكيفية حصول الامام عليه.

وقد كانت الجماعة الاسلامية تعترف لعلي ابن ابي طالب بمواهب عقلية بارزة ولكنها لم تكن على استعداد لتمنحه اي سلطات دينية لتسيير شؤون وظيفته. فلما انفرط عقد الائتلاف الذي اقامه علي لم تبقَ معه إلا اقلية ضئيلة من الانصار، فأذن نجمه بالافول وحكم على قضيته بالخسران رغم التأييد البطيء الذي جاءه من الكوفة، وحتى دون المعارضة غير الشاملة من الشام. وقد دفع علي حياته ثمن فشله فقتل غيلة، ثم فشل من بعده ابنه الحسن في الحصول على تأييد كاف ذي أثر فآثر التنازل عن حقه في امرة المؤمنين.

---

(١) و. م. واط: فكرة البطولة في الاسلام. ص ٨٥، وله ايضاً «الفكر الخارجي في العصر الاموي» مجلة الاسلام مجلة ٣٦ ص ٢١٧.

ونودي بمعاوية ابن ابي سفيان اميراً للمؤمنين من بعد علي ولكنه لم يمنح سلطات دينية وكانت سلطاته الزمنية أشبه بسلطات أبي بكر وعمر. وكان انتخابه حلاً وسطاً بين كل الاطراف المعنية. فهو مع كونه قرشياً إلا أنه لا يرتبط بالمصالح المكية ارتباط طلحة والزبير بها، وكانت بين يديه قوة اجناد الشام، إلا أنه بكل حصانة وتعقل آثر عدم اظهارها وفسح المجال لرؤساء القبائل العربية ان يشاركوه الحكم نداً بين انداد، واستعاض في حل الامور بالحلم عما يفتقده من سلطة وحاول ان يزيل بعض المظالم في العراق ولكنه بصلاحياته المحدودة لم يستطع إرضاء جميع الاحزاب. وكان توازن القوى الدقيق الذي حققه يعتمد أولاً وقبل كل شيء على شخصه بالذات، فلما توفاه الله عادت الامور في انحاء الامبراطورية الى ما كانت عليه قبل مجيئه الى الحكم. فكانت ثورة الحسين بن علي الذي رأى انه احق بالامر من غيره ولكنه لم ينجح في ثورته واستغل اهل مكة انهيار الحكومة المركزية فحاولوا ان يستعيدوا ما فقدوه من نفوذ فاقاموا برئاسة عبد الله بن الزبير نظام حكم منافس ومناوئ للحكم الاموي.

وقد نال هذا النظام اعترافاً واسعاً شاملاً إلا أن التأييد له لم يكن على جانب كبير من القوة والحماس، اذ لم تكن الجماعة المسلمة على استعداد للانضواء تحت السيادة المكية، وكان جند أهل الشام ما يزال على قوته وولائه لبني أمية، وكانوا راضيين عن اوضاعهم الاجتماعية وعن طريقة توزيع الارض بينهم والتي تمت اول ايام الفتح العربي والتي جهد معاوية في الحفاظ عليها خلال الاربعين عاماً التي بقاها في الشام. وقد استطاع أهل الشام بعد فترة من الوقت أن يفرضوا بقوتهم العسكرية الوحدة على انحاء الامبراطورية كافة.

وقد تميزت هذه الفترة بالارتباك العام والفوضى الشاملة. فالبصرة التي كانت معرضة لخطر ماحق من الخوارج كانت على استعداد للقبول بأية سلطة تدفع عنها هذا الخطر. وظلت الكوفة في تطلعها للتغيير – شأنها دوماً – مركزاً ومهداً للحركات الثورية. وقد ظن بعض اهل الكوفة ان حكم بني أمية قد انتهي بوفاة يزيد بن معاوية ٦٤/٦٨٤ فظهرت حركة التوابين وقوامها اربعة آلاف

نفر من ابناء القبائل العربية في الكوفة ، يتوبون لله تعالى عن مقتل الحسين بن علي وينتقمون من قتلته .

ومع ان اكثر المسؤولين عن حادث كربلاء كانوا آنذاك في الكوفة فان التوابين في سبيل تحقيق اغراضهم زحفوا نحو الشام حيث امكن دحرهم والقضاء عليهم بسهولة . ولا شك ان هؤلاء التوابين كانوا من شيعة علي الاوائل ، ولكنهم – على العكس من كل الفرق والحركات الشيعية الاخرى – لم ينصبوا إماماً او يدعوا الى امام . وما لبثت ان ظهرت في الكوفة ايضاً حركة شيعية اخرى احسن تنظيماً واكثر شمولاً هي حركة المختار بن ابي عبيد الثقفي .

ولعل ثورة المختار هي اكثر الحركات في صدر الاسلام التي أسيء فهمها وتفسيرها ، وقد كانت بالطبع ثورة شيعية ظهرت في الكوفة وتهدف الى التغيير ، ولكن طبيعة هذا التغيير لا يمكن فهمها حق الفهم ما لم تشرح العوامل الاجتماعية والاقتصادية شرحاً وافياً . ومع الاسف فلم تظهر لحد الآن أية دراسة وافية عن الكوفة نتعرف منها كيف سكنت الكوفة او نتعرف منها على أي مظهر آخر من مظاهر عدم الاستقرار في هذا البلد المضطرب . ولسوء الحظ ايضاً فان الباحثين المعاصرين لم يلتفتوا الى هذه الناحية ، وانصرفوا عنها الى تفسيرات مضللة لاهداف الثورات المتعددة في ذلك المصر .

وقد نسبت ثورة المختار دون وجه حق الى سخط الموالي على الرغم من البينات المتكاثرة التي تثبت عكس ذلك[١] ، ذلك ان اكبر مجموعة للموالي يمكننا ان نجدها بين اتباع المختار – مع الانتباه الى ميل مصادرنا الى المبالغة – لا يزيد عددها عن الفين وثلاثماية رجل فقط[٢] .

وكان المؤيد الأول لثورة المختار هو ابراهيم بن الاشتر ورجاله ولم يكن

---

(١) سي . كاهن ص ٣٠٣ – ٥ ، واط « الشيعية تحت الحكم الاموي » جريدة الجمعية الاسيوية الملكية ص ١٦٢ – ٥ .

(٢) البلاذري : الانساب ج ٥ ص ٢٤٦ .

احد منهم من الموالي[1] . وكان المختار نفسه رجلاً انتهازياً، رأى تدهور الاوضاع السياسية في الامبراطورية فظن في نفسه القدرة على ملء فراغ القوة باعلان أمره في الكوفة . وبصفته من قدامى المقيمين في الكوفة فقد كان يعرف بالتأكيد الأسباب الحقيقية للصراع الداخلي فيها ، لذا فقد قرر ان يستغل الوضع لمصلحته الخاصة . فهو يعرف ورطة النازحين الجدد في صراعهم مع اصحاب المصالح الثابتة ، وهو يدرك ايضاً انه اذا ما اراد نصرة هؤلاء فعليه ان يقدم لهم « إماماً » يستطيع ان يحقق لهم الاصلاح المنشود ، واذ لا تزال سمعة علي وابنائه وذكراهم حية في اذهان شيعته في الكوفة فقد وجد المختار ان الاصلح ان يعلن ثورته باسم احد ابناء علي وهو محمد بن الحنفية الذي كان يسكن الحجاز آنذاك . وقد وافق الأخير بصورة غامضة ان يمنح اسمه لثورة المختار ، وما عدا هذا فليس في المصادر ما ينبئ عن وجود اي اتفاق آخر بين الطرفين . وعلى كل فقد نودي بمحمد بن الحنفية « إماماً » واعلنت الثورة باسمه . وقد ذهب المختار خطوة اخرى ابعد من هذا فلقبه « بالمهدي » ..

ومن الصعب هنا ان نعرف ان كان المختار يقصد بهذا اللقب ان يؤكد الصفة الدينية للامام لتتميز تجاه ذلك صفة المختار نفسه اميناً او وزيراً، ولينفرد بالتالي بالسلطان الزمني عند نجاح الثورة ، ومن الجهة الثانية فمن الممكن ان يكون هدف المختار من هذه العملية مجرد الدعاية لحركته ، وكان المختار استاذاً قديراً في فن الدعاية كما هو واضح من اشعاره الكثيرة وتنبوءاته ومن حمله الكرسي والتابوت .

ومصادرنا لا تدع شكاً في طموح المختار وانتهازيته ، ومع هذا فانها تعترف بأنه استطاع لفترة ما ان يلعب بخيال الناس الساخطين من ابناء القبائل العربية والذين كانوا سنده ومصدر قوته ، وما عدا ذلك فكل سند يأتيه من الموالي فهو عرضي غير هام . وعلى كل حال فقد روى لنا في حالة واحدة على الاقل ان الموالي لم يكونوا ذا اثر .

---

(١) كذا ص ٢٢٢ .

ومن الجدير بالذكر ان اقوى المعارضين للمختار في الكوفة هم الاشراف، أي الطبقة الوحيدة الراضية عن الوضع المتنعمة بخيراته، والتي كان عليها في النهاية ان تترك الكوفة وتلتحق بابن الزبير في البصرة حيث كوّنوا وحدة قوية في جيشه استطاعت ان تضع حداً لثورة المختار [1].

ولما آل حكم بني أمية الى عبد الملك بن مروان اقام حكومة مركزية قوية ووضع لها خطة توسعية عنيفة، ولم يحاول عبد الملك ولا أي من خلفائه الادعاء بأية سلطة دينية، ولكنهم كانوا دون ما أدنى شك، يتمتعون بسلطات زمنية اوسع من سلطات معاوية. وحتّى عمر بن عبد العزيز، فعلى الرغم من شهرته الدينية الواسعة فقد كانت سلطاته الزمنية كسلطات اي حاكم أموي آخر، وقد انصبت معارضته القصيرة الامد على سياسات اسلافه التوسعية ولكن ليس من الضروري ان تكون ضد تقوية سلطان الحكم المركزي.

ومع ان الامويين استطاعوا ضبط الامور بشكل فعال في العراق وبقية أنحاء الامبراطورية لكن سياستهم لم ترضِ كل العناصر. وكانت تقوية سلطة الحكومة المركزية مثار معارضة مستمرة متزايدة دوماً، وغالباً ما تتطور الى ثورات من الخوارج او الشيعة. لكن هذه الثورات المتعددة، وخاصة الشيعية منها، لم تكن تأخذ شكلاً عاماً، بل كان لكل ثورة اسبابها الخاصة بها النابعة من ظروف المنطقة المعنية وكانت اغلبها عبارة عن احتجاجات لهذه المظلمة او تلك التي يفرضها عليهم النظام القائم وانصاره.

ويتفق الخوارج على انهم يريدون اميراً للمؤمنين دون ما صلاحيات زمنية أو دينية. وتجمع الشيعة على انهم يريدون امير المؤمنين ان يكون إماماً له القدرة على تفسير النصوص الدينية. وكان من طبيعة الاشياء ان يعتمدوا على تراث علي ابن طالب التي جسده استشهاد ابنه الحسين في كربلاء وكانت قرابته للرسول (ص) عاملاً مساعداً آخر، وكانت العرب حتّى في ايام الجاهلية يقبلون رئاسة «آل البيت» من كل عشيرة اي الاسرة الحاكمة فيها، وكان من

---

(١) كذا ص ٢١٤ – ٧٣، والبلاذري هو خير من يصف نذزة المختار وتؤيد رواياته بقية المصادر الاخرى.

الطبيعي ان يطبق هذا المبدأ على أُسرة الرسول (ص) . وبالنتيجة فقد اعتقد الشيعة ان قيادة الامة الاسلامية هي حقهم الشرعي . وان « العلم » الذي اشتهر به علي انما ينتقل الى ذريته او على الاقل من إمام الى آخر .

وكانت الظروف التي تحيط بالحركات او الثورات الشيعية في شتى انحاء الامبراطورية هي التي تقرر المبادئ الاساسية لكل فرقة وطائفة . كما ان وجود فرد معين من أهل البيت هو الذي يقرر طبيعة الفرقة الشيعية المعنية أو الطريقة التي تعتمدها لتنصيب إمامها اميراً للمؤمنين . وكانت بعض هذه الفرق تدعو للثورة المسلحة في حين ادرك بعضها الآخر المخاطر التي تنطوي عليها الثورة فآثر الانتظار حتى تتهيأ للدعوة ظروف احسن دون ان تؤدي الى انقسام الامة الاسلامية .

وكانت هناك جماعات صغيرة قد بلغ بها اليأس حداً استحلت معه عمل كل شيء لتحقيق اغراضها بما في ذلك استعمال القوة والارهاب .

وقد انفجر النشاط الشيعي في الكوفة في اخريات الحكم الاموي الامر الذي يصور بوضوح التيارات الشيعية المختلفة . وقد اعلن اهل الكوفة معارضتهم الصريحة والعنيفة للحكم المحلي بمؤازرتهم لثورات المختار والاشعث ويزيد بن المهلب ، مما ادى بالحكام الامويين الى تقوية مركز جند اهل الشام في العراق بقيادة مسلمة في عام ١٠٢/٧٢٠، ولذا لم يبقَ امام الشيعة مجال للتعبير عن معارضتهم إلا العمل السري . وقد برزت في الكوفة في هذا المجال ثلاث حركات في ذلك الوقت . الاولى حركة بيان بن سمعان الذي أُعدم عام ١١٩/٧٣٧ وكان قد ادعى انه مبعوث ابي هاشم ابن محمد بن الحنفية (المتوفي عام ٩٨/٧١٦) ثم غير ادعاءه الى محمد الباقر من احفاد الحسين بن علي (المتوفي عام ١١٣/٧٣١) وكانت الثانية حركة المغيرة بن سعيد العجلي والذي اعدم عام ١١٩/٧٣٧ ايضاً وكان قد دعا اولاً لمحمد الباقر ولكنه كان عند موته يدعو الى محمد النفس الزكية من احفاد الحسن بن علي والذي قاد ثورة غير ناجحة ضد ابي جعفر المنصور فقتل عام ١٤٥/٧٦٢ .

وثالث الحركات كانت بقيادة ابي منصور وكان يدعو الى محمد الباقر ايضاً وقد قتل عام ٧٤٢/١٢٥ وقد اشتهر عن اصحابه قيامهم بخنق مناوئيهم (١).

وفي خلال ذلك وفي عام ٧٢٠/١٢٢ قام زيد بن علي أخو محمد الباقر بثورة مسلحة في الكوفة انتهت بمقتله ، وقد هرب بعدها ابنه يحيى الى خراسان ، حيث قتل هو الآخر هناك .

وفي عام ٧٤٤/١٢٧ قاد عبد الله بن معاوية ، وهو حفيد جعفر بن ابي طالب أخي علي ، ثورة مسلحة في الكوفة . ولكن سرعان ما طرد من الكوفة فعاد وظهر غربي ايران وقد طورد هناك ودحر على يد قوات بني أمية . فاضطر الى الفرار الى خراسان حيث اغتاله فيها ابو مسلم الخراساني .

ولا شك ان ثورة ابن معاوية تعتبر ثورة شيعية ما دام قائدها واحداً من اهل بيت النبوة ، لكن انصار معاوية لم يقتصروا على شيعة اهل الكوفة فقط بل كان بينهم — وخاصة بعد ان ترك عبد الله بن معاوية الكوفة — عدد من رجالات العرب البارزين من غير الشيعة . فقد كان معه منصور بن جمهور الكلبي من قواد أجناد الشام وسليمان بن هشام بن عبد الملك وشيبان الزعيم الخارجي . وكان من بين انصاره أيضاً اعضاء بارزون من بني العباس كأبي جعفر المنصور نفسه (٢) .

ومن الطبيعي ، وفي هذه المرحلة التي بدأ بها حكم بني أمية بالتفسخ والزوال ولم تكن بوادر الدعوة العباسية قد ظهرت بعد ، ان تكون حركة عبد الله هي البديل الوحيد للنظام المتداعي . ولو قدر لهذه الحركة النجاح التام لما قدر لنا على الارجح ان نسمع بالثورة العباسية ، لكن الرجل أخطأ خطأ جسيماً واحداً أودى بحركته ، وهو انه اختار الكوفة اولاً وايران ثانياً مركزين لثورته وكلا المكانين قريب من معسكر جند أهل الشام في واسط .

ومع ان ادعاءه بالامامة لم يكن بأقوى من ادعاءات العباسيين بها فقد استطاع

---

(١) د . م . واط : الشيعة ص ١٦٨ .

(٢) الطبري ص ١٩٧٧ .

ان يجمع حوله قوى المعارضة ، وان يصبح خطراً جدياً يهدد بني أمية . وفي هذه المرحلة بالذات كان الهدف الاول هو اسقاط الحكم الاموي ، اما اختيار اي من اهل بيت النبوة لمركز الامامة فتلك مسألة ثانوية . ولا شك ان المنصور نفسه كان يرى هذا الرأي وذلك بدلالة وجوده مع ابن معاوية عام ١٢٩/٧٤٦ – ٧٤٧. ولم يكن من الغريب على الشيعة ان ينقلوا ولاءهم من فرد الى آخر من ابناء بيت الرسول . أو بعبارة أخرى فان كل فرد من افراد هذا البيت مقبول للشيعة [1] . طالما اتصف هذا أو ذاك منهم بما يسميه و. م. وات الشخصية القيادية الجذابة .

في مثل هذا الجو ، يستطيع المرء ان يفهم السبب الذي من اجله كان الدعاة العباسيون يدعون « للرضا من اهل البيت » اي لاي شخص تقبل به الجماعة من بين اهل بيت رسول الله (ص) ، فقد كانوا واثقين من ان خطتهم هذه ستودي بالحكم الاموي الى الانهيار ، وبعد ذلك فان حظ بني العباس في الاستيلاء على الحكم لن يكون اقل من حظ غيرهم فيه ان لم يكن أكثر .

٢ – تدبير الثورة

كان ظهور ابي مسلم في مرو ذروة جهود طويلة مريرة ، وعلى كثرة ما قيل عن مراحل هذه الحركة الثورية فما زلنا نجهل عنها الشيء الكثير . وليس في ذلك خروج عن طبائع الأشياء اذ يجب الا ننس انها حركة ثورية اعتمدت – بطبيعة الحال – السرية اسلوباً لعملها وكان هذا – بحدذاته – عاملاً من عوامل نجاحها . واذا كنا ما زلنا نتعثر في إعادة بناء الحوادث للفترات الشهيرة في التاريخ الاسلامي وهي من الجلاء والوضوح على جانب كبير ، فمن باب اولي الا يتسنى لنا الكشف عن خفايا وتفاصيل مؤامرة ثورية سرية مثل هذه . وعلى الرغم من ظهور مصادر جديدة تبحث في تنظيم الثورة العباسية فاننا كنا كما قلنا ما زلنا في جهل تام عن بعض حلقات هذه الحركة وشخصياتها المهمة . على ان بعضاً من الباحثين استطاعوا ان يقدموا لنا صوراً

(١) و . م . واط : البطولة في الاسلام ص ٧٨ .

متكاملة عن هذه المرحلة وأساليبها ودعايتها ، وقد تأيدت نتائج ابحاثهم بدراسة حديثة قام بها الدكتور فاروق عمر الذي استفاد من مواد تاريخية حديثة الاكتشاف [1] .

ومن المعلوم ان العباسيين هم احفاد العباس بن عبد المطلب عم النبي (ص)، وعلى هذا الأساس فهم من آل البيت . ولكن العباس نفسه لم يبرز كثيراً في خدمة الاسلام بل انه لم يعتنق الاسلام إلا متأخراً بعض الشيء وعند فتح مكة في العام الثامن للهجرة ٨/٦٣٠ .

وقد اشتهر ابنه عبد الله بالعلم والفقه وكان ذا رأي محترم مقبول في شؤون الدين وقد أيد أول الأمر ابن عمه علياً ولكنه عاد وانسحب منه الى الحجاز بعد معركة صفين ، وقد رفض ان يبايع ابن الزبير خلال الفتنة الثانية فأمر به أن ينفى الى الطائف [2] .

وكان ابنه علي قد اشتهر مثله بالتفقه بشؤون الدين والتشريع ولكنه تعرض لغضب الوليد بن عبد الملك لانه ارتاب من سلوكه السياسي ضد بني أمية ، فأمر بجلده مرتين وألقاه في الحبس زمناً ما ثم اطلق سراحه على ان يقيم في الحميمة وهي قرية في فلسطين على الطريق بين الشام والحجاز [3] حيث مات بها عام ٧٣٦/١١٨ . وظل ابنه محمد بن علي بن عبد الله العباسي في هذه القرية بعد وفاة ابيه .

وتتفق جميع الروايات على ان تاريخ الدعوة العباسية يبدأ من محمد هذا، فخبر الوصية التي زعم ان ابا هاشم بن محمد بن الحنفية قد اوصى بها الى محمد بن علي اشهر من ان يذكر ، ومهما قيل في أمر هذه الوصية فان الحتمية

---

(١) جي . فان فلوتن : العبسيون في خراسان ليدن ١٨٩٠ وله ايضاً ابحاث عن الفتوح العربية امستردام ١٨٩٤ . فلهوزن الفصل ٩ ص ٤٩٢ — ٥٦٦ . س . موسكاتي في مقالين له عن ابي مسلم في الايطالية . والدكتور فاروق عمر : الخلافة العباسية : اطروحة لم تنشر في جامعة لندن

(٢) ف عمر ص ٧٦ .

(٣) الطبري ج ٢ ص ١٥٩٢ .

الثابتة دون جدال هي ان زعامة المعارضة ومعها زعامة نفر من الشيعة ونفر آخر من جماعة سرية تطلق على نفسها اسم الهاشمية، قد انتقلت كلها الى محمد بن علي في عام ٧١٦/٩٨.

وليس لدينا إلا القليل من الاخبار عن نشاط ابي هاشم السياسي وبالتالي من باب اولي فالاقل جداً عن نشاطه السياسي السري، ومع ان كلاً من ابي هاشم وابيه محمد بن الحنيفة لم يسكنا الكوفة قط فقد جاء في الاخبار ان تنظيم الهاشمية بدأ ونشأ في الكوفة وكان يضم ثلاثين شخصاً فقط من العرب والموالي[1]. ونستطيع ان نستنتج من نشاطهم المتأخر ان اكثرهم كان من المشتغلين بالتجارة بين خراسان والعراق والشام والحجاز.

وقد استطاع محمد بن علي ان يحول هذه المنظمة الصغيرة الى ان تكون اداة الحزب العباسي. وقد تجلت عبقريته السياسية في اختياره خراسان، وخاصة مرو، منطلقاً لنشاط الهاشمية. ولا بد انه شعر بتأزم الاوضاع واقترابها من الانفجار هناك فرأى ان مرو هي خير مكان محتمل لجمع الانصار لجيش الثورة، كما انه ادرك ان أية حركة تظهر في العراق ضد بني أمية سيكون مصيرها الفشل ما دام جند أهل الشام معسكراً في واسط.

ومع ان شيعة أهل الكوفة لم يدخروا جهداً في النهوض ضد بني أمية وفي الاشتراك بكل ثورة تنشب ضدهم، لكن النجاح لم يكتب لهم في أي من جهودهم في هذا الخصوص، وكانوا دون ريب على اتم الاستعداد للمشاركة بهذه الحركة الجديدة ايضاً. وكانت الكوفة بجوها الممالئ للثورة والمناهض للامويين تصلح لان تكون حلقة الوصل بين مقر الهاشمية في الحميمة وميدان الحركات في مرو. فمن المحتمل ان انصار الهاشمية في الكوفة الآن هم ابناء أو احفاد شيعة الكوفة من انصار المختار، ولكن هذه فقط هي كل العلاقة بين الحركتين وليس اكثر[2]، ومن العبث محاولة ايجاد الروابط بين ثورة المختار

(١) تاريخ الخلفاء (مؤلف مجهول) ١٩٦٢ ص ٥٠ ب.

(٢) كذا ص ٢٤٦ ب.

والحركة الهاشمية العباسية ، فمع ان كلتا الحركتين شيعيتان لكن الظروف والغايات والوسائل وميدان الحركة كانت جميعها مختلفة كل الاختلاف .

ولم يدخر محمد بن علي وقتاً دون متابعة خطته القاضية بتكوين قاعدة لحركته في خراسان . فبدأ يرسل الدعاة من الكوفة الى مرو ، ولكن - كما يقول الدكتور فاروق عمر - فان الدعاة الاوائل لم يصيبوا نجاحاً كبيراً في خراسان ذلك لان الامويين فرضوا رقابة صارمة على الدعوة في اول امرها في حين يقول برنارد لويس بصورة اكثر صحة بأن « أخبار المؤرخين عن اول دعاة الدعوة العباسية في خراسان هي اخبار غير كاملة ، وتبدو متناقضة في بعض الاحيان ، وبصورة عامة فالمؤرخون يشيرون الى الدعاوة الواسعة التي بدأت منذ عام ١٠٠/٧١٨ من مقر الحركة في الكوفة ، وان الهاشمية ارسلت رسلها ودعاتها الى خراسان وكان احدهم خداش الذي حقق نجاحاً جلياً في نشر الدعوة ولكنه أعدم عام ١١٨/٧٣٦ بعد ان ذاع خبره وشاع امره قبل الاوان »[1] .

وما لبث زعماء الحركة بعد ذلك إلا قليلاً حتى انتهجوا اسلوباً جديداً للعمل ، فاختير من بين عرب اهل التقادم في خراسان اثنا عشر نقيباً اربعة منهم من خزاعة واربعة من تميم وواحد من طي وواحد من شيبان وواحد من بجيلة وواحد من موالي بني حنيفة ، واختير سليمان بن كثير الخزاعي رئيساً للنقباء في مرو[2] .

وقد روي ان ثمانية وخمسين داعية آخر قد سموا في هذا الوقت ايضاً ، اربعون منهم لمرو نفسها وثمان عشرة منهم لمختلف مدن خراسان . وتوحي اسماء هؤلاء الدعاة بأنهم من أهل التقادم أي المستقرين المستوطنين في خراسان . وفي حين لم تعهد مهام معينة للاربعين داعية في مرو فان الثمانية عشر الآخرين قد

---

(١) لويس العباسيون .

(٢) الطبري ص ١٣٥٨ . وتاريخ الخلفاء من ٢٥٤ آوفاروق عمر ص ٨٨ - ٩٠ .

اختيروا لينشروا الدعوة للقضية خارج مرو بين المقاتلة المعسكرين في المسالح والحاميات في خراسان في ذلك الوقت [1].

لكننا يجب ان لا نأخذ هذه الاخبار على علاتها، ذلك، اولاً لاننا نعلم انه لم تكن للعرب في خراسان مدن حاميات عسكرية في ذلك الوقت وثانياً لانه وان كان من الطبيعي لاصحاب اية حركة ثورية ان يحاولوا نشر الدعوة لقضيتهم في كل مكان ممكن، الا ان الملاحظ ان عدد الدعاة الكبير في مرو لا يتناسب مطلقاً وعددهم في بقية انحاء خراسان كلها، وهذا مما يدل على ان هؤلاء الثوار كانوا يعرفون تمام المعرفة مكان النصرة والتأييد ولذلك فضلوا التركيز في عملهم على مرو، واما الدعاة القلة الذين ارسلوا الى غيرها فانما كان هدفهم تحري الأوضاع ودراستها في تلك المناطق اكثر مما هو للدعاية والتبشير. ومن المهم في هذا الخصوص ان نلاحظ اننا لم نعد نسمع كثيراً عن هؤلاء الدعاة في أخبار التطورات المتأخرة للأحداث في خراسان وهذه الأخبار تصل بعدد الدعاة خارج مرو الى السبعين داعية، ربما كان ذلك أسوة بعدد الانصار الذين بايعوا الرسول (ص) بيعة العقبة قبل هجرته الى المدينة ومن المحتمل ان يكون السبعون هو عدد اتباع الهاشمية في انحاء خراسان كافة في ذلك الحين [2].

ويذهب الدكتور فاروق عمر الى ان «اللجنة المركزية للدعاة الاثنى عشر في مرو قد قررت ان تختار اثني عشر عضواً آخر يدعون «نظراء النقباء» ليكونوا نواباً للنقباء يخلفونهم اذا ماتوا أو فصلوا أو تركوا» [3].

وكان بكير بن ماهان زعيم منظمة الهاشمية في الكوفة هو رسول محمد بن علي الى مرو ليشرف على تأسيس المنظمة، ولم يكن محمد بن علي معروفاً بل ظل اسمه سرياً وكان الاتصال به في الحميمة يتم عن طريق الكوفة، وكان موسم الحج هو المناسبة الوحيدة التي يلتقي فيها ببعض قادة الحركة في خراسان

---

(١) ف. عمر ص ٩١ – ٩٢.

(٢) الطبري ص ١٩٨٨.

(٣) ف. عمر ص ٩٢.

ليقدموا له تبرعات انصارهم في مرو . وظل بكير يتردد بين الكوفة ومرو سفيراً لمحمد بن علي حتى عام ٧٤٣/١٢٥ حيث حمل الى الدعاة في مرو خبر وفاة محمد بن علي وانتقال الدعوة الى ابنه ابراهيم بن محمد .

وقد وافق تولي ابراهيم بن محمد زعامة الهاشمية بداية فترة الانحلال الذي انتاب حكم بني أمية أثر وفاة هشام بن عبد الملك، فكان ذلك بالنسبة للثوار، الذين انتعشت آمالهم وارتفعت معنوياتهم، بداية مرحلة جديدة من العمل والنشاط، وكان من نتيجة ذلك ان هاج بعض الانصار في مرو يطالبون باستغلال الوضع في الامبراطورية للقيام بعمل سريع وحاسم ضد السلطات [١] لكن ابراهيم لم يرض عن هذه الحركة ولم يعجبه توقيتها وانفراد الجماعة في خراسان بالامر من دونه فارسل اليهم عام ٧٤٤/١٢٦ سفيراً يثنيهم عن الحركة ويعيدهم الى الطاعة والانضباط ، وكان سفيره هذا هو ابا سلمة الخلال الذي ورث رئاسة تنظيم الهاشمية في الكوفة بعد وفاة بكير بن ماهان . وكان في صحبة ابي سلمة في سفرته هذه الى مرو شاب اسمه ابو مسلم . وبعد ان قضيا اربعة شهور في مرو عادا معاً الى الكوفة بعد ان تركا سليمان بن كثير الخزاعي على رأس التنظيم في مرو[٢] .

ويبدو ان السيطرة على الوضع في مرو لم تدم طويلاً فقد اضطر ابراهيم الامام بعد فترة وجيزة الى ان يرسل ممثلاً شخصياً عنه الى مرو يقيم في مرو ويتولى فيها الاشراف على شؤون الثورة باسمه . وقد اختير ابو مسلم لهذه المهمة فوصل مرو عام ٧٤٦/١٢٨ ولم يلقَ وصوله قبولاً حسناً في نفوس القادة المحليين وعلى رأسهم سليمان بن كثير الذي سرعان ما غلبه على رأيه انصاره فانصاع لهم وسكت عن ابي مسلم على مضض . وقد حاول أبو مسلم جهده ان يداري مشاعر سليمان ويحفظ له مكانه فترك له القيادة الاسمية للتنظيم السري[٣]

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٥١ و ٢٥٧ .

(٢) كذا ص ٢٥٧ آ و ٢٥٧ ب .

(٣) كذا ص ٢٥٨ آ.

لكن الحركة الآن انتقلت من السرية والخفاء الى العلن وانفجرت ثورة عامة عارمة ، وكان الرجل الذي لعب الدور الرئيسي فيها هو ابو مسلم نفسه. فمن هو ابو مسلم هذا ، ولماذا اختير لهذا الدور ؟ .

٣ – أبو مسلم : عبد الرحمن بن مسلم الخراساني

من الغريب ان لا نعرف، عن هذا الرجل الذي يدين له العباسيون بالنصر وقبل وصوله الى مرو، إلا القليل جداً من أخباره[١] ، والاخبار القليلة المروية عن نشأته الأولى لا تتفق فيما بينها ، ومما زاد الامر غموضاً انه لما سئل هو شخصياً عن نسبه تجاهل السؤال ونصح سائليه الا يعلقوا كبير خطر على مثل هذه التفاصيل غير الهامة[٢] . وعلى الرغم من المصادر المكتشفة حديثاً والمحاولة الذي قام بها الدكتور فاروق عمر فان المرء لا يسعه إلا ان يتفق مع البروفسور فراي في قوله « ان نسب ابي مسلم الخراساني لا يمكن تقريره بصورة باتة من المصادر الاسلامية »[٣] .

ويبدو لنا كما لو ان هناك خطة مدبرة لمسح كافة الآثار التي تدل على ماضي هذا الرجل لاظهاره من جديد بصورة وسمة جديدتين . ومفتاح هذه الصورة الجديدة هو اسمه أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم الخراساني فكلمة «مسلم» في كنيته وفي اسم ابيه قد تكون اسماً حقاً وقد تكون نعتاً . وعبد الرحمن ، اسم شائع ومعناه واضح ، وهو يمكن ان يطلق على كل مسلم ، فالمسلمون جميعاً عبيد الرحمن تعالى ، وكان هذا الاسم من الاسماء المحببة للرسول (ﷺ) الذي طالما اطلقه على كثيرين ممن اعتنقوا الاسلام من العرب بديلاً عن اسمائهم الاولى وعرفوا من بعدها به . وعلى هذا فتكون خلاصة اسمه هي المسلم ابا المسلم ابن المسلم، وهو اسم يقصد به الى إخفاء اصله ومنبته(**).

---

(١) للدخول في تفاصيل اكثر عن اصل ابي مسلم ، انظر فاروق عمر ص ٩٤ – ٩٩ وانظر ايضاً مقالات موسكاتي عن الموضوع .

(٢) الطبري ص ١٩٦٣، ابن الأثير، الكامل . ج ٥ ص ٢٧٩ .

(٣) ر . ن . فري : دور ابي مسلم ، في الثورة العباسية . عالم الاسلام ١٩٤٧ ، ص ٢٨ . وانظر ايضاً كاهن ص ٣٢٦ .

(**) وهو ما يسمى بالاصطلاح العصري الحديث « اسم حزبي حركي »

لكن الدلالة المهمة تكمن في لقبه ، فهو قد نسب نفسه الى خراسان كلها ولم ينسبها الى قبيلة او عشيرة لا أصلاً ولا بالولاء كما هو الاسلوب الجاري آنذاك ، هذا مع العلم انه لم يكن من خراسان اصلاً وانما جاء اليها موخراً . ولذا فما من تأكيد ابلغ واصرح من هذا الاسم على المبادئ التي تبشر بها الثورة في المجتمع الجديد حيث يعامل كل فرد كمسلم يتمتع بنفس الحقوق والواجبات بصرف النظر عن جنسه واصله ونسبه . وعلى ذلك فان هذا الاسم المزعوم لهذا الرجل الذي اشعل الثورة هو في حد ذاته خير شعار لهذه الثورة الذي ارسل ابو مسلم لتفجيرها وقيادتها . ولربما كان هذا هو السبب في إرساله الى خراسان .

فلم يكن يراد للثورة ان يقودها واحد من العرب أو الموالي المعروفين في مرو اذ قد يؤدي ذلك الى صبغ الحركة بلون خاص تعمد مدبرو الثورة تجنبه بارسال شخص من خارج المنطقة كان – ولم يزل – حسبه ونسبه سراً مكتوماً .

وقد كان في مرو رجال قادرون على قيادة الثورة ، ومنهم على سبيل المثال قحطبة بن شبيب ، القائد الذي قاد الزحف المنتصر الى الكوفة او سليمان بن كثير الذي كان أول من أسس التنظيم السري في مرو ورأسه . وكان من الخطورة بمكان كبير ان يطلب الى رجل مثل سليمان ان يخضع وهو في وطنه وبين عشيرته الى أُمرة شخص غريب بالمرة عن بلاده . لكن كان لا بد من الاقدام على المخاطرة ، ولا بد ان يكون ابو سلمة قد وافق على هذا الترتيب ، ان لم يكن كله ، وهو الارجح ، من تصميمه وتدبيره . فقد كان عليه ان يبقى على رأس الحركة في الكوفة وقد اوعز الى أبي مسلم لان يكون تحت أُمرته [1] وكان ابو سلمة قد عاد لتوه من رحلته الى مرو التي استغرقت اربعة اشهر والتي صحبه فيها ابو مسلم [2] . ولا بد انهما بعد ان اطلعا عن كثب على الاحوال في مرو توصلا الى قرار معين حول قيادة الحركة هناك في هذه المرحلة

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٦٢ ب .

(٢) كذا ص ٢٥٧ ب – ٢٥٨ آ والطبري ج ٣ ص ٢٤ – ٥ .

الحرجة من مراحل التحضير للثورة ، وقد كان هذان الزعيمان الكبيران حتى ذلك الحين على اتم وفاق وكانت آراؤهما تنفذ بتمامها وبنجاح .

وكان النجاح المنقطع النظير الذي حققه ابو مسلم في استغلال الصراع الدائر في مرو لصالح الثورة ، وكذلك براعته السياسية قد غطيا على الكفاءات الاخرى العاملة في الثورة . وكانت موهبة ابي سلمة كما يبدو هي في العمل التحضيري الهادئ ولو ان المرء لا يستطيع إلا أن ينسب اليه فضل العمل الطويل الشاق المتقن للمخططين الاوائل ، إلا أن دوره في الثورة لم يحظَ بالالتفات الكافي ، فقد كان في الكوفة في قلب الامبراطورية يتهيأ لتسلم الحكم من الامويين بعد وصول الجيش الثوري المنتصر أو مجابهة اي احتمال آخر . وقد ظل منذ عام ٧٤٤/١٢٦ حتى عام ٧٤٩/١٣٢ مسؤولاً عن تنسيق الجهود بين الاطراف المعنية لضمان انجاح الثورة . وكانت الدعاوة امضى اسلحته واقواها ، وفي الحقيقة فقد كانت الدعاوة سلاح الشيعة الماضي منذ مبدأ أمرهم ، لكن ابا سلمة دون غيره طور هذا السلاح وقواه وجعله أداة صارمة فعالة في معركة المصير في انحاء الامبراطورية كافة . فما من بارحة أو سانحة وما من بشير أو نذير او اسطورة أو نبوءة في الخيال او علم الغيب الا استغلها لتأجيج الثورة وتفجيرها . فالرايات السود كانت قد رفعت من الثوار الاوائل واكتسبت صفة قدسية وصارت رمز فداء، ولكنه الآن اتخذها شعاراً للثورة . وخلقت الاساطير والنبوءات عن ظهور الرايات السود وانتشارها في المشرق معلنة نهاية حكم بني أمية [1]، ونشرت الشعارات دعاية للثورة وكانت الثورة تدعو للرضا من آل محمد ويعني هذا أي فرد من آل بيت الرسول (ص) ترضاه الجماعة . ولم يوضع هذا الشعار لارضاء الانصار في مرو فحسب، بل كان نداء ودعوة لجميع الشيعة في شتى ارجاء الامبراطورية .

وكما تقدم القول فان الشعار الثاني للثورة والدعوة العامة لكل الجماعة الاسلامية كانت في اختيار اسم أبي مسلم نفسه الذي ربما وضعه ابو سلمة نفسه ليكون شعاراً حياً واضحاً للثورة .

---

(١) فان فلوتن : ابحاث ص ٤٦ ولويس : العباسيون .

٤ - جيش الثورة

من هم انصار ابي مسلم ؟ يرى فلهوزن ان غالبية انصاره هم الفلاحون الايرانيون والموالي في القرى القريبة من مرو ولكن كان بينهم ايضاً بعض العرب من ذوي المكانة البارزة [١] ويبدو ان لويس برنارد يتفق الى حد ما مع هذا الرأي حين يقول ان «وبينما كانت دعوة أبي مسلم الرئيسية الى الموالي من اهل ايران ، فانه وجد تأييداً قوياً بين العرب اليمانيين» ثم يستطرد الى القول : -

« كان السكان الايرانيون المحاربون النشطون والمتسربلون بتقاليد الحرب والدين ساخطين كل السخط على التفرقة التي فرضها الحكم الاموي وكان المقاتلة والمستوطنون العرب في خراسان والذين اوشكوا ان « يتفرسنوا » نتيجة مكثهم الطويل في خراسان ، قد انقسموا على انفسهم بشكل واضح ، وحتى خلال زحف أبي مسلم الظافر فقد انصرفت قواهم وقوى نصر بن سيار الى صراع قبلي مرير » [٢] ويفضل موسكاتي تجنب بحث هذه المشكلة فيقول : - « في اول شوال عام ١٢٩ أي ١٥ حزيران عام ٧٤٧ رفعت رايات الثورة السود وقد استفاد ابو مسلم من الخلاف القبلي في الجيش الاموي فاستطاع ان يكسب تأييد العرب اليمانيين » [٣] .

ويرى البروفسور جيب « ان حماس الايرانيين لابي مسلم وتعلقهم به كان حقيقة واقعة وانما بدأ ذلك بعد نجاح الثورة ولا اثر في مصادرنا الموثوقة لأية حركة جماهيرية كالتي يحلو للبعض تصويرها احياناً » [٤] .

وحقيقة الامر ان هناك قلة من الموالي من اهل خراسان بين انصار أبي مسلم ولكن غالبية انصاره كانوا من عرب مرو وخاصة أهل التقادم منهم ، فقد كان هذا القطاع من قطاعات السكان في مرو اكثرها معارضة للحكم الاموي

---

(١) فلهوزن ص ٣٣٢ .

(٢) لويس - العباسيون .

(٣) موسكاتي - ابو مسلم ، دائرة المعارف الاسلامية ليدن ١٩٥٤ .

(٤) جيب ، الفتوح العربية ص ٩٤ .

الذي اهمل الاهتمام بمصالح اهل هذا القطاع اهمالاً تاماً ، فلم يحرموا من الانتفاع من فوائد كونهم عرباً فحسب ، بل وتركوا تحت حكم الدهاقين ايضاً ومن ثم فقد كانوا في وضع اسوأ من وضع اهل البلاد المفتوحة . وصحيح ان نصر بن سيار بذل محاولات جادة لإزالة اسباب الشكوى والاستياء ، لكن جهوده جاءت متأخرة فلم تنفع في كسب ولاء هذه الطبقة للحكم الاموي . وبعد ان جرب هؤلاء المستوطنون من أهل التقادم التجارب المنوعة التي اختبرها الولاة لاصلاح الوضع ، وجدوا ان لا سبيل للاصلاح الا بالتغيير الشامل الكامل لا في خراسان فحسب بل وفي جميع انحاء الامبراطورية .

وما من تغيير في رأيهم احسن ولا افضل من الاتجاه نحو آل بيت رسول الله (ص) الذين كان ابو مسلم يدعوهم اليه . ومن المعلوم ان اسم آل بيت الرسول (ص) قد اقترن دوماً في اذهان جمهور المسلمين بفكرة العدالة والانصاف .

وقد زاد في ميل الناس الى آل البيت استشهاد أئمة الشيعة على ايدي الامويين وكان آخرهم يحيى بن زيد الذي استشهد على يد نصر بن سيار في خراسان عام ١٢٥/٧٤٣ والذي استغل ابو مسلم مقتله احسن استغلال .

اما بقية القبائل العربية في خراسان فقد سبق لها ان انصهرت بما يؤهلها لتلائم كيان الامبراطورية الاموية وكلهم كانوا مع بني أمية سواء كانوا مع الكرماني أم مع نصر . ولربما كان المستوطنون أهل التقادم هم الذين اندمجوا اندماجاً كاملاً حتى لم يبقَ لهم مكان في الكيان الامبراطوري ، ولا بد ان اوضاعاً مشابهة قد حدثت في انحاء اخرى من الامبراطورية ولكن الادارة المحلية في تلك الانحاء كانت بيد العرب بصورة تامة وليست بيد الارستقراطية المحلية . وبالاختصار فان للمستوطنين العرب اهل التقادم في مرو اسبابهم الخاصة للثورة ضد الوجود المستمر « للنظام القديم » الذي كان عماد الحكم الاموي وسنده ، ولهذا فقد انتبهت الهاشمية بدعايتها ونشاطها الى هؤلاء المستوطنين الساخطين . وما من شك في ان دعاة الهاشمية في مرو ادركوا بانهم قد عثروا على اخصب ارض لبذر بذور الثورة فيها ولجمع الانصار لبدء الثورة منها .

ومع ان فلهوزن رسم لنا صوراً طيبة عن حملة الدعاية الهاشمية في مختلف

مراحل الثورة إلا أنه لم يدرك دلالة هذه الصور . وهو على كل حال قد لاحظ ان جميع دعاة الهاشمية قد بعثوا الى مرو ، وان كل نشاطهم في خراسان كان محصوراً في هذا المكان دون غيره كما لاحظ ايضاً ان خزاعة « تملك بعض القرى في واحة مرو وان هذه القرى بفلاحيها الايرانيين كونت قطاعاً كبيراً غير متناسب عددياً من قطاعات الشيعة » (١) ومن المحتمل جداً ان تكون غالبية المستوطنين من هذه القبيلة واننا سوف نذكر ان الاسمين الوحيدين المذكورين في مصادرنا عن المستوطنين الاوائل في خراسان كانا لرجلين من اسلم من خزاعة وكانوا على الاخص مرتبطين بقرية فنين في واحة مرو التي كانت ما تزال تعود الى خزاعة حتى ايام ابي مسلم (٢) . واننا نذكر ايضاً ان هذه القبيلة قد تورطت كثيراً في خطط اعمال حريث بن قطبة التاجر السغدي في مرو ، وهو نفسه مولى خزاعة (٣) .

ومن المهم ان نلاحظ ان غالبية دعاة الهاشمية الى مرو كانوا تجاراً او على الاقل فانهم يدعون انهم جاءوا الى خراسان لاسباب تجارية محضة (٤) . وهذا — ان صح او لم يصح — يصلح مبرراً مقبولاً لوجودهم في خراسان في حال مراقبة السلطة لهم ، ويجعل اتصالاتهم اسهل وابعد عن الشبهات وخاصة ان الناس الذين كانوا يريدون لقياهم هم من التجار ايضاً .

ومن الطريف ان نلاحظ ان بعض المساعدات المالية التي أرسلت من مرو الى الامام كانت على شكل بضائع وعروضات من متاع التجار مما يدل على مصدرها (٥) .

وحين اعلن ابو مسلم الثورة ورفع الرايات السود جهاراً ، وربما كان ذلك

---

(١) فلهوزن ص ٥١٤ — ١٥ .

(٢) أنظر ما تقدم ص   من هذا الكتاب .

(٣) أنظر ما تقدم ص ١١٥ من هذا الكتاب .

(٤) الطبري ص ١٣٥٨ و ١٤٣٢ و ١٥٠٢ .

(٥) الطبري ص ١٩٦٢ . اين الايثر — الكامل ج ٢ ص ١٢٧ .

في الاول من شهر شوال عام ١٢٩ او ١٥ حزيران سنة ٧٤٧ فهو انما فعل ذلك في قرية من قرى خزاعة ايضاً [١] ، وفي اقل من يومين على ظهور ابي مسلم قدم عليه حوالي ٢٢٠٠ رجل من اهـــل التقادم ، او السقادم كما ورد في بعض النسخ [٢] — وقد فهم فلهوزن كلمة سقادم على انها اسم مكان معين ، لكن طالما ان هناك جماعتين من الانصار قادمين من سقادمين او تقادمين اثنين ، فيكون فهم فلهوزن للكلمة غير صحيح مطلقاً [٣] كما ان ياقوت في معجمه عن البلدان ذكر اسماء كل القرى والدساكر في خراسان ولم يذكر مكاناً بهذا الاسم قط [٤] .

وفي رواية اخرى للطبري ان هؤلاء الانصار قد قدموا من ستين قرية من القرى القريبة من مرو [٥] وعلى هذا فاننا نفضل قراءة هذه الكلمة على انها اهل التقادم وتعني المستوطنين القدامى في مرو .

وفي اقل من شهر ونصف الشهر ارتفع جيش ابي مسلم الى سبعة آلاف رجل فامر ان يفتح لهم ديوان جديد باسمائهم واسماء آبائهم واسماء قراهم [٦] ، وهذا يعني انهم جميعاً اصبحوا من الخراسانيين بدون تمييز بينهم بسبب قبائلهم او بسبب اصلهم العربي او غير العربي ، وبكلمة اخرى فان تمام الاندماج تم في خراسان ، وقد تم هذا ، أول ما تم ، في جيش ابي مسلم ومن ثم فرض على بقية انحاء الامبراطورية بقوة سلاح هذا الجيش بعد نجاح الثورة في مرو .

---

(١) الطبري ١٩٥٢ — ٤ .

(٢) كذا ص ١٩٥٥ — ١٩٥٧ . تاريخ الخلفاء ص ٢٦٣ ب حيث ترد هذه اللفظة على شكل نقادم ، ولكن محقق النص اضاف الى النون نقطة فجعلها تقادم . في حين ان ابن الأثير يذكرها دوماً تقادم . انظر ص ٢١٨ — ٢١٩ من هذا الكتاب .

(٣) فلهوزن ص ٥٢٣ .

(٤) ياقوت : معجم البلدان .

(٥) الطبري ص ١٩٥٢ .

(٦) كذا ص ١٩٦٩ .

٥ ـ انتصار الثورة

أدرك أبو مسلم منذ البداية ان جديع الكرماني واتباعه هم خير حلفائه ضد نصر بن سيار ، فقد كان ولاؤهم للامويين ضعيفاً وبالامكان الالتقاء معهم على هدف مشترك ضد نصر على الاقل ان لم يكن بالامكان كسبهم كلية الى جانب الثورة والواقع ان بعض المستوطنين من أهل التقادم في مرو قد انضموا الى جديع في خروجه على نصر[١]، ولا بد ان نصراً قد ادرك من جانبه خطر التحالف بين ابي مسلم وجديع على مركزه لذلك سعى جاهداً الى قتل جديع قبل وقوع هذا التحالف وقد تم له ذلك على يد حاتم بن الحارث بن سريج الذي قتل جديعاً ثأراً منه لأبيه الحارث الذي قتله جديع[٢] .

لكن علي ابن جديع استلم الراية بعد ابيه واستمر في صراعه ضد نصر ، وزاد الوضع تعقيداً وصول جماعة جديدة من القبائل العربية الى مرو وهم بقايا قوات معاوية بن عبد الله بن جعفر الذي أخمدت مؤخراً ثورته ضد بني أمية في العراق وغرب ايران . وقد جاءت هذه الفلول بقيادة شيبان بن سلمة الى خراسان تطلب الملجأ والملاذ[٣] . وكان المنتظر من هذه القبائل ، وهي من اصل عراقي ان تكون اقرب الى اتباع الكرماني واكثر تقارباً معهم ، كما كان من المتوقع طبعاً ان يتحالف هؤلاء مع اية قوة معارضة للوالي الاموي في خراسان نصر بن سيار ، ومع هذا فيجب عدم المبالغة في دور هؤلاء اذ لم يكونوا ذوي عدد كبير .

وفي هذه الاثناء ذهبت نداءات نصر الى الحكومة المركزية بالنجدة عبثاً ودون جواب في حين كان الكرماني يطمح ويخطط لكسب تأييد أبي مسلم له ضد نصر . وفي صيف عام ٧٤٧/١٢٩ وبعد ان استطاع نصر ان يستعيد

---

(١) أنظر ص ٢١٨ - ٢١٩ من هذا الكتاب .

(٢) الطبري ص ١٩٧٥ ، العقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ٤٠٧ .

(٣) الطبري ص ١٩٩٢ وف . عمر ص ١٢٢ - ١٢٣ .

لنفسه بعض الاجزاء من مدينة مرو ، توصل الخصمان العنيدان الى نوع من الهدنة [1] .

وكان ابو مسلم من جانبه مستمراً في جمع الجند لجيش الثورة وكان قد انتقل في شهر ذي الحجة من عام ١٢٩ آب عام ٧٤٧ الى آلين وهي قرية من قرى خزاعة [2] .

وقد استغل الكرماني هدنته مع نصر بن سيار وباشر سلطته الفعلية والكاملة على خراسان وفي شهر ربيع الثاني من عام ١٣٠ كانون الاول ٧٤٧ عين حليفه الجديد شيبان بن سلمة عاملاً له في سرخس ولم يعترض أبو مسلم على الكرماني وعلى إجراءاته ووعده بالنصر والتأييد .

ولكن لم يمضِ إلا وقت قليل حتى عاد القتال مجدداً بين نصر والكرماني فطلب الاخير النجدة من أبي مسلم فدخل ابو مسلم مرو بجيشه وأنهى القتال بينهما [3] وكان ذلك لتسع خلون من جمادى الاولى سنة ثلاثين ومائة يوم الخميس (١٤ شباط ٧٤٨) ، ولكن نصراً لم يلبث ان فر في اليوم التالي الى نيسابور حيث قرر ان يواصل القتال منها ضد الثورة رغم تقدمه في السن .

ومن الخطأ الظن ان ابا مسلم قد اصبح – في هذه المرحلة بالذات – سيد الموقف في خراسان أو حتى في مرو نفسها . فمع ان مما لا شك فيه ان قوته تزايدت باندحار نصر وهروبه ولكن يجب ان نتذكر ان هذا انما تم بالتحالف بينه وبين قوى الكرماني التي لم تكن من الهاشمية في شيء . وقد دعا ابو مسلم عند وصوله مرو اتباعه الى البيعة الى «الرضا من آل البيت» [4] لكن الكرماني واتباعه لم يجيبوا على هذه الدعوة ولم يبايعوا هذه البيعة ، وبكلمة اخرى فقد تمخض الوضع الى ظهور جماعتين ثائرتين في مرو . هما جماعة ابي مسلم الذي التزم بقضية الثورة وبالهاشمية وجماعة الكرماني الذي وان اتفق وتعاون

---

(١) الطبري ج ٢ ص ١٩٦٤ – ٨ و ١٩٨٠ – ٤ .
(٢) كذا ص ١٩٩٦ .
(٣) كذا ص ١٩٨٧ .
(٤) كذا ص ١٩٨٩ .

مع ابي مسلم إلا انه ظل خارج الثورة . وكان اتفاق الجماعتين يهدف الى الخلاص من نصر وحسب ، وبالتالي فقد كان من الطبيعي ان يدوم اتفاقهما ما دام وجوده او وجود احد انصاره يكون تهديداً خطراً لأي منهما .

وكان نصر نفسه في نيسابور يحاول ان يجمع الانصار والجنود لحملة ينويها على مرو في اكبر الظن . وقد فت في عضده كثيراً خبر مقتل اربع وعشرين من قادته وقعوا في يد ابي مسلم [١] .

وكان نصر واتباعه ما يزالون اقوياء في بلخ وفي الترمذ عبر النهر ، كما اننا يجب ألا نتوقع ان يرضى دهاقين مرو بسقوط النظام الذي كان يحمي مصالحهم وامتيازاتهم كما كان طبيعياً جداً لأمراء طخارستان ان يستغلوا انقسام العرب فيما بينهم لتحقيق مآربهم .

وقد استمر ابو مسلم على الحفاظ على وفاقه مع الكرماني واتباعه للانتفاع منهم في تحقيق اغراضه بخراسان ولكنه – في نفس الوقت – لم يضع وقتاً في ارسال جيشه لمهمته الاساسية وهي الزحف نحو الكوفة .

وقد جاء في الاخبار ان ابراهيم الامام نفسه كان قد عين قحطبة بن شبيب الطائي قائداً لهذا الجيش الزاحف [٢] ، وكان النصر الاول لهذا الجيش في سرخس حيث يقيم شيبان بن سلمة بأمر من الكرماني . وقد ابدى شيبان بعض المناوئة لجيش ابي مسلم وكان على الارجح يثق كثيراً في وفاقه شخصياً مع الكرماني ليشفع له عند ابي مسلم ولكن الكرماني لم يحاول في الواقع انقاذه من غضب ابي مسلم [٣] .

ثم سار جيش الثورة فالتقى بجيش نصر بن سيار يقوده ابنه تميم فجرت بين الجيشين معركة قرب مدينة طوس انتهت بدحر جيش نصر ومقتل تميم

---

(١) كذا ص ١٩٨٩ .

(٢) كذا ص ١٩٥٤ .

(٣) كذا ص ١٩٩٦ ، تاريخ الخلفاء ٢٧١ ب .

واحتلال المدينة ـ ثم ما لبث جيش قحطبة ان احتل نيسابور نفسها حيث كان نصر مقيماً ، واذ ادرك نصر الآن عقم كل محاولة منه لاسترجاع السلطة فقد هرب من نيسابور متجهاً نحو الغرب حيث لاقى حتفه بعد ذلك بشهور قلائل [١] .

وقد استطاعت الحكومة الاموية المركزية التي ذعرت اشد الذعر للتطورات السريعة في خراسان ان ترسل اخيراً جيشاً للقضاء على الثورة ، وكان هذا الجيش مكوناً من عشرة آلاف نفر بقيادة نباتة بن حنظلة وقد هلك هذا الجيش وتشتت بكامله حين التقى بجيش الثورة في مكان ما قرب جرجان في ذي الحجة من عام ١٣٠ آب ٧٤٨ [٢] .

وفي شهر رجب من عام ١٣١ الموافق شهر مارث من سنة ٧٤٩ التقى جيش الثورة في جابلق قرب اصفهان ، بجيش اموي آخر اضخم واكثر عدداً حتى قيل انه كان في خمسين الف مقاتل تحت قيادة عامر بن ضبارة ، ولكنه هزم امام قحطبة شر هزيمة [٣] .

وزحف جيش الثورة الى نهاوند حيث استسلمت المدينة له بعد حصار قصير الامد وبهذا اصبح الطريق الى العراق مفتوحاً فاندفع قحطبة بجيشه بحركة سريعة نحو الكوفة . ولكن قبل الوصول اليها كان عليه ان يشتبك بمعركة ضارية مع يزيد بن هبيرة والي العراق لمروان بن محمد الذي اراد ان يقف وقفته الاخيرة في الدفاع عن العراق ضد الثوار الزاحفين .

وفي يوم الاربعاء الثامن من شهر محرم الحرام عام ١٣٢ الموافق ٢٧ آب ٧٤٩ باغت قحطبة بجيشه جيش أبي هبيرة فهزمه واضطره الى الانسحاب من موقعه على شاطئ الفرات قرب الفلوجة الى مدينة واسط .

---

(١) كذا ج ٢ ، ص ٢٠٠٤ .
(٢) كذا ص ٢٠١٦ .
(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٧٥ ب – ٢٧٨ آ والطبري ج ٢ ص ٢٠٠٤ .
(٤) الطبري ج ٣ ص ١٢ – ١٨ .

وقد دفع قحطبة حياته ثمناً للنصر في هذه المعركة فتولى ابنه حسن من بعده قيادة جيش الثورة في زحفه الظافر الى الكوفة حيث دخلها دون قتال يوم الثلاثاء والرابع عشر من محرم عام ١٣٢ الموافق الثاني من شهر ايلول ٧٤٩/٦٦[١] وما ان دخل الجيش المدينة حتى اعترف بابي سلمة الخلال وزيراً لآل محمد فأخذ بيديه زمام الامور كلها ، ولم يكن قد جرى حتى هذه اللحظة اي تفكير في اختيار إمامٍ ما ، كما لم يكن هناك جدال او خلاف حول تولي ابي سلمة لجميع السلطات .

وقد عين ابو سلمة بعض رجال الخراسانية في المناصب الكبرى في الحكومة وأقر تعيين آخرين منهم في مناصبهم في الجيش وزاد عطاء المقاتل في الجيش من ثلاثماية درهم في السنة الى ثمانين درهماً في الشهر مع زيادات اخرى مناسبة للضباط والقادة[٢] .

وخلال هذا كله كان ابو مسلم منهمكاً في تقوية مركزه في خراسان فارسل من مرو حملات صغيرة للسيطرة على مختلف المدن والقرى في خراسان ، لم تجد صعوبة تذكر في تحقيق اهدافها ، ولكنه اصطدم بمقاومة صعبة في بلخ والترمذ ، فقد كان عاملا هاتين المدينتين من انصار نصر بن سيار الاشداء . فكان عامله على الاولى زياد بن عبد الرحمن القشيري وكان مسلم بن عبد الرحمن بن مسلم الباهلي عامله على الثانية . وقد انضم اليهما عمال آخرون من المنطقة وخاصة من طخارستان في محاولة من رجال « العهد القديم » لمقاومة الثورة الزاحفة ، ولذلك فما ان سمع قادة المقاومة بخبر إرسال ابي مسلم قوة جديدة الى بلخ بقيادة ابي داود في منتصف الطريق عند جوزجان ، ولكنهم وقد ادركوا عدم استعدادهم الاستعداد الكافي لملاقاة جيش الثورة فقد قرروا الانسحاب الى الترمذ تاركين بلخ تسقط في يد ابي داود موقتاً[٣] ومن الترمذ حاولوا ان يألبوا كل القوى المناهضة للثورة في المشرق ، فحاولوا اولاً إغراء عامل أبي مسلم

---

(١) الطبري ج ٣ ص ١٢ – ١٨ .
(٢) كذا ج ٣ ص ٢٠ تاريخ الخلفاء ص ٢٨٣ آ – ٢٨٤ آ .
(٣) الطبري ج ٢ ص ١٩٩٧ .

على بلخ يحيى بن نعيم بالانضمام اليهم ثم عادوا فاقنعوا أمراء طخارستان بالوقوف معهم ضد الثورة . ولكن الاهم من هذا كله ان دهاقين مرو انضموا الى الجهد اليائس لمنازلة الثورة والتغلب عليها . وقد وضعت جميع هذه القوات تحت قيادة مقاتل بن حيان النبطي وهو صديق قديم للنظام القديم في مرو [1] .

وقد زحفت هذه القوة نحو بلخ وعسكرت خارج المدينة مما اضطر ابا مسلم الى ان يبعث ثانية قائده ابا داود لانقاذ بلخ . وقد استطاع ابو داود ان يحقق هدفه ويدحر اعداءه ويحملهم على الفرار حيث اتجهوا الى الترمذ ودخلوها ثانية . وكان ابو مسلم قد عين عثمان اخا علي بن جديع الكرماني عاملا له على بلخ ، ومع ان معلومات مصادرنا عن هذه الفترة غاية في القلة والايجاز فيبدو لنا وكأن هناك مؤامرة ما تشمل عثمان الكرماني وبعض زعماء العهد القديم الذي اخذوا يزدادون يأساً وقنوطاً . ذلك اننا نرى عثمان يترك بلخ الى مرو الروذ لسبب غير معلوم ، وفي خلال غيابه استطاعت قوات الترمذ ان تحتل المدينة ، فلما عاد لانقاذ المدينة كان من السهل دحره فاحتاج الامر الى حملة اخرى من ابي داود ليستعيد بلخ ويطرد الاعداء منها ، وهنا ارتاب ابو مسلم من الكرماني وايقن بعدم الفائدة من التحالف معه ولم يشأ الاستمرار في هذه اللعبة الخطرة فأمر ابا داود ان يتخلص من عثمان في حين عمل بحذر واحكام على اغتيال اخيه علي [2] وهكذا خلا الجو لابي مسلم واصبح السيد الفرد والحاكم الاوحد لمرو والمشرق .

٦ — بنو العباس في الحكم

توطد امر ابي مسلم واتخذ لنفسه لقب امير آل محمد ولا بد أن هذا اللقب يعني اكثر من مجرد والٍ على مقاطعة ، لان ابا مسلم كان في الواقع

---

(١) الطبري ج ٢ ص ١٩٩٨ . وانظر ص ١٧١ من هذا الكتاب .

(٢) كذا ج ٢ ص ١٩٩٩ — ٢٠٠٠ ، وانظر ايضاً ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٢٩٣ — وتاريخ الخلفاء ص ٢٤٨ آ والطبري ج ٣ ص ٦٠ .

اكبر بكثير من مجرد والٍ على خراسان والمشرق . اذ كان يتمتع بأوسع الصلاحيات سواء في فترة ما قبل الثورة ام أثناء تأسيس الحكم العباسي .

وكان وهو في خراسان على اطلاع دائم واتصال مستمر بمجرى الامور في الكوفة عن طريق عينه فيها ابي الجهم بن عطية الذي عينه ابو مسلم « مندوباً سياسياً » في الجيش الثوري الزاحف وقد اقره في منصبه هذا ابو سلمه في الكوفة [1] .

اما ابو سلمة فقد كان مسؤولاً عن الكوفة بوصفه « وزير آل محمد » وهو منصب ولقب استحدثا حديثاً . وليس في الاشتقاق اللفظي لكلمة وزير ما يلقي ضوءاً كبيراً على طبيعة هذة الوظيفة [2] لكن طبيعة المهام التي كان يضطلع بها ابو سلمة ومسؤولياته في هذه الفترة كانت اقرب ما يكون الى مهام رئيس دولة موقت في حكومة ثورية جديدة وكانت سلطته معترفاً بها من الجميع. لكن سلطته على الجيش لم تكن كاملة . فقد كان المسؤول عن تجهيزه وادارته لكن السيطرة الحقيقية عليه كانت بيد ابي الجهم التابع الامين لابي مسلم .

وقد اعلنت الثورة باسم الرضا من آل محمد وقد حان الوقت الآن لاختيار هذا الشخص من آل البيت المقبول من الجميع . ومع ان اسم ابراهيم بن محمد امام الهاشمية كان الاسم المتداول بين رجال الثورة ولربما كان مرشحاً لامارة المؤمنين . لكن لسوء الحظ فان تداول هذا الاسم وشيوعه سهل على بني أمية اكتشاف الصلة بين ابراهيم واصحاب الثورة لذلك فقد حبس اولاً في مسكنه بالحمية ثم نقل بعد ذلك الى حران حيث مات – أو على الارجح اغتيل – في سجنه في شهر محرم من عام ١٣٢ هـ الموافق لشهر آب ٧٤٩ .

وتحفل مصادرنا بشتى الروايات التي تؤكد على انه عين – قبل موته –

---

(١) الطبري ج ٢ ص ٢٠٠١ وتاريخ الخلفاء ص ٢٨٣ ب .

(٢) لمزيد من البحث عن الوزارة ، أنظر غويشتاين . دراسات في التاريخ والنظم الاسلامية ليدن ١٩٦٨ ص ١٦٨ – ١٦٩ ، د . سوردل : الوزارات العباسية . دمشق ١٩٦٠ ج ١ ص ٦٥ ٧٠ وقد عرض هـ . ر . جيب لهذا الكتاب في « مجلة الشرق الاوسط » عدد ١٤ (١٩٦٠) ص ٤٤"

اخاه ابا العباس عبد الله بن محمد خلفاً له وانه عمل على اخبار صحبه قبل موته – باختياره هذا[1] ، لكن ابا سلمة الذي يفترض علمه بوصية ابراهيم الامام واختياره لاخيه ، لم يأخذ الامر مأخذ الجد أو على الاقل فانه لم يكن يرى ان ابا العباس هو اصلح آل البيت لمنصب إمارة المؤمنين ولذلك فلما تجمع آل العباس في الكوفة بعد وصول الخراسانية اليها امرهم ابو سلمة بالاختفاء وعدم الخروج الى الناس ورفض ان يدفع لهم ما كانوا في شديد الحاجة اليه من نفقات النقل[2] .

وفي خلال هذه الفترة ، كان ابو سلمة يكاتب البارزين من آل بيت الرسول (ص) مثل جعفر الصادق وعبد الله بن الحسن وعمر بن علي بن الحسن – وكانوا جميعهم في الحجاز[3] وقد يكون ابو سلمة قد عرض على كل منهم إمارة المؤمنين بشروط معينة . وقد رفض جعفر الصادق العرض رفضاً باتاً، اما عبد الله بن الحسن فقد تردد قليلاً ولكنه طلب شروطاً احسن لولده محمد النفس الزكية . ولم تسجل مصادرنا رد الفعل عند المرشح الثالث .

واذا كان هذا مجرد عرض بسيط فمن الصعب ان نفهم السر في عدم الاسراع بقبوله من أي من هؤلاء المرشحين الثلاثة وخاصة من عبد الله بن الحسن او ابنه محمد النفس الزكية الذي سيقدر له ان يثور على العباسيين بعد ثلاث عشرة عامـاً .

وللمرء ان يسأل الآن ما هي الشروط التي وضعها ابو سلمة لمنصب إمارة المؤمنين ؟ ومن الواضح ان ابا سلمة كان تحت ضغط وجوب تنصيب شخص من آل البيت مقبول للجميع لمنصب أمير المؤمنين ، ومن الجهة الثانية فعلى المرء ان يدرك انه كان رجل سياسة مسؤولاً وله مصالح كثيرة في النجاح الكامل

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٤٢ – ٤٤ ، وابن اعثم ، فتوح ص ٢٢٠ آ ، اليعقوبي تاريخ ج ٢ ص ٤١٣ وتاريخ الخلفاء ص ٢٨٤ ب – ٢٨٧ ب .

(٢) الطبري ج ٣ ص ٧٢ – ٣٤ . تاريخ الخلفاء ص ٢٩٠ آ .

(٣) تاريخ الخلفاء ص ٢٩٠ آ ، اليعقوبي . تاريخ ج ٢ ص ٤١٨ – ١٩ . ف . عمر ص ١٧١ – ٤ .

للثورة ، وكان – دون ريب – على علم بالتيارات الشيعية في الكوفة ومتطلباتها العملية لسلطات امير المؤمنين – الامام وخاصة في محل مثل الكوفة . وكان على علم ايضاً برغبات الخراسانية وتصورهم لهذه السلطات اذ لا بد لرجال الثورة الذين حملوا السلاح للاجهاز على هذا النظام السياسي السابق ان تكون لهم آراؤهم الخاصة في الكيان السياسي الجديد الذي يجب ان يحل محله . فلقد شهدوا في ايام بني أمية الاخيرة انحلال النظام وتدهوره ولذلك فقد كانت إمارة المؤمنين من الاهمية عند هؤلاء الثوريين بحيث لم يكونوا مستعدين للاخذ بنفس النظام والاكتفاء بتغيير الجالس على رأسه فقط . وكانت الشيعة قد اعلنت منذ زمن بعيد رأيها في ان يكون الامام نفسه هو امير المؤمنين او بكلمة اخرى ان يكون الحاكم ذات سلطات دينية وزمنية في وقت واحد، ولكن الخلاف هو في مدى هذه السلطات ، الدينية منها ام الزمنية التي يتمتع بها الحاكم .

فالخراسانية كانت تتصور امير المؤمنين بسلطات دينية محدودة ودون ما سلطة زمنية . وقد قبلوا دون جدال بقيام ابي سلمة مع ما يترتب له من سلطات زمنية ومع هذا فقد انتظروا شهرين كاملين قبل ان يفرضوا مرشحهم لإمارة المؤمنين .

وفي خلال هذين الشهرين كان ابو سلمة مشغولاً في التفتيش عن « الرضا من اهل البيت » الاكثر قبولاً من الجميع والذي يرضى بالمنصب على شروط الخراسانية . ولربما كان يأمل في اقناع واحد من اعلى آل البيت منزلة فيكون مقبولاً من الشيعة ومن الجماعة الاسلامية عامة . لكن الشروط التي وضعتها الخراسانية جعلت من الصعب – ان لم يكن من المستحيل – العثور على من يقبل عرض ابي سلمة . وفي الاخير اخذت الخراسانية الامر بين يديها وفرضت مرشحها العباسي ابا العباس عبد الله بن محمد اميراً للمؤمنين .

ولم يكن لدى ابي سلمة من خيار الا القبول بواقع الحال ولا بد ان ابا مسلم قد استشير في الامر قبل حدوثه لان الامر كله قد تم على يدي تابع ابي مسلم وعينه في الكوفة ابي الجهم بن عطية [1] .

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٦٦ واليعقوبي . تاريخ ج ٢ ص ٤٢٤ .

وكان ابو العباس في غاية الرضا والسرور لقبول هذا المنصب على شروط الخراسانية ، وقد وافق على ان يستمر ابو سلمة في وظيفته وزيراً على ما في ذلك من تقليل كبير لسلطات ابي العباس الزمنية ، كما ان فشله في الحصول على لقب « الامام » يعني عدم حصوله على السلطات الدينية او على الاقل السلطات الدينية التي تريدها الشيعة للامام أمير المؤمنين .

وقد كشف اختيار ابي العباس للخلافة وتفضيله على اخيه ابي جعفر ، عبد الله بن محمد عن نيات الخراسانية واتجاهها . فقد زعم ان سبب تفضيله هو انه من أم عربية في حين ان أم أخيه ابي جعفر جارية من البربر . ولا يمكن التسليم بهذا التبرير لانه يخالف منطق الخراسانية وعقيدتها ، لان التسليم به معناه التسليم بان الخراسانية التي عملت وضحت في سبيل اتمام الدمج التام بين شتى العناصر والجنسيات في الجماعة المسلمة في كل مكان قد ناقضت نفسها وخالفت منطقها في قضية مشهورة كبرى كقضية اختيار امير المؤمنين هذه .

ولكن الواقع ان ابا جعفر كان اقوى شخصية من اخيه واصلب إرادة منه وكان لا يرضى الا ان يكون قوياً نافذ الكلمة والرأي ولهذه الاسباب فقد تخطاه الاختيار الى اخيه الاصغر والاضعف .

وهكذا ، ومنذ اول الطريق ، افترق العباسيون عن الشيعة بانحرافهم عن العقيدة الشيعية للامام امير المؤمنين . ولهذا فلا عجب ان تستمر الشيعة بعد ذلك تستثير الرأي العام وتؤلبه في سبيل تحقيق عقيدتها الدينية والسياسية طيلة مدة الحكم العباسي .

وبهذا تحققت صحة الرؤية السياسية البعيدة لأبي سلمة الذي لو اتبع رأيه لوفر ذلك على الجماعة الاسلامية طيلة الاجيال التالية الكثير من الشقاق والخصام .

وقد فشلت جميع محاولات بني العباس لارضاء الشيعة ، فلم تنفع الالقاب ذات الصفة المقدسة كالمنصور والمهدي والهادي التي اضفاها خلفاء بني العباس على انفسهم في اقناع الشيعة بترك جهادهم الدائب في سبيل تحقيق مطالبهم . وقد ادرك المأمون وقائع الحال ، وفي فورة من العاطفة والحماسة اتخذ لنفسه

لقب الامام وصار يدعى امير المؤمنين الامام المأمون «بأمل ارضاء الشيعة واستعادة ثقتهم بالحكم العباسي ، ولكن محاولته جاءت متأخرة فلم تنفع في شيء »[1] .

ومع ان ابا العباس عرف بلقب السفاح إلا أنه لم يحمل هذا اللقب في حياته قط وانما ألصقه به بعض المؤرخين المتأخرين الذي دفعهم حبهم للنسق والنظام الى اختلاق «لقب ملكي» لامير المؤمنين العباسي الاول على غرار الالقاب التي اصطفاها من تلاه من خلفائه من بني العباس لانفسهم[2] وقد قصد ان تبقى سلطاته في حدود الحد الادنى ولربما ادى خلع هذا اللقب عليه الى مشاكل هو في غنى عنها .

ولا شك ان مبدأ فصل السلطة بين امير المؤمنين والوزير هو بدعة جاءت بها الثورة ولربما كان سبب الاخذ بها هو الرغبة في القضاء على الحكم التعسفي الذي اتسم به العهد الاموي المتأخر ، لكن رجال الثورة هؤلاء لم ينتبهوا في ذلك الحين الى خيانة ابي العباس لهذا المبدأ حين قتل وزيره ابا سلمة عام ١٣٢ / ٧٥٠ ، وكان ابو سلمة قد وضع نفسه في موضع التهم بسلوكه في اول ايام الثورة ولا بد ان ابا العباس قد فاتح ابا مسلم بنيته هذه وحصل على موافقته على قتل الخلال ، وكان ابو مسلم ما يزال في خراسان وقد بسط نفوذه وهيمنته على الامبراطورية كلها ، وقد قام صاحبه الجهم بن عطيه مقام وزير أبي العباس بعد مقتل ابي سلمة[3] .

وقد ظل ابو العباس فيما تبقى من ايام حكمه (١٣٢ – ١٣٧/٧٤٩ – ٧٥٤) مشغولاً بتوطيد اركان الحكم العباسي في النصف الغربي من الامبراطورية ففي جمادى الآخرة من عام ١٣٢هـ/كانون الثاني في عام ٧٥٠م اشتبك في معركته الحاسمة مع الامويين حيث استطاع ان يقضي على ضفاف نهر الزاب على جيش مروان بن محمد الذي لاذ بالفرار فتعقبه الجيش العباسي بقيادة عبد الله

---

(١) الطبري ج ٣ ص ٢٧ – ٣٧ واليعقوبي : تاريخ ج ٢ ص ٤١٣ وتاريخ الخلفاء ص ٢٩١ آ .

(٢) الطبري ج ٣ ص ٧٩٩ و١١٣٣ .

(٣) ب . لويس : الالقاب الملوكية في صدر الخلافة العباسية نيودلهي ص ١٥ .

بن علي عم ابي العباس الى حران ولكن مروان فر منها الى الشام حيث لم يجد نصيراً فلحق به جيش عباسي آخر بقيادة عم آخر لابي العباس هو صالح بن علي ، وهنا اندحر جيش مروان وان استطاع هو الهرب ثانية ، ولكن صالح ظل في اثره يتعقبه حتى عثر عليه في كنيسة في بوصير فاحاطوا به وقتلوه في شهر ذى الحجة من عام ١٣٢ الموافق لشهر آب ٧٥٠ . وبهذا أسدل الستار نهائياً والى الابد على حكم بني أمية في سوريا ومصر .

وفي السنة التالية استسلمت الى ابي جعفر واسط ، آخر قلاع الامويين في العراق . وكان يزيد بن هبيرة آخر ولاة بني أمية في العراق قد صمد في واسط لحصار العباسيين له قرابة عام كامل . ثم قبل الامان من ابي جعفر واستسلم له ولكنه ما لبث ان قتل غيلة وغدراً .

واستهل عهد أبي جعفر المنصور عام ٧٥٤/١٣٦ بخروج عمه عبد الله بن علي عليه ، فندب ابا مسلم لقمع حركة عمه . وكان الوفاق بين ابي جعفر والمنصور حتى ذلك الحين على أشده متانة ووثوقاً خلافاً للاشارات الكثيرة التي توردها مصادرنا لاثبات العكس . ذلك ان الاول منهما لم يكن قد اشتد ساعده واستقام له امر الحكم بعد ، ولم يجد الثاني سبباً للريبة في نوايا الخليفة . ولم تقع النفرة بين الاثنين إلا بعد نجاح ابي مسلم في حملته هذه ضد عبد الله ابن علي . اذ بعث له المنصور يقطين بن موسى وامره ان يحصي اموال الغنائم . فعارض ابو مسلم في ذلك معارضة عنيفة سافرة . ولا بد انه وجد ان ليس من حق امير المؤمنين ولا من سلطته التدخل في مثل هذه الامور في حين وجد المنصور انه لن يستطيع ان يكون الحاكم الفعلي في امبراطوريته إلا اذا ازال من طريقه ، بل ومن الوجود ابا مسلم الخراساني .

ولم يكن المنصور يجهل مغبة الاضطلاع بهذا الامر ، يدلنا على ذلك حذره الشديد في الاستعداد الدقيق لهذا الامر .

وعلى كل فقد استطاع المنصور ان ينفذ هذا الحدث الخطر عام ٧٥٥/١٣٧ دون ان يثير عمله معارضة جادة من احد من انصار ابي مسلم ، في حين بدأ العباسيون يكتسبون هالة من الشرعية في عيون رعاياهم .

وقد ظل المنصور فيما تبقى من ايام حكمه يزاول السلطات الزمنية على نفس الاسلوب الذي كان يمارسها به الامويون ، ودون اي ادعاء بسلطات الامام الزمنية . ومن المهم ان نلاحظ ان وزير المنصور في هذه الايام ابا ايوب المورياني لم يزد في سلطاته عن كونه مجرد حاجب لديه . ومع كل هذا فقد استمر الاخذ بمبدأ الفصل بين السلطات طيلة الحكم العباسي ، وفي العصور المتأخرة من حكم العباسيين استطاع وزراؤهم الأقوياء ان يسيطروا بأيدٍ من حديد على السلطات الزمنية في حين ظل امير المؤمنين مجرد رمز للمظهر الديني فحسب .

وكان الانجاز القوي الوحيد الذي حققته الثورة العباسية والذي لا يمكن الاغضاء عنه او التقليل من شأنه هو الدمج الكامل بين كل اعضاء المجتمع الاسلامي ، وهذا بدوره أدى الى سرعة انتشار الاسلام بين رعايا الامبراطورية من غير العرب وخاصة في المشرق .

وهكذا وفي نهاية المطاف تحققت افكار عمر بن عبد العزيز ولكن على يد الثورة التي اطاحت ــ والى الابد ــ بحكم أسرته بني أمية .



الملاحق

الملحق الأول : نسب قريش

الملحق الثاني : نسب العلويين

الملحق الثالث : نسب بني أمية وخلفائهم

الملحق الرابع : نسب بني العباس

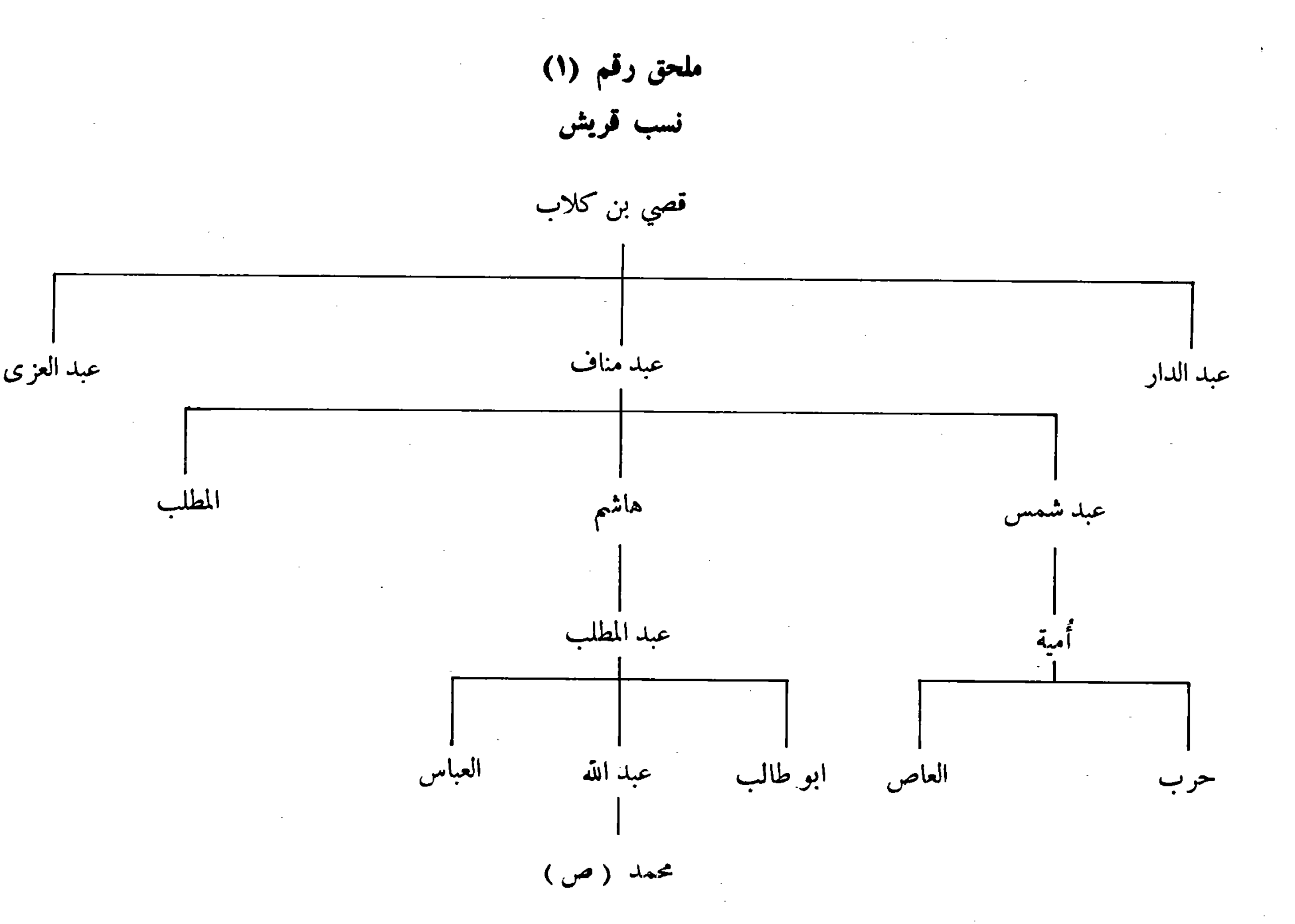
الملحق الخامس : تاريخ خلفاء بني أمية

الملحق السادس : تواريخ بعض الأحداث الهامة .

ملاحظة : نقتصر في هذه الجداول على الاسماء الهامة التي لها علاقة بأبحاث هذا الكتاب .

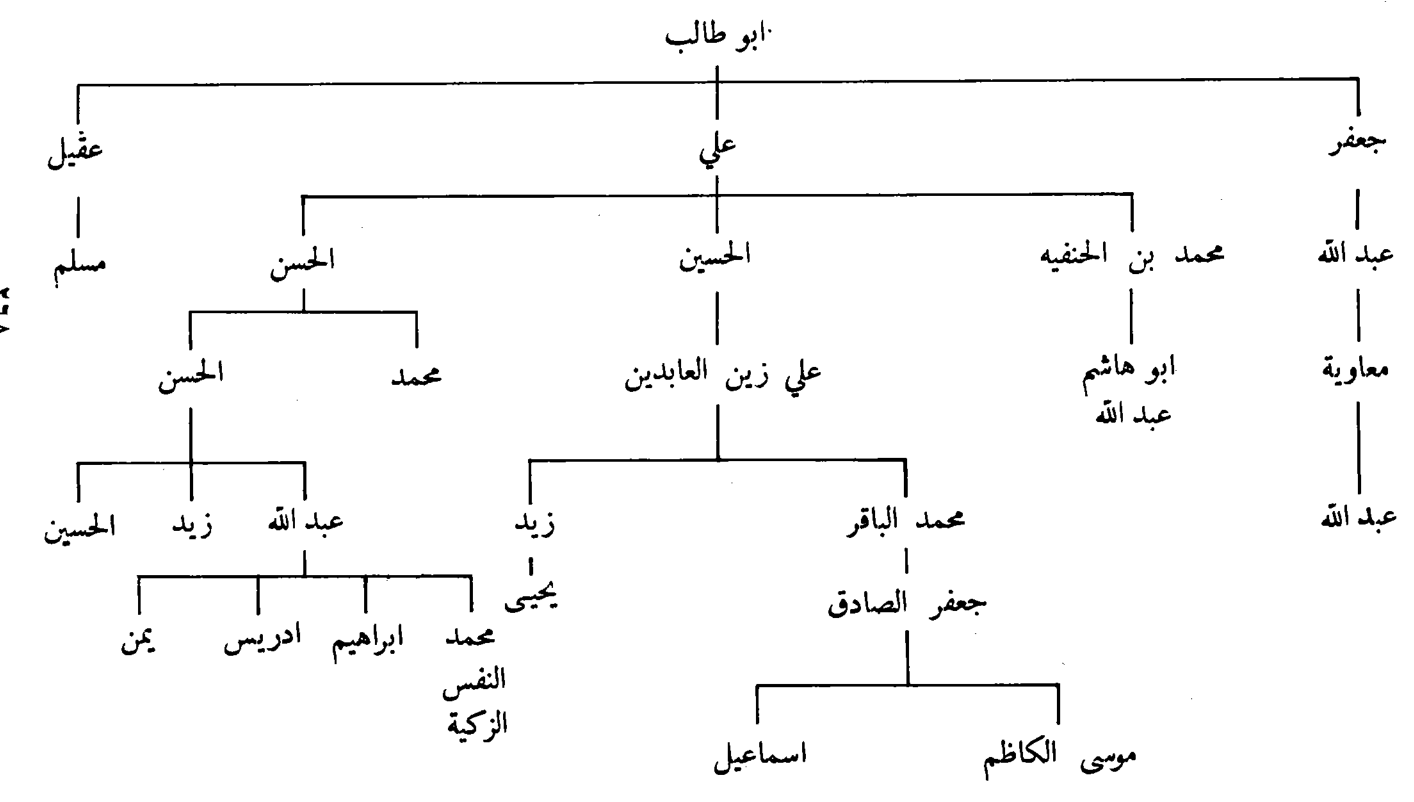


ملحق رقم (١)
نسب قريش



ملحق رقم (٢)

نسب العلويين



ملحق رقم (٣)
نسب بني أمية وخلفائهم

أمية

حرب — العاص

ابو سغيان — الحكم — عفان

(١) معاوية — (٤) مروان الاول — عثمان

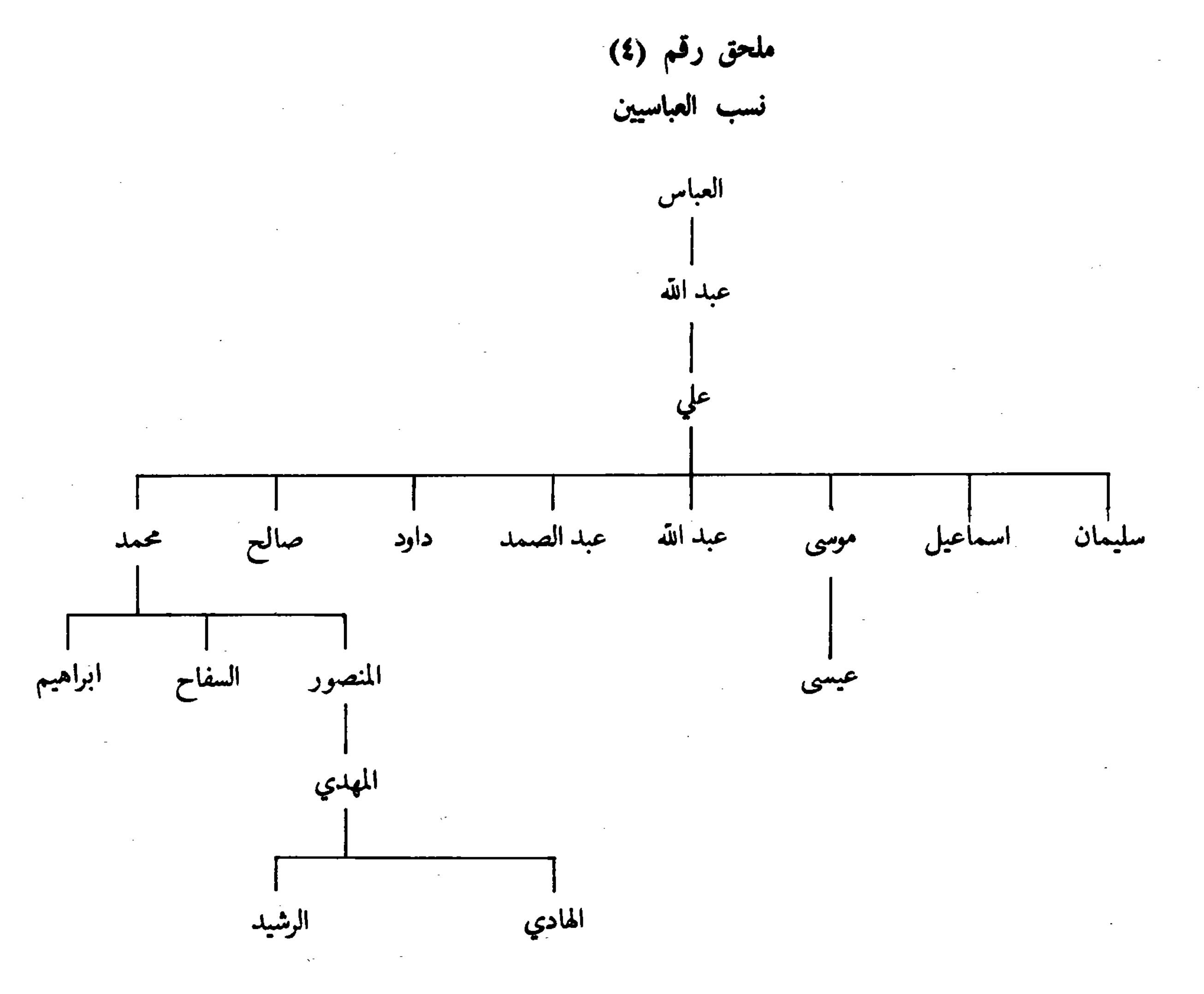
(٢) يزيد — عبد العزيز — (٥) عبد الملك — محمد

(٣) معاوية — (٨) عمر — (٦) الوليد — (٧) سليمان — (٩) يزيد الثاني — (١٠) هشام — (١٤) مروان

(١٢) يزيد الثالث — (١٣) ابراهيم — (١١) الوليد الثاني

ملحق رقم (٤)

نسب العباسيين



ملحق رقم (٥)

الخلفاء الأمويين

٤١ ــ ١٣٢ / ٦٦١ ــ ٧٥٠

١	معاوية	٤١ ــ ٦٠	٦٦١ ــ ٦٨٠
٢	يزيد	٦٠ ــ ٦٤	٦٨٠ ــ ٦٨٣
٣	معاوية بن يزيد	٦٤ ــ ٦٤	٦٨٣ ــ ٦٨٤
٤	مروان بن الحكم	٦٤ ــ ٦٥	٦٨٤ ــ ٦٨٥
٥	عبد الملك بن مروان	٦٥ ــ ٨٦	٦٨٥ ــ ٧٠٥
٦	الوليد بن عبد الملك	٨٦ ــ ٩٦	٧٠٥ ــ ٧١٥
٧	سليمان بن عبد الملك	٩٦ ــ ٩٩	٧٠٥ ــ ٧١٧
٨	عمر بن العزيز	٩٩ ــ ١٠١	٧١٧ ــ ٧٢٠
٩	يزيد بن عبد الملك	١٠١ ــ ١٠٥	٧٢٠ ــ ٧٢٤
١٠	هشام بن عبد الملك	١٠٥ ــ ١٢٥	٧٢٤ ــ ٧٤٣
١١	الوليد بن يزيد	١٢٥ ــ ١٢٦	٧٤٣ ــ ٧٤٤
١٢	يزيد بن الوليد	١٢٦ ــ ١٢٦	٧٤٤ ــ ٧٤٤
١٣	ابراهيم بن الوليد	١٢٦ ــ ١٢٦	٧٤٤ ــ ٧٤٤
١٤	مروان بن محمد	١٢٧ ــ ١٣٢	٧٤٥ ــ ٧٥٠

ملحق رقم (٦)

تواريخ بعض الاحداث الهامة

٢١	٦٤٢	معركة نهاوند
٢٩	٦٤٩	ولاية عبد الله بن عامر على البصرة وحملاته الى فارس وخراسان
٣٢		قيس بن الهيثم والٍ على خراسان
٨١	٧٠٠	موت محمد بن الحنفيه
٩٨	٧١٦	* وفاة ابو هشام بن محمد بن الحنفية
		* انتقال الدعوة الى محمد بن علي العباسي
١١٨	٧٣٦	وفاة علي العباسي
١٢٥	٧٤٣	وفاة محمد بن علي وتولي ابراهيم الامام بن محمد زعامة الحركة
١٢٦	٧٤٤	* وفاة بكير بن ماهان رئيس التنظيم الهاشمي
		* ابو سلمة الخلال يتولى رئاسة التنظيم
		* جولة أبي سلمة وأبي مسلم في خراسان
١٢٨	٧٤٦	تعيين أبي مسلم ممثلاً للامام في خراسان
١٢٩	٧٤٧	أبو مسلم يعلن الثورة في مرو
١٣٢	٧٤٩	وفاة ابراهيم الامام
١٣٢	٧٥٠	خلافة ابي العباس السفاح
		* مقتل مروان بن محمد وانتهاء الحكم الاموي
		* مقتل ابي سلمة
١٣٦	٧٥٤	وفاة السفاح
		خلافة ابي جعفر المنصور
١٣٧	٧٥٥	مقتل أبي مسلم الخراساني

١ – المصادر العربية
وهي المصادر الاساسية

الاثير (ابن) : عز الدين :
الكامل في التاريخ . ليدن ١٨٦٦ – ٧١ ، ١٤ ج .
اللباب في معرفة الانساب . القاهرة ١٣٥٧ – ٦٩ هـ ، ٣ ج .

اخبار العباس وولده : لمؤلف مجهول . مخطوطة في معهد الدراسات الاسلامية العالية في جامعة بغداد (طبعت ونشرت مؤخراً) .

الاصطخري ابو اسحاق ابراهيم : –
كتاب المسالك والممالك ، ليدن ١٨٧٠ .

الاصفهاني : ابو الفرج :
الاغاني ج ١ – ٢٠ القاهرة ١٢٨٥ هـ ج ٢١ ليدن ١٨٨٨ .
مقاتل الطالبين ، القاهرة ١٩٤٩ .

اعثم (ابن) : الكوفي الكندي : ابو محمد احمد :
كتاب الفتوح : مخطوط في استانبول في مكتبة احمد الثالث تحت رقم ٩٥٦ ، بجزئين . وترجمه الى الفارسية محمد بن احمد المستوفي الهراوي. وطبع في بومبي ١٣٠٠/١٨٨٢ .

البلاذري : احمد بن يحيى :
انساب الأشراف : ج ٤ . القدس ١٩٣٨ و ج ٥ القدس ١٩٣٦ .
والمخطوطة في المكتبة السليمانية باستانبول تحت رقم ٥٩٧ – ٨ في مجلدين .
فتوح البلدان ، ليدن ١٨٦٦ .

البيروني : ابو ريحان :
الآثار الباقية ، ليبزغ ١٩٢٣ .

تاريخ الخلفاء : مجهول المؤلف ، تحقيق ب . كريازينيفتش ، موسكو ١٩٦٧ .
التنوخي الحسن بن علي :
المستجاد . تحقيق كرد علي ، دمشق ١٩٤٦ .

الثعالبي : ابو منصور
غرر اخبار ملوك الفرس وسيرهم ، باريس ١٩٠٠ .

الجاحظ ابو عثمان عمر بن بحر

البيان والتبيين	٤ ج القاهرة ١٩٤٨ — ١٩٥٠
البخلاء	القاهرة ١٩٥٠
الحيوان	٧ ج القاهرة ١٩٣٨ — ٤٥
كتاب التاج	القاهرة ١٩١٤
المحاسن والاضداد	ليدن ١٨٩٨
مجموعة رسائل	القاهرة ١٣٢٤ هـ
ثلاث رسائل	ليدن ١٩٠٣

حاجي خليفة
إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون ، ج ٢ ، استانبول ١٩٤٥ .
كشف الظنون ، ج ٢ ، استانبول ١٩٤١ .

حجر (ابن) : انظر العسقلاني .

حزم (ابن) : علي بن محمد :
جمهرة انساب العرب ، القاهرة ١٩٤٨ .

حوقل (ابن) محمد :
صورة الارض ، ج ٢ ، ليدن ١٩٣٨ .

خرداذبه (ابن) ، عبيد الله بن عبد الله
كتاب المسالك والممالك ، ليدن ١٨٨٩ .

خلكان (ابن) ابو العباس
كتاب وفيات الاعيان ، ٢ ج ، القاهرة ١٨٨١ .

الخوارزمي : محمد بن يوسف
مفاتيح العلوم ، ليدن ١٨٨٥ .

دريد (ابن) محمد :
الاشتقاق ، كوتنجن ١٨٥٤ .

الدوري ، عبد العزيز : —
— ضوء جديد على الدعوة العباسية ، مجلة كلية الآداب والعلوم ، بغداد ١٩٦٠ .
— نظام الضرائب في خراسان ، مجلة المجمع العالي العراقي ، المجلد رقم ١١ ، ١٩٦٤ .

الدينيوري : ابو حنيفة
الاخبار الطوال ، ليدن ١٨٨٨

الذهبي : محمد بن احمد
تاريخ الاسلام ، ج ٥ ، القاهرة ١٣٦٧ ﻫ

رسته (ابن) : ابو علي محمد
كتاب الاعلاث النفسية ، ليدن ١٨٩٢

الزبيري : ابو عبد الله المصعب
نسب قريش ، القاهرة ١٩٥٣

مسعد (ابن) محمد :
كتاب الطبقات الكبير ، ٢١ ج ، ليدن ١٩٠٨ — ٢١

سلام (ابن) ابو عبيد القاسم :
الاموال ، القاهرة ١٣٥٣ ﻫ

السمعاني ، عبد الكريم بن محمد
الانساب ، ليدن ١٩١٢

الطبري ، محمد بن جرير
تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ، ليدن ١٨٧٩ – ١٩٠١

عبد الحكم (ابن) ، ابو محمد عبد الله
سيرة عمر بن عبد العزيز ، القاهرة ١٩٢٧

عبد ربه (ابن) ، احمد بن محمد
العقد الفريد ، ٣١ ج ، بيروت ٥١ – ١٩٥٤

العذاري : البيان المغرب ، ليدن ١٩٤٨

العسقلاني ، ابن حجر
كتاب الاصابة في معرفة الصحابة ، ج ٤ ، القاهرة ١٣٢٨ هـ
تهذيب التهذيب ، ج ١٢ ، حيدراباد ١٣٢٥ – ٢٧ هـ

العلي : احمد صالح
التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ، بغداد ١٩٥٣ .
استيطان العرب في خراسان : مجلة كلية الآداب والعلوم ، بغداد ١٩٥٨

العيون والحدائق في الاخبار والحقائق : مجهول المؤلف ، ليدن ١٨٦٩

الفقيه (ابن) الحمداني
كتاب البلدان ، ليدن ١٨٨٥ .

قدامة بن جعفر ، حسن بن محمد
كتاب الخراج ، ليدن ١٨٨٩ .

قتيبة (ابن) عبد الله بن مسلم
عيون الاخبار ، ج ٤ ، القاهرة ١٩٢٢

الكلبي (ابن)
هشام بن محمد
نسب مضر واليمن الكبير ، مخطوط في المتحف البريطاني تحت رقم ٢٢٣٧٦

الماوردي
الاحكام السلطانيه ، القاهرة

المبرد ، ابو العباس محمد
الكامل في الادب ، ليبزج ١٨٧٤ – ٨٢

مخلص : عبد الله
تاريخ ابن اعثم الكوفي ، مجلة المجمع العلي العربي ، مارث ١٩٢٦

المسعودي : علي بن الحسين :
مروج الذهب ، ٩ ج ، باريس ١٨٦١ – ٧٧
التنبيه والاشراف ، ليدن ١٨٩٤

المقدسي : شمس الدين
أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن ١٨٧٧

المقريزي : احمد بن علي
خطط القاهرة ، ٢ ج ، القاهرة ١٢٧٠ ﻫ
كتاب النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم ، ليدن ١٨٨٨

منظور (ابن) محمد بن مكرم
لسان العرب ، ١٠ ج ، بولاق ١٨٩١

النديم (ابن) ، محمد بن اسحاق
الفهرست ، القاهرة ١٩٢٩

النوبختي ، الحسن بن موسى
فرق الشيعة ، النجف ١٩٣٦

ياقوت ، شهاب الدين
معجم البلدان ، ج ٦ ، ليبزغ ١٨٩٢
معجم الادباء ، ج ٧ ، ليدن – لندن ١٩٠٧ – ٢٦ ، ليدن ١٨٩٦

يحيى بن ادم :
الخراج ، ليدن ١٨٩٦

اليعقوبي : احمد بن ابي يعقوب
كتاب البلدان ، ليدن ١٨٩٢
التاريخ ، ٢ ج ، ليدن ١٨٨٣

يوسف (ابو) يعقوب
الخراج ، القاهرة ١٣٠٢ هـ

٢ – المصادر الفارسية

الاصفنديار (ابن) محمد بن الحسن
تاريخ طخارستان ، تحقيق عباس اقبال ، طهران ١٩٤٢

البلعمي : ابو علي محمد : ترجمة تاريخ الطبري ، كانبور ١٩٠٦

تاريخ سيستان ، المؤلف مجهول ، تحقيق م. بهار ، طهران ١٣١٤

حدود العالم : مجهول المؤلف : تحقيق مينورسكي ، لندن ١٩٣٧ .

القمي : حسن بن محمد
تاريخ فم ، طهران ١٩٣٥

كرديزي : ابو سعيد عبد الحي
كتاب زين الاخبار ، طهران ١٩٣٩

نرشخي : ابو بكر محمد
تاريخ بخارى : تحقيق رضوي ، طهران ١٩٣٩ ، ترجمه الى الانكليزية ر. ن. فري ونُشر في كامبرج (الولايات المتحدة) ١٩٥٤

٣ – المصادر الغربية

Altheim, F. — Stiehl, R., *Geschichte der Hunnen, II Die Hephthaliten in Iran,* Berlin, 1960.

Azizi Mohsen, *La domination Arabe et l'épanouissement du sentiment national en Iran,* Paris, 1938.

Barthold, W., *Turkestan down to the Mongol invasion,* London 1928.
Ṭukhāristān» and «Farqhāna», *Encyclopaedia of Islam,* Leiden, 1939.
Histoire des Turcs d'Asie Centrale, adaptation française par Mme M. Donskis, Paris, 1945.
Four studies on the history of Central Asia, tr. from the Russian by V. and T. Minorsky, Leiden, 1956. 2 vols.

Bivar, A.D.H., «Hayāṭla», *Encyclopaedia of Islam,* New Edition, Leiden, 1954 —.

Bosworth, C.E., *Sistan under the Arabs*, Rome, 1968.
Brockelmann, C., «Yaʿkubī», *Encyclopaedia of Islam*, New Edition, Leiden, 1954 —.
Brunschvic, R. *Ibnʿ Abd ul Ḥakam, Annales de l'Institut des Etudes Orientales*, vol. VII, 1942.
Cahen, C., «Points de vue sur la 'Révolution abbaside'», *Revue Historique*, 1963, pp. 295-338.
Chavannes, E., *Documents sur les Tou-Kiue (Turc) Occidentaux*, St Petersbourg, 1903.
Notes additionnelles sur les Tou-Kiue, Occidentaux T'oung Pao, vol. V (1904).
Christensen, A., «l'Empire des Sassanides», *Mémoires de L'Académie des Sciences et des Lettres de Danemark*, 7th series, 1 (1907).
L'Iran sous les Sassanides, Copenhagen, 1936.
Czaplicka, M.A., *The Turks of Central Asia*, Oxford, 1918 (a very detailed bibliography).
Dennett, D.C., «Marwān ibn Muhammad; The passing of the Umayyad Caliphate», unpublished Ph. D. thesis, Harvard University, 1939.
Conversion and the Poll Tax in Early Islam, Cambridge, Mass, 1950.
Enoki, K., «On the nationality of the Ephthalites», *Memoirs of the Research Department of the Toyo Bunko*, XVIII, Tokyo, 1959, pp.1-58.
Fateh, Mostafa Khan, «Taxation in Persia. A synopsis from the early times to the conquest of the Mongols», *Bulletin of the School of Oriental Studies* IV (1926-28). pp. 723-43.
Fischel, W. J., «The Jews of Central Asia (Khorasan) in Medieval Hebrew and Islamic literature», *Historia Judaica* 7 (1945), pp. 29-50.
Friedlander, I., «The heterodoxies of the Shīʿā», *Journal of the American Oriental Society* XXVIII (1907), pp. 1-80; XXIX (1908), pp. 1-183.
Frye, R.N., «The role of Abū Muslim in the 'Abbāsid Revolution», *Muslim World* 37 (1947), pp. 28-38.
«Tarxun-Turxun and central Asian history». *Harvard Journal of Asiatic Studies* 14 (1951), pp. 105-29.
«The ʿAbbāsid conspiracy and modern revolution theory», *Indo-Iranica, SIII (1952-3), pp. 9-14.*
The Heritage of Persia, London, 1962.
Gabrieli, F., «al-Walīd ibn Yazīd il califfo e il poeta», *Rivista degli Studi Orientali* XV (1934), pp. 1-64.
«Il califato di Hishām, Studi di storia omayyade«, *Mémoires de la Société Archaeologique d'Alexandrie* VII. 2 (1935).
«La rivolta dei Muhallabiti nel Iraq e il nuovo Balādurī», *Rendiconti della Reale Accademia dei Lincei*, series 6, 14 (1938), pp. 199-236.
«L'eroe Omayyade Maslamah ibn ʿAbd al-Malik», *ibid.*, series 8, 5 (1950-1), pp. 22-39.

Ghirshman, R., *Begram,* Le Caire, 1946.
Les Chionites-Hephthalites, Le Caire, 1948.
Gibb, H.A.R., «Chinese Records of the Arabs in Central Asia», *Bulletin of the School of Oriental Studies II* (1922), pp. 613-22.
The Arab Conquests in Central Asia, London, 1923.
«The Arab invasion of Kāshgar in A.D. 715», *Bulletin of the School of Oriental Studies* II (1923), pp. 467-74.
«Tārīkh», supplement of the *Encyclopaedia of Islam,* Leiden, 1939.
«The structure of religious thought in Islam», *Muslim World* 38 (1948), pp. 17-28, 113-23, 185-97, 280-91.
«Interpretation of Islamic History», *Journal of World History,* vol. 1, no. I, July 1953, pp. 39-62.
«The Fiscal Rescript of 'Umar II», *Arabica,* Tome II, Fascicule I, janvier 1955, Leiden, 1955.
«The evolution of government in Early Islam», *Studia Islamica* 4 (1955), pp. 1-17).
Goitein, S.D., *Studies in Islamic History and Institutions,* Leiden, 1968.
Grousset, R., *The Civilisations of the East,* London, 1931.
Hamidullah, M., *Muslim conduct of the state,* Calcutta, 1943.
Hodgson, Marshall G.S., «How did the early Shia become Sectarian?», *Journal of the American Oriental Society* LXXV (1955), pp. 1-13.
Housseini, A.M. El-, «The Umayyad policy in Khurasan and its effect on the formulation of Muslim thought», *Journal University of Peshawar* 4 (1955), pp. 1-21.
Irani, M.S., «Khorasan after the Arab Conquest», *All India Oriental Conference*
13 (1946), part II, pp. 530-7.
Jacobson, H., *Early History of Sogdia,* Chicago, 1935.
Jettmar, K., «Les plus anciennes civilisations d'éleveurs des steppes d'Asie Centrale» *Journal of World History* I (1954), pp. 760-78.
Kurat, Akdes N., «Kitāb al-Futūh», *Ankara Universitesi Dil ve Tarih Coqrafya Fakultesi Derqisi,* vol 6, pp. 385-430; vol. 7, part 2, July 1949, pp. 255-82.
Lammens, H., «étude sur le régne du calife Omaiyade Mo āwia 1er», *Mélanges*
de la Faculté Orientale de Beyrouth I (1906), pp. 1-108; II (1907),
pp. 1-172; III (1908), pp. 145-312.
«Le califat de Yazīd 1er», *ibid.,* IV (1910), pp. 213-33; V (1911 12), pp.
79-267, 589-724; VI (1913), pp. 401-92; VII (1914 21), pp.211-44.
«Ziād ibn Abīhi, vice-roi de l'Iraq, lieutenanr de Mo āwia», *Rivista degli Studi Orientali* IV (1911 12), pp. 1-45, 199-250, 653-93.

II ou le dernier des Sofiānides», *ibid.*, VII (1916/18), pp.
1-49.
«L'avènement des Merwānides et le califat de Merwān 1er», *Mélanges de la Faculté Orientale de Beyrouth* XII (1927), pp. 41-147.
Etudes sur le Siècle des Omayyades, Beyrouth, 1930.
Le Strange, G., *The Lands of the Eastern Caliphate*, Cambridge, 1930.
Levi, S., «Le Tokharien», *Journal Asiatique*, 1933, pp. 1 ff.
Lewis, B., «An apocalyptic vision of Islamic History», *Bulletin of the School of Oriental Studies* XIII (1950), pp. 308-38.
«ʿAbbāsids», *Encyclopaedia of Islam*, New Edition, Leiden, 1954-.
«The Regnal Titles of the First ʿAbbāsid A03Messina,
Rome, 1931.
Caliphs», *Dr Zahir Husain*
Presentation Volume, New Delhi, 1968, pp. 13-22.
Lokkegaard, F., *Islamic Taxation in the Classis Period*, Copenhagen, 1950.
Margoliouth, D.S., *Lectures on Arabic Historians*, Calcutta, 1930.
Marquart, J., «Eranṣahr«, *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaften zu Göttingen*, vol. III, 1901.
À Catalogue of the provincial Capitals of Eranshahr, ed. G. Messina, Rome,
1931.
McGovern, W. M., *The Early Empires of Central Asia*, Chapel Hill, 1939 (has an excellent bibliography with very useful notes).
Minorsky, V., «Ṭūs», *Encyclopaedia of Islam*, Leiden, 1939.
Iranica, Publications of the University of Teheran, vol 775, Teheran, 1964.
Moscati, S., «Studi su Abū Muslim I-III», *Academia Nazionale dei Lincei* (1949), pp. 323-35, 474-95; (1950), pp. 89-105.
«Il testamento di Abū Hāshim», *Rivista degli Studi Orientali* (1952), pp. 28 ff.
«Abū Muslim», *Encyclopaedia of Islam*, New Edition, Leiden, 1954-.
Nasr, Seyyed Taghi, *Essai sur l'histoire du droit Persan dès l'origine à l'invasion Arabe*, Paris, 1933.
Omar, F., «The ʿAbbāsid Caliphate, 132-170/750-786«, unpublished Ph. D. thesis, University of London, 1967.
Pelliot, P., «Tocharien et Kotcheen», *Journal Asiatique*, 1934, pp. 23 ff.
Rabinowitz, I, I., «Notes on the Jews of Central Asia (Khorasan)», *Historia Judaica* 8 (1948), pp. 61-6 (rejoinder by W.J. Fischel, pp. 66-8).
Rosenthal, F., *A History of Muslim Historiography*, Leiden 1952.
«Baladhuri», *Encyclopaedia of Islam*, New Edition, Leiden, 1954-.
Ross, E.D., *Nomadic Movements in Asia*, London, 1929.
Schwarz, P., *Iran im Mittelatter*, Stuttgart and Berlin, 1896-1936. 9 vols.

Siddiqi, S.A., *Public Finance in Islam,* Lahore, 1948.
Shaban, M.A., «Ibn A'tham al-Kūtī», *Encyclopaedia of Islam,* New Edition, Leiden 1954-.
«The Social and Political Background of the Abbāsid Revolution in Khurāsān», unpublished Ph. D. thesis, Harvard University, 1960.
Sourdel, D., *Le Vizirat Abbaside,* Damascus, 1959-60, 2 vols.
Spuler, B., *Iran in Früb-Islamischer Zeit,* Wiesbaden, 1952 (has a full Bibliography).
Stein, Aurel, *On ancient central Asian tracks,* London 1933.
Storey, C.A., *Persian Literature, A bio-bibliographical survey,* section 2, fasc. 2, London, 1936.
Tavadia, J.C., «Iran in the first centuries of Islam and her unique conversion to the new religion», *Journal University of Bombay* (1954), pp.106-17).
Tritton, A.S., *The Caliphs and their non-Muslim subjects. A critical study of the Covenant of Umar,* London, 1930.
Caliphs and their non-Muslim Subjects, Oxford, 1930.
Tyan, E., *Histoire de l'Organisation judiciaire en Pays de l'Islam,* Paris, 1938-45. 2 vols.
Van Vloten, G., *De opkomst der Abbasiden in Chorasan,* Leiden, 1890.
Recherches sur la Domination Arabe, Amsterdam, 1894.
Walker, J., *A Catalogue of the Arab-Sassanian Coins,* London, 1941.
A Catalogue of the Arab-Byzantine and Post-Reform Umaiyad Coins, London, 1956.
Watt, W. M., «Shī ism under the Umayyads», *Journal of the Royal Asiatic Society* (1960), pp. 158-72.
«The Conception of the Charismatic Community in Islam», *Numen* VII (1960), pp. 85-98.
«Khārijite thought in the Umayyad Period», *Der Islam,* vol. 36, part 3 (1961), pp. 215-31.
«The Political Attitudes of the Mutazilah», *Journal of the Royal Asiatic ociety* (1963-4), pp. 38-57.
Islamic Political Thought, Edinburgh, 1968.
Watters, T., *On Yuan Chwang's travels in India,* London, 1904-5, 2 vols.
Wellhausen, J., *Das Arabische Reich und sein Sturz,* Berlin, 1902, *The Arab Kingdom and its Fall,* tr. M.G. Weir, Calcutta, 1927.
Widengren, G., *Xosrau Anosurwan, les Hephthalites et les peuples Turcs,* Orientalia Succana, i, 1952.
Wensinck, A.J., *A handbook of early Muhammadan tradition,* Leiden, 1927.

Wiet, G., «L'Empire néo-byzantin des Omayyades et l'Empire néo-sassanide des Abbassides», *Journal of World History* I (1953), pp. 63-70. 63-70.

Wright, E.M., «Symbols of Iranian persistence against Islamic penetration in North Iran», *Muslim World* 38 (1948), pp. 43-59, 124-31.

Zambaur, E., *Manuel de généalogie et de chronologie pour l'histoire de l'Islam,* Hanover, 1927.

